بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لِلَّـه الذي جعل حبّ الأوطان غريزة مركوزة في قلب الإنسان، بل في قلوب الطير والحيوان. والصلاة والسلام على خيرته من خلقه إمام الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ، الذي قال في وطنه مكّة: «**والله إنَّكِ لأحبّ بلاد اللَّـهِ إليّ، ولولا أنّ أهلَكِ أخرجوني ما خرجتُ منك**». ولمّا زاد الشوق ببلال بن رباح ﵁، وهو بالمدينة، إلى مكة وشعابها أنشد بصوته الرخيم:

ألا ليت شِعري هل أبيتنّ ليلةً بـوادٍ وحـولي إذخـرٌ وجليـلُ
وهـل أرِدَنْ يومـاً ميـاه مَجَنّـةٍ وهل يبدوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ [١]

فقال له الرسول ﷺ: يا أصيل دع القلوب تقرّ.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «لما قدِم النبيّ المدينة وعِك أبو بكر وبـلال، فكـان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول:

كلّ امرىءٍ مُصبّحٌ في أهلِهِ والموتُ أدنى من شِراكِ نعلِهِ

وبلال يرفع عقيرته بالأبيات السابقة، فقال رسول الله ﷺ: «**اللّٰهمَّ حبِّب إلينا المدينة، كحبّنا مكة أو أشدّ. اللّٰهمّ بارك في صاعنا، وفي مدِّنا وصحّحها لنا. وانقل حُماها إلى الجحفة**». أخرجه البخاري في فضائل المدينة من صحيح البخاري، باب مناقب الأنصار، وباب من دعا برفع الوباء والحمى، والإمام أحمد في مسنده وابن سعد، كلهم عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها.

---

(١) مجنّة: سوق على بعد أميال من مكة، وشامة وطفيل، قيل إنهما جبلان في مكة، وقال الخطابي: إنهما عينان (من عيون المياه) بالقرب من مكة.

فهذا رسول الله ﷺ وصحبه الكرام يتغنّون بمكة ويودّون أن لو كانوا بها، ويعلنون حبّهم لها، رغم ما لاقوه من أهوال من قريش، أهل مكة، حتى اضطروهم للخروج منها. فآواهم الأنصار رضي الله عنهم، وأكرموهم غاية الإكرام، ومع ذلك بقي حبُّ مكّة في قلوبهم، حتى دعا رسول الله ﷺبأن يجعل الله حبّ المدينة كحبّ مكة أو أشدّ في قلوبهم، فكان كذلك. ورفع اللّـهُ عن المدينة الوباء، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «قدِمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله». وقالت: «وكان «بطحان» يجري نجلاً، يعني ماء آجناً. ولا شك أن هذه المياه الآجنة كانت مرتعاً للبعوض مما جعلها تنقل الحمّى المعروفة لدينا بالملاريا، وربما غيرها من الحميات. كما أن هذه المياه الآجنة سبب لنموّ كثير من البكتريا والفطريات الممرضة مع وجود الحشرات، وخاصة البعوض، فدعا رسول الله ﷺ برفعها، فرفعها الله سبحانه وتعالى إلى الجُحفة ببركته.

وقد وُلدت في عدن، مع بداية الحرب العالمية الثانية، والطائرات الإيطالية تغير على عدن والدفاعات الأرضية تصليها ناراً، ثم في سن السابعة (سنة ١٩٤٧م) تمّت أول ثورة ضد يهود عدن بسبب ما حدث في فلسطين، وما أثاره الصهاينة حتى يضطرّوا يهود عدن واليمن إلى الهجرة إلى إسرائيل وقليل منهم إلى بريطانيا، فهاجر من اليمن وعدن أكثر من خمسين ألف، زادوا في إسرائيل حتى وصل عددهم أكثر من ثلاثمائة آلف الآن (٢٠١٠م).

ثم جاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦م وهاج الناس دفاعاً عن مصر وعبد الناصر بطل القومية العربية آنذاك... وشاركتُ في الحركة الطلابية، ثم ذهبت إلى القاهرة عام ١٩٥٨م لدراسة الطب. وعدتُ إلى عدن بعد إتمامي الدراسة، وكانت عدن تغلي بالثورة ضد الإنجليز، وقد دخَلَتْ إليها حركة القوميين العرب، وتسلَّل إليها الماركسيون والشيوعيون، وسالت الدماء أنهاراً بين الجبهة القومية NLF وجبهة التحرير FLOSY، وسبقتها مجموعة من الأعمال

الإرهابية والاغتيالات المتبادلة بين الفرق السياسية... وعايشتُ الدمار، وكنت آنذاك فيما كان يعرف بمستشفى الملكة، وهرب الأطباء الأجانب كلهم، واختُرْتُ كمدير مؤقت ورئيس للأطباء من أبناء عدن والمحميات وهم قلّة، وواجهنا أياماً عصيبة، حيث كانت الأسلحة والقنابل والرشاشات تدخل إلى عنابر المرضى لتتم بقية المعارك...

ورغم المآسي التي تلت ذلك ومجيء الحكم الشمولي الماركسي اللينيني الذي خرّب البلاد والعباد، واضطرار الكثيرين للهروب من هذا الجحيم، إلا أن ذلك كله لم يطفئ جذوة حبّ عدن في القلوب.

آتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

أمرُّ على الديار ديار ليلى أُقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حبَّ من سكن الديارا

على أرضها الجرداء، نَمَوْتُ، وعلى ساحل صيرة كانت مدرستي المتوسطة – وكانت صيرة ميناء عدن التاريخي مقرّ لهوي، وأترابي، وعلى ساحلها قضيت سنوات من عمري. ثم انتقلت إلى كلية عدن على آخر حدود الشيخ عثمان بالقرب من دار سعد وبستان كمسري. وهي الثانوية الحكومية الوحيدة آنذاك في عدن، ولا يدخلها إلا قليل من أبناء عدن والمحميات.. وكان مستواها راقياً في تعليمها ومبانيها وملاعبها.. وكم كان لي من لدات وأتراب تمكّن حبّهم من قلبي إلى يومي هذا.

وفي منطقة العيدروس كان منزلنا، فكان مسجد العيدروس مأوى أفئدتنا، نذهب إليه كل يوم جمعة، ونلتقي الأحباب والأشياخ. وفي مسجد بانصير معظم صلواتنا لقربه من البيت.

ومدارس عدن ومناهجها أبعد ما تكون عن الدين، ولولا الوالد رحمة الله عليه لما عرفنا أن نصلي ولا كيف نقرأ القرآن، فجزاه الله عنا خير الجزاء. وكانت البيوت تحوي الأب والجدّ والأعمام، فكم منهم نهلنا وتعلّمنا وتأدّبنا، أنا وأخي وصنو الروح والبدن أحمد.

وكانت فترة حياتي في عدن لا تزيد عن ٢١ سنة، بينما حياتي في جدة ضعف تلك الفترة، وقد وجدتُ فيها سكناً وأمناً وأخوة وأحباباً، ورزقني الله، فيها الذرية والاستقرار... ولكن شتّان بين حبّ عدن وحبّ جدة.. ولعل ذلك ما عايشه بعض الصحابة من أهل مكة، فرغم معاناتهم وعذاباتهم في مكة إلا أن قلوبهم ظلّت معلقة بأستار الكعبة، رغم ما وجدوه في المدينة من أمن وأمان، وعزّة ومَنعة، وأخوة كرام يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وكنتُ أغالب حبّي لعدن، فلما زالت الغمّة وانهار الحكم الشيوعي الماركسي اللينيني الدموي، بدأت أحلام العودة تراودني. وبدأت بالزيارات المتكررة وإلقاء المحاضرات في جامعة عدن: في كليّة الطب وغيرها بدعوات كريمة من مدير جامعتها آنذاك الدكتور صالح علي باصرّة ثم الدكتور عبد العزيز صالح حبتور.

ولكن الأمور لم تجرِ بما تشتهي السفن، والفوضى ضاربة أطنابها بعد الوحدة وعمليات الاستحواذ على البيوت والأراضي والمناصب استمرّت.. وتحدّث الكثيرون عن وجوب إعطاء كل منطقة دوراً في الحكم المحلي، أو الحكم الفيدرالي، ولكن أصحاب النفوذ والطغمة الحاكمة أفسدت البلاد والعباد. ولم يكن ذلك مقتصراً على عدن، بل كان الأمر في كل أرجاء الجمهورية. وبدأت النعرات الجاهلية تزداد، يغذّيها الظلم والفساد.. ولم يعد هناك أمل في العودة، وقد كنت اشتريت منزلاً هناك، فكان لا بدّ من التخلّص منه، ولو بخسارة.

وزرتُ كل مراتع الصبا مراراً وذهبت إلى الصهاريج في الطويلة، حيث كنا نلعب أطفالاً، ونسبح نادراً إذا ما امتلأت الصهاريج، ونادراً ما يحدث ذلك.

وتردّدت على صيرة وشوارع عدن ومدارسها، وحاولت الصعود إلى حقات فمنعني الحرس الذين يحرسون القصر الجمهوري... وهو في الأصل بناه الثري الفرنسي العدني توني بس على قمّة الجبل حيث المنظر الرائع، فخليج صيرة وحقات أمامك، ويمتدّ المنظر إلى خليج عدن وخورمكسر. ومن الجهة الأخرى ترى مدينة عدن بمآذنها وجبالها الشامخة الذُّرَى.. وتذكرت أياماً كنت أصعد فيها مع صديقي الأخ عبد المجيد الزنداني بعد صلاة الفجر لنتحدث حول الإعجاز العلمي الذي كان محل اهتمامه كلّه آنذاك.

وتذكرت التواهي والساحل الذهبي وسواحلها الأخرى، وذهبت وسبحت فيها وكأنني أعيش أيام الصبا وفورة الشباب، وما عرفت أني قد جاوزت الستين بل واقتربت آنذاك من السبعين.

ولم أترك بستان كمسري ولا ساحل أَبْيَن ولا حارة ولا مكاناً كان فيه ذكرى إلا ذهبت إليه. وذهبت إلى البريقة مراراً، ولأختي وزوجها المهندس السيد جعفر محمد السقاف منزلاً مطلًّا على ساحلها. وتذكرت أيام كنت طبيباً مسؤولاً في المستشفى الحكومي الصغير فيها. وكم كنت أسبح في ساحلها وأتمشى عليه وأشتري كومة السمك بشلن واحد فقط.

وتجمّعت لديّ معلومات غزيرة عن عدن وعن تاريخها القديم والحديث، وبدأت بكتابة ذكريات، ورأيت أن ما لديّ من معلومات جغرافية وتاريخية ودينية لا تحتملها ذكريات، فقلت: أبدأ بكتاب عن عدن وتاريخها وجغرافيتها.

وبدأت بالتعريف بعدن وما كتبه الرحّالة من المسلمين عنها، ثم الرحّالة من الأوربيين، ثم كتبت فصلاً عن بركان عدن والتركيب الجيولوجي لمدينة عدن والأحاديث النبوية الشريفة في بركان عدن.

واعتبر بعض المؤرخين والكتّاب أن ما ورد عن عدن في هذا الباب من باب الأساطير، وهم في ذلك واهمون. وتحدثت عن بركان عدن، وأول من نشر ذلك

علماء الجيولوجيا الإنجليز، ولكنني لم أقرأ أبحاثهم إلا فيما بعد، وأول ما وصلني كان البحث العلمي الموثق للدكتور معروف عقبة عن بركان عدن والبوميس[1]، وهو الطفح البركاني الموجود في كهوف البوميس في عدن، وقد استخدمه القدماء لتلبيس الصهاريج الضخمة في الطويلة وغيرها. وقد نشر بحثه ذلك في الندوة العلمية عن عدن عام ١٩٩٩م.

ثم قام الدكتور أحمد حنشور والدكتور معروف عقبة بإلقاء بحث في ندوة (عدن بوابة اليمن الحضارية) المنعقدة في جامعة عدن ١٨- ١٩ يناير ٢٠١١م، وهو أيضاً عن البوميس إحدى المواد العمرانية في عدن.

ثم قامت وكالة ناسا ومعهد سمثونيان في الولايات المتحدة بدراسة مجموعة من الهزّات البركانية في خليج عدن، حدثت من ١٤ نوفمبر ٢٠١٠م إلى ١٠ يناير ٢٠١١م، وحصلت ٣٧ هزّة في اليوم الأول، ثم انخفضت الهزّات. وقد حدثت ٤٧ هزّة قوية (٤,٥ إلى ٥,٥ على مقياس ريختر) بسبب تحرّك الصفائح الموجودة في الحبشة والصومال، والصفيحة العربية... ووصفوا هذه الهزّات بأنها مثل الأسراب Swarm. وعلّق بعض الباحثين: هل قَرُبَ آخر الزمان، بحيث تنفجر البراكين المتوقّعة في منطقة عدن وما حولها؟ وقد قال القدماء مثل بامخرمة والهمداني وابن المجاور، بأن بدايتها ستكون في جبل صيرة... وكم سخر الكتّاب المحدثون من هذا القول. وسخريتهم تدلُّ على جهلهم. فكريتر هي فوهة بركان سيثور قطعاً في آخر الزمان، وهو آخر العلامات العشر التي تسبق النهاية ويوم القيامة، كما أخبرنا بذلك الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في الأحاديث الصحيحة الثابتة التي أوردناها في هذا الفصل. وقد راجع هذا الفصل الأخ العزيز الجيولوجي عبد الله الزبيدي، فله مني خالص الشكر.

---

(١) البوميس هو حجر الخفاف البركاني. وخفّته ناتجة عن وجود الغازات البركانية، واسمه بالإنجليزية Pumice (بيوميس). وقد حرّفه أهل عدن إلى بوميس، وهو أمرٌ معتاد.

ثم جعلت الفصل الثالث لجغرافية عدن. وعدن التاريخية هي مدينة كريتر فقط، وما حولها كان يُنتسب إليها، وهي مدينة محصّنة أشد التحصين بالجبال الشامخة (شمسان) من كل جهة ما عدا جنوبها حيث البحر. ومن الجنوب والشرق جبل وجزيرة صيرة. وعليها قلعة حصينة تحميها من الأعداء، وعلى صيرة أيضاً سور له خمسة وفي بعض الأحيان ستة أبواب، وعليه استحكامات عسكرية.. وعلى باب عدن (العقبة) مجموعة من الاستحكامات والقلاع والدروب. وقد شرحت ذلك كله في الفصول المتتالية عن باب عدن والتلاج وصيرة.. إلخ.

ولكن محافظة عدن تختلف عن مدينة عدن التاريخية، فالمدينة الصغيرة لا تزيد عن ميل مربع (ثلاثة إلى أربعة كيلومترات مربعة) بينما محافظة عدن الحالية تصل إلى ٦٩٨٠ كيلومتراً مربعاً، وتحتوي مدناً عدة هي: كريتر - المعلّا - التواهي - خورمكسر - الشيخ عثمان - المنصورة - مدينة الشعب إلى البريقة وما تبعها وامتدت الآن لتشمل دار سعد وما بعدها.

وقد كان سكان عدن في أيام الرسوليين والطاهريين يصلون إلى ستين ألف شخص[1]. ولها تجارة عالمية تمتد إلى الصين والهند، وتربط الشرق بالغرب عبر مصر، وتأتيها تجارة إفريقيا الشرقية (الصومال والحبشة وإريتريا وكينيا وتنزانيا إلى مدغشقر).. ولكن عندما دخل القبطان هينس عدن وضربها بالمدافع فرّ سكانها ولم يبقَ فيها سوى ١٢٨٩ نسمة منهم أكثر من ٢٥٠ يهودي. ولكن في خلال ثلاثة أعوام عاد كثير من السكان حتى وصلوا إلى ١٥,٠٠٠، وبحلول عام

---

(١) عندما زار عدن، في رحلته إلى الصين، قال ماركو بولو إن سكانها يقدّرون بثمانين ألف، مليئة بالتجار من كل البلاد، وبضائعها وأسواقها عامرة. وقد زارها في أيام الدولة الرسولية (القرن الثالث عشر الميلادي).

١٩٠١م وصل السكان إلى ٤٤,٠٠٠. ثم كانوا عند الاستقلال عام ١٩٦٧م أكثر من مائتي ألف نسمة.

وكانت عدن ثالث أهم ميناء بعد ليفربول ونيويورك، ويقول كتاب Yemen Divided[1] الذي صدر عام ٢٠١١م أن عدن كانت أهم ثاني ميناء في العالم في الخمسينات وبداية الستينات من القرن العشرين.

وقد شرحت مناطق عدن (المحافظة) المختلفة ومعالمها، ووضعت كثيراً من الصور الجميلة لعدن كريتر والنواهي والمعلا والبريقة.

وفي الفصل الذي يليه بعض معالم عدن التاريخية: باب عدن (العقبة)، وجبل شمسان، والدروب (التلاج)، وصهاريج عدن، وصيرة ميناء عدن القديم، ورجعتُ إلى ما قاله القدماء، من أمثال الطيب بامخرمة وابن المجاور وغيرهم، ولكن المصدر الأساسي والهام هو كتب أستاذي (درّسني في كلية عدن لعام واحد الرياضيات) الأستاذ عبد الله محيرز في كتبه الثلاثة: العقبة، الصهاريج، صيرة. وقد طُبعت طبعة رديئة لا تليق بأهمية هذه الكتب، وأخيراً قامت وزارة الثقافة والسياحة بصنعاء بإصدار هذه المجموعة كاملة في طبعة جميلة سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م وقد أحسنت بذلك صُنعاً.

ومن الكتب المهمة في هذه الباب كتاب السيد حسن صالح شهاب: «عدن فرضة اليمن» طبعه المؤلف على نفقته سنة ٢٠٠٠م (ط ٢).

وقد انتقلت بعد ذلك إلى معالم عدن الدينية، وتحدثت فيها بإسهاب عن مسجد عدن التاريخي الذي بناه معاذ بن جبل ودخله الإمام عليّ بن أبي طالب وصلّى فيه وخطب على منبره، ودخله أبو موسى الأشعري وعدد من الصحابة. ووثّقت بعد جهد أنه هو الذي بقيت منارته، وهي المنارة المشهورة في كريتر عدن

---

(١) Noel Brehony: *Yemen Divided*, Taurus, London, New York, 2011 .

بالقرب من ميدان الكرة (الحبيشي) ومكتب بريد كريتر، ومكتبة مسواط (مكتبة ليك سابقاً). ثم تحدثت عن مسجد أبان وهو ثاني مسجد من الناحية التاريخية، فقد أقامه وبناه الحكم بن أبان بن عثمان بن عفان، وهو من التابعين. والحكم يعتبر من علماء عدن الأفذاذ، وهو الذي رحل من أجله الإمام أحمد فوجده قد مات، ولم يكن ابنه في علم الحديث كوالده. وأما أبان نفسه فقد تولى إمارة المدينة، وهو أول من وضع كتاباً في السيرة، أضاعه الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد أن أخذه منه ولم يكن معه نسخة أخرى... و(أبان) من علماء التابعين، ويبقى السؤال هل دخل عدن وبنى مسجدها؟ أم أن الذي فعل ذلك هو ابنه الحكم بن أبان؟ وتاريخ المسجد حافل بالعلماء الذين درّسوا فيه، ومن آخرهم السيد مطهر الغرباني الذي حباني بكرمه وعطفه.

ثم مسجد الشيخ جوهر أحد أولياء عدن المشهورين، ومعلم من مراكز العلم والدعوة.

ثم تحدثت بإسهاب طويل عن العيدروس ومسجده وتلاميذه ودوره السياسي والاجتماعي والديني. وكذلك دور تلاميذه، ومنهم العلامة الفقيه محمد ابن عمر بحرق الذي هاجر بعد ذلك إلى الهند، وكانت له مكانة عظيمة عند حاكم مدينة أحمد أباد، ومات في كجرات، وقبره معروف، وله عشرات الكتب الهامة مطبوعة ومخطوطة، وله شعر رائق.

ومن تلاميذه السيد حسين بن الصديق الأهدل صاحب مسجد حسين، وعُرِفَتْ حافة حسين باسمه. وذكرتُ مؤلفاته وعلمه وتصوّفه وجهود آبائه الأهادلة وبالذات من دخل منهم عدن.

ومن تلاميذه البحار العربي المشهور أحمد بن ماجد، وترجمت له ترجمة واسعة شافية كافية. وكان قد أخذ عن العيدروس العدني حزب البحر للشاذلي وأوراداً أخرى عند زياراته المتكررة لعدن.

وذكرت دور العدني (العيدروس) في الاستعداد للبرتغاليين الذين بدأوا

غزو هرمز ومسقط وسقطرى في حياته، وهاجموا الشحر وعدن بعد وفاته. وقاومت الشحر وعدن هذا الغزو المتكرر وردّته على أعقابه، وكان من شهداء الشحر الحسين بن عبد الله العيدروس.

والخلاصة، أن ما كتب عن العيدروس وتلاميذه وعصره وعلاقته بعامر بن عبدالوهاب يصلح كتاباً مستقلًّا، وكنت أنوي ذلك، لكن المراجع لم تُتَح لي آنذاك، فأرجأت الموضوع واكتفيتُ بهذا الفصل الموسع عنه. وكان الأخ السيد شيخ بن زين العيدروس قد تكرم وأهداني كتاب تاريخ الشحر للطيّب بافقيه وبعض الكتب عن العيدروس، فله وافر الشكر.

ثم تحدثت عن مسجد البصّال (الذهيبي) والمدرسة الياقوتية وجمعت مصادر عديدة وزرت المسجد وقبر البصّال، والتقيت بالقائمين على المدرسة والمسجد وعلى رأسهم الشيخ أمين سعيد باوزير والشيخ نضال باحويرث، والدكتور أحمد صالح رابضة الذي كتب كثيراً عن مدارس ومساجد عدن التاريخية، وكتب كتاباً حافلاً عن المدرسة الياقوتية التي أنشأتها زوج الملك الظاهر بن يحيى الأشرف الرسولي. وكان لها عبد مخصي يتولى شؤونها اسمه ياقوت فعرفت باسمه: «جهة الطواشي (عبد مخصي) اختيار الدين ياقوت». وقد أقامت العديد من المدارس والمآثر في اليمن كلها، ومن بينها المدرسة الياقوتية في عدن.

ثم ذكرت مساجد آل العراقي، وهم سادة هاجر جدّهم إلى عدن من العراق واشتهروا بالعلم والدعوة إلى الله وبناء المساجد العديدة في عدن (كريتر) وصيرة والتواهي والبريقة. ثم تحدثت بإسهاب عن مسجد العسقلاني والشيخ محمد البيحاني رحمه الله فقد كان من أشهر خطباء عدن، بل أشهر خطباء الجزيرة العربية.

وأخيراً تحدثت عن بعض مساجد الشيعة، ثم بعد ذلك معابد اليهود والهندوس والفرس والنصارى، لأن عدن مدينة مفتوحة على مدى التاريخ وازداد انفتاحها في عهد الإنجليز...

وهناك مجموعة من الكتب عن مساجد عدن منها كتاب غير مطبوع للسيد عبدالقادر بن عبد الله المحضار بعنوان: «التذكير بأخبار العباد والبلاد»، وكتاب «مساجد عدن» للشيخ أمين سعيد باوزير، وكتاب الدكتور أحمد صالح رابضة «معالم عدن التاريخية – المدرسة الياقوتية». وقد أهداني هؤلاء الأفاضل كتبهم هذه، وتكرّموا عليّ بها، وقد استفدت منها فائدة كبيرة، فلهم الشكر الجزيل على ذلك.

وأما ما ذكرته عن اليهود فقد استقيته من كتاب هام عن يهود عدن صدر من يهود عدن في بريطانيا، وأعطاني صورة منه الدكتور مرشد شمسان، مدير مركز الدراسات والبحوث اليمني، والذي تكرَّم بإعطائي صوراً من عدة كتب أخرى، ومنها كتاب «أولياء الله الصالحين: العيدروس في عدن»، لمجموعة من طلبة الدراسات العليا في جامعة عدن.

وذكرت الوِكيبيديا وجوجل عدة أبحاث هامة عن يهود عدن فاستفدت منها، كما أخذت معلومات من الوِكيبيديا وجوجل عن الكنائس النصرانية، بالإضافة إلى الصور التي حصلت عليها عن عدن من أخوة عديدين منهم الأخ الصهر المهندس جعفر بن محمد السقاف، والأخ الصديق العزيز الدكتور الشاعر شهاب محمد عبده غانم. وحصلت على صور ومعلومات عن معابد الهندوس ومعابد الفرس (البارسي) الزرادشتيين في عدن. فلهم جميعاً الشكر.

وبذلك انتهى الجزء الأول من الكتاب. أما الجزء الثاني فقد وضعته عن تاريخ عدن عبر العصور، وبدأت بالتاريخ القديم ابتداءً من إرم ذات العماد. وهناك قرية صغيرة اسمها العماد في مسار وادي لحج شرق دار سعد والشيخ عثمان. وقد أشار الأستاذ عبد الله محيرز، إلى احتمال علاقتها بإرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد. ورغم أن قوم عاد هم في الأحقاف، وهي على الحدود بين حضرموت وعمان، إلا أن هؤلاء القوم الأقوياء كانت لهم دولة باذخة وحضارة واسعة، تحدثت عنها بتفصيل في كتابي «إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن»

وبالذات في الطبعة الثانية... واحتمال أن تكون قرية العماد هي إرم ذات العماد وارد، ويحتاج إلى أبحاث أركيولوجية وآثارية واسعة. ووضعُ اليمن السياسي والاقتصادي المتدهور لا يسمح بذلك في المستقبل المنظور.

ثم تحدثت عن الممالك اليمنية القديمة وعلاقتها بعدن، وتحدثت بصورة خاصة عن مملكة أوسان الشهيرة التي كانت تحكم جنوب اليمن وعدن، وتمتد إلى العوالق وبيحان ودثينة، وتسيطر على التجارة البحرية وميناء عدن وموانئ إريتريا والحبشة والصومال.. وكان ميناء أوفالتس (عدول) تحت حكمهم. وأدى احتدام المنافسة الشديدة بين دولة سبأ وأوسان إلى أن تقوم سبأ بالتحالف مع دولة حضرموت ودولة قتبان للقضاء على دولة أوسان. وقام الملك السبائي كرب إل وتر مع حلفائه بإنزال ضربة قاصمة بأوسان في القرن السابع قبل الميلاد. وقد ذكر نقش صرواح المشهور (Glaser1000 B) ونقش (RES 39 45) سجل حروب كرب إل وتر وانتصاره على أوسان وغيرها.

ثم انتقلت إلى صلة عدن واليمن وسقطرى بالفراعنة ثم اليونان ثم الرومان. ثم ذكرت ما ورد عن سبأ وعن عدن في أسفار العهد القديم، وبالذات في سفر حزقيال... ثم تحدثت عن علاقة اليمن وعدن بالحبشة والساحل الإفريقي، ثم انتقلت إلى احتلال الحبشة لليمن وخروج سيف بن ذي يزن وطلبه النصرة من فارس ودخول الجيش المشترك الحميري والفارسي إلى عدن ومنها إلى صنعاء، ليتم القضاء على الغزو الحبشي ودولتهم.

وتاريخ عدن مرتبط تماماً بتاريخ اليمن وخاصة منطقة المعافر المعروفة اليوم بالحجرية وتعز... ولا يمكن فكّ ذلك الارتباط التاريخي والسياسي والديموجرافي بينهما بأي شكل من الأشكال. وفي عصر الاستعمار البريطاني كان يمكن أن تتحول عدن إلى دولة مختلطة يتغلب فيها الهندوس، لولا الهجرة المستمرة من منطقة الحجرية للحاجة إلى عشرات الآلاف من العمال في إنشاء

مصافي البريقة، وبناء آلاف المساكن للجنود الإنجليز وعائلاتهم الذين نزحوا من قناة السويس في مصر عام ١٩٥٤م بعد اتفاق الجلاء. ولولا وجود آلاف العمال من تعز وما حولها لضاعت عروبة عدن، ولأصبحت مثل سنغافورة مدينة صينية والملاويين فيها أقليّة. وهذا كان مخطط بريطانيا أول الأمر حيث شجعت الهجرة الهندوسية بكثافة حتى كانوا أكثر من سكان عدن ومواليدها من العرب. ولكن السياسة تغيّرت بعد ذلك لظروف سيتم شرحها في الجزء الثالث من الكتاب.

وفي الفصول التالية تحدثت عن اليمن وعدن في العهود الإسلامية ابتداءً من العهد النبوي والراشدي مروراً بالعهد الأموي ثم العباسي، ثم الدولة الزيادية وعاصمتها زبيد، وآخر رجالهم أحد مواليهم المدعو الحسين بن سلامة الذي شبّهه المؤرخون في عدله وتقواه بعمر بن عبد العزيز. ثم ما تبع ذلك من قيام دولة آل نجاح الحبشية مع بزوغ وظهور دولة الصليحيين الإسماعيلية، وما تميز به الصليحي حتى استطاع أن يحكم اليمن بأكملها إلى حضرموت وظفار. وكانت الملكة أروى (السيدة بنت أحمد) من مواليد عدن وتزوجها المكرم أحمد بن علي الصليحي، وجعل مهرها دخل عدن يستمر طوال حياتها، وكان الدخل في حدود مائة ألف دينار يحمل إليها سنويًّا بعد مصاريف الدولة في عدن. ثم تحدثت عن الدولة الزريعية وهي أيضاً من همدان، وتدين بالمذهب الإسماعيلي. ثم انتقلت إلى العهد الأيوبي وولاية الزنجيلي على عدن، وإصلاحاته فيها. ثم تحدثت بعد ذلك عن الدولة الرسولية التي امتدّ حكمها ليشمل مكة والمدينة ويشمل ظفار وكل اليمن، وامتد زمن حكمها لأكثر من قرنين ونصف من الزمن (٦٢٥– ٨٥٨هـ)، وتميّزت بأن ملوكها كانوا علماء وشعراء وأدباء وأطباء ومهندسين ومزارعين وفلكيين بالإضافة إلى كونهم قادة الجيوش.

وقد كثرت المدارس منذ العهد الأيوبي ولكنها بلغت أوجها في العهد

الرسولي، ثم ظهرت الدولة الطاهرية، واستولت على أراضي الدولة الرسولية، ولكنها لم تبلغ شأوها. ومع هذا كانت عدن أهم مدنهم بعد زبيد وتعز، وربما كانت تسبقهما في بعض الأحيان. وكان ملوكها محبِّين للعلماء ومجالسين لهم، وخاصة عامر بن عبد الوهاب ولهم مآثر كثيرة... ولكنها لم تبلغ في مداها ما بلغته دولة آل رسول، ولم تقم بنشاط علمي مثلما قاموا به، ولم يكن من ملوكها من قام بتأليف الكتب العجيبة النافعة. وحسب علمي، فإن الدولة الرسولية هي الوحيدة في كثرة المؤلفين بين ملوكها. وللأئمة الزيدية كتب كثيرة وخاصة في مذهبهم.

وفي عهد الدولة الطاهرية صدّت عدن الهجوم البرتغالي مراراً، كما صدّت هجوم المماليك، ولكنها لم تستطع أن تصدّ دخول العثمانيين وفتحت لهم الأبواب، فكان جزاء الملك عامر بن داود أن يُشنق ويُصلب، مما أدى إلى بغض العثمانيين بسبب خيانة قائدهم سليمان باشا الخادم وقسوته البالغة.

ودخلت اليمن في حروب ضد العثمانيين وخاصة الأئمة من صعدة، حتى قامت الدولة القاسمية، وتم طرد الأتراك على مراحل متعددة. واستولت الدولة القاسمية لأول مرة على اليمن بأكملها، بما فيها عدن وحضرموت في زمن إسماعيل بن القاسم، ولكن ذلك لم يلبث إلا فترة يسيرة حتى انتشرت الحروب بين المطالبين بالإمامة فضعُفت الدولة، واستقلت كل منطقة بحاكمها، واستقل حاكم عدن من قبيلة العبدلي وتعاون مع يافع، ثم أقام السلطنة العبدلية التي استمرت في حكم عدن حتى دخلها القبطان والقرصان هينس سنة ١٨٣٩م.

ولا شك أن عدن قد ضعفت في زمن العبادل وحلّت محلها المخا لأسباب عدة، ومنها قربها من مزارع البن.. وكانت المخا أهم بلد لتصدير البن في العالم حتى عُرف في أوربا باسم Mokha ولا يزال، إلى اليوم، يُسمّى نوع من أنواع القهوة باسم Mokha أي المخا.

وسيكون الجزء الثالث بإذن الله عن العهد الاستعماري وما تبعه إلى الوحدة ثم محاولة الانفصال عام ١٩٩٤م.

ويبدأ الجزء الثالث من مقدّمات الاحتلال البريطاني لعدن، وكيف استطاع فضل بن علي السلامي العبدلي الاستيلاء عليها من مندوب الإمام، بالتعاون مع سلطان يافع القارة، أي السفلى، سيف بن قحطان، وذلك سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م، على أن يكون دخل عدن مناصفة بينهما. ولكن ما إن قتل فضل بن علي وتولّى ابنه عبد الكريم فضل على الأمور، حتى استقلّ بعدن عن يافع. وتسلسل الولاة من العبادل على عدن ولحج.

وأوّل من عقد اتفاقية منهم مع الإنجليز هو أحمد بن عبد الكريم سنة ١٨٠٢م، وهي اتفاقية صداقة وتقديم خدمات للسفن البريطانية، وإقامة التجارة معها متوهّماً أنها ستساعده على القضاء على المناوئين من القبائل المجاورة، مثل الفضلي والعقربي والصبيحة.. إلخ، وأنها ستمّده بالسلاح مقابل فتحه عدن لهم كميناء للتموين والتجارة.

ولكن بريطانيا قرّرت إيجاد قاعدة في عدن لأهميتها الاستراتيجية والحفاظ على الهند درّة التاج البريطاني، من فرنسا وهولندا وغيرها من دول أوربا، ولأهمية مينائها في تموين سفنها بالفحم، وللأغراض السياسية وإيجاد طريق بحري مباشر من الهند يقف في عدن للتجارة وللحجّاج الهنود المسلمين.

واستولى القرصان القبطان هينس على عدن في ١٨ يناير ١٨٣٩م في أيام السلطان محسن العبدلي (١٨٢٧ – ١٨٤٧م) الذي كان يرغب في صداقة الإنجليز، وعقدا اتفاقية تجارية واتفاقية صداقة معهم، على غرار ما فعله أحمد عبد الكريم سنة ١٨٠٢م، ولكن الإنجليز كانوا قد قرّروا احتلال عدن وخاصة بعد أن ازدادت مخاطر فرنسا ومحمد علي باشا والدولة العثمانية، والتي عادت إلى

اليمن من جديد. كما أن روسيا القيصرية بدأت تمدّ نفوذها إلى إيران وتقترب من بحر العرب. لهذا افتعلت بريطانيا قصة السفينة (دريا دولت) التي غرقت قبالة شاطئ أَبْين بالقرب من عدن، فقررت الاستيلاء على عدن بهذا السبب الذي لم يكن لأهل عدن ولا سلطانها دور في حدوثه.

ثم تحدثت بتفصيل عن استعمال هينس ليهود عدن كجواسيس واستفادته من خبرته في المنطقة، وضرب القبائل بعضها بالبعض الآخر، ومؤامراته حتى في بيت السلطان محسن فضل الذي قاوم بشدّة احتلال عدن. ودارت أربع معارك حامية لاستعادتها، ولكنها كلها فشلت بسبب يقظة الكابتن هينس ومعرفته أخبار عدوّه تفصيلاً، بنشره الجواسيس واستغلاله للخلافات بين اللحجي والفضلي والعقربي والحوشبي.. إلخ.

وقد كان اهتمام بريطانيا، منذ احتلالها لعدن، منصبًّا على عدن وحدها وتحصينها وإقامة الميناء فيها، وجلب آلاف الهنود، وأغلبهم هندوس، كجنود وعمّال وموظفين إليها، حتى إن من يدخل عدن يظنها مدينة «هندية».

وكانت سياسة بريطانيا ربط المناطق المحيطة بعدن، (التي عُرفت بالمَحْمِيّات التسع ثم تجاوزت العشرين فيما بعد)، بمعاهدات صداقة ثم بمعاهدات حماية. ولم تكن بريطانيا تتدخل في الشؤون الداخلية لتلك المشيخات الصغيرة وتتركهم في حروبهم، إلا متى كان في ذلك مصلحةً لبريطانيا فتتدخل آنذاك. وقد تثير حروباً محليّة إذا رأت مصلحة في ذلك، أو تعزل سلطاناً ليحلّ محله سلطان آخر (والواقع إن اسم السلطان كبير على هؤلاء، فقد كانوا فقراء محدودي النفوذ حتى على قبائلهم). بل إن بريطانيا العظمى تركتهم في الحرب العالمية الأولى ليواجهوا الدولة العثمانية التي كانت تحكم اليمن، واحتلّ سعيد باشا القائد التركي لحج، بينما كان سلطان لحج ينتظر النجدة من بريطانيا القريبة في عدن، ويحثّ الآخرين على المقاومة. فمات مقتولاً برصاص الجنود الهندوس التابعين لبريطانيا وهو يحاول الفرار إلى عدن..

ولم تتحرك بريطانيا إلّا بعد انتصارها في الحرب العالمية الأولى، وبدأت طائراتها تُغِير على المناطق الحدودية التي احتلّها الإمام يحيى حميد الدين الذي سلّمته القوّات العثمانية اليمن وما معها من عتاد. ولولا سلاح الطيران الفتّاك، الذي كان مع بريطانيا، والذي استخدمته ضد الإمام والقبائل منذ عام ١٩٢٦م، لما استطاعت بريطانيا أن تبقي أرض الجنوب في حوزتها. وقد وصفت الحوادث كلها فيما بين الحربين العالميّتين في عدن ومَحميّاتها، واتفاقية الحدود بين الإمام يحيى وبريطانيا عام ١٩٣٤م، والتي أوجدت هدنة بين الجانبين دون اعتراف الإمام بهذه الحدود، على أن تؤلف لجان تتفق على تلك الحدود.

وبدأ ظهور المَحميّات الشرقية في حضرموت من السلطنات الجديدة، التي تكوّنت بسبب عودة القطيعي والكثيري بالأموال والسلاح والرجال من حيدرأباد الدَّكن في الهند، حيث كانا قد وصلا مع حاكمها المسلم إلى مراكز هامّة في الجيش، ورتبة جمعدار (أي قائد فرقة)، ومن ثمّ دخلا في معاهدات حماية مع بريطانيا (القطيعي أولاً ثم الكثيري، وقد سبقتهما منطقة الواحدي وسقطرى والمهرة).

ولم تهتم بريطانيا بالمَحميّات إلّا منذ بداية الخمسينات عندما اضطرت لإيجاد اتحاد يشمل المَحميّات الغربية ١٩٥٤م، والذي لم ينفّذ إلّا عام ١٩٥٩م، ثم أدخلت عدن فيه عام ١٩٦٢م، على أن تدخل المَحميّات الشرقية فيه فيما بعد.

وظهرت الحركات الوطنية، التي فصّلنا فيها القول، والاستقلال في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م وما تبعه من ظهور دولة اليمن الجنوبية، ثم نهايته على يد سالمين والطغمة، ثم نهاية سالمين على يد عبد الفتاح وزمرته، ثم الحرب التي قضت على ما بقي من الحزب الشيوعي اللينيني الكافر بين الزمرة والطغمة، (أي مجموعات علي ناصر محمد ومجموعات عبد الفتاح إسماعيل والبيض)، وتخليص العباد والبلاد من شرّهم وهروبهم إلى الوحدة وما تبعها من انفصال ثم اتصال.

وأخيراً.. أتقدم بالشكر الجزيل للعديد من الأخوة الذين تكرّموا عليّ بإهداء كتبهم أو إعارتي كتباً، كما أشكر الدكتور مرشد شمسان الذي تكرّم علي بتصوير مجموعة من الكتب القيمة باللغتين العربية والإنجليزية، وقد رتب لقائي معه ابن أختي السيد علي حسن باهارون. كما رتب لي زيارة لميناء عدن (التواهي والمعلا) مع صديقه الأستاذ عادل شاوس، فلهم جميعاً شكري وتقديري.

وأهدتني جامعة عدن مجموعة من الكتب من بينها الندوة العلمية: عدن الماضي والحاضر والمستقبل، المنعقدة في جامعة عدن ١٥- ١٧ يناير ١٩٩٩م. ثم أرسل لي أخي الدكتور أحمد أعمال الندوة العلمية: عدن بوابة اليمن الحضارية، المنعقدة في يناير ٢٠١١م. وأمدّني الأخ الصهر الدكتور أحمد (سقاف) بن محمد البار بمجموعة من الكتب، كما تكرّم بقراءة معظم ما كتبته في الجزأين الأول والثاني. وأمدّني الأخ الشيخ محمد باذيب بكتاب الطيب بامخرمة: قلادة النحر. وأرسل لي الأخ العزيز الدكتور عادل عولقي كتاب نويل بريهوني بعنوان: Yemen Divided، الذي صدر في لندن عام ٢٠١١م. وأعطاني الأخ محمد علي الجفري كتاب الأستاذ محمد حسن عوبلي عن عدن. فلهم جميعاً شكري وتقديري. ولا أنسى أن أشكر الحبيب السيد عدنان بن علي بن أحمد مشهور الحداد لمراجعته الفصول المتعلقة بمساجد عدن وخاصة الفصل المتعلق بالعيدروس العدني.. كما أشكر العلّامة السيد سالم بن عبد الله الشاطري على مراجعته فصل العيدروس والكتاب ماثل للطبع. فجزاهم الله عني خير الجزاء.

والله يتولّانا برحمته وفضله، وينقذ اليمن من الفتن والمحن.

جدّة ٤ شوال ١٤٣٢هـ

٢ سبتمبر ٢٠١١م

تقديم

بقلم: المهندس الشاعر المبدع د. شهاب غانم

«اطّلع أخي وصديقي وزميلي (منذ المرحلة الابتدائية) الشاعر المبدع والمهندس الدكتور شهاب محمد عبده غانم على نسخة من الجزء الأول قبل دخوله المطبعة، فتطوَّع، مشكوراً، بهذا التقديم الجميل لاشتراكنا، في حبِّ عدن، مع البعد عنها بسبب الحكم الشمولي الشيوعي الذي أهلك الحرث والنسل وأباد الأخضر واليابس. وكلانا وجد وطناً جديداً قدّم لكلٍّ واحدٍ منّا ما يصبو إليه، هو في الإمارات العربية المتحدة، وأنا في المملكة العربية السعودية، فجزى الله من آوانا وأكرمنا كلّ خير.

وقد تميّز أخي الدكتور شهاب بعبقريته في ترجمة الأشعار من الإنجليزية (أشعاراً إنجليزية وهندية وأوروبية) إلى العربية شعراً والعكس أشعاراً عربية من الإمارات واليمن إلى الإنجليزية شعراً، ونال جوائز عدّة في هذا المجال الفريد، ولاقى بعض ما يستحقّه من تكريم.

وإليك، أيها القارئ، العزيز نفثات قلم وفيّ لعدن ولصديقه وزميله عبر الأيام والسنين».

بعض المدن لها سحرٌ خاص. لقد ترحّلت في أكثر من خمسين دولة وتأكّد لي ذلك من خلال مشاهداتي، فبعض المدن تسحرك. ومن تلك المدن، مثلاً، صنعاء.. ولذلك قلت في إحدى قصائدي:

فلا بدّ من صنعاء مهما نأى السّرى فـإنّ لهـا سـحراً يـشدّك مأسـورا

وقديماً قال الشافعي: لا بدّ من صنعا وإن طالَ السفر.

ما الشيء الذي يجعل لهذه المدن ذلك السحر؟ هل هو التضاريس الطبيعية كالجبال والأنهار؟ هل هو الأشجار والخضرة والأزهار؟ أم الهندسة المعمارية التي تتميّز بها؟ أم هو طبيعة أهلها؟ أم كل تلك الصفات مجتمعة؟ أم أمر آخر؟

بالنسبة لمدينة عدن فهناك الجبال البركانية الناطقة بالتاريخ مثل شمسان والتعكر وصيرة وحقات، وهناك الشواطئ الجميلة مثل «جولد مور»، وهناك البشر المسالمون البسطاء، وهناك ذلك الشعور بعمق التاريخ والأساطير. فتاريخ عدن المرويّ يرتبط في بداية البشرية بقابيل ابن آدم أبي البشر، إذ يقال إن قابيل لجأ إلى عدن بعد أن قتل أخاه هابيل. وفي الطرف الآخر من الزمن ترتبط عدن بقيام الساعة في الحديث الشريف الذي يرويه مسلم عن «نار تخرج من قعر عدن ترحّل الناس». وفي عدن آثار قديمة كالصهاريج وقلعة صيرة وتحصينات جبال التعكر والمنارة ومساجد أبان والعيدروس وغير ذلك من المعالم التاريخية.

يقول والدي، رحمه الله، شاعر عدن د. محمد عبده غانم (١٩١٢ – ١٩٩٤) عن عدن:

كم جبتُ آفاقَ البلادِ وطوّفتُ   رَحْلِي بحاضِرِ أهلها والبادي
ونهَلْتُ من نبعِ الفُتُونِ فلم أدعْ   لحنَ الحنينِ إلى صخورِ بلادي
سفحٌ قضيتُ بهِ الشبيبةَ ناعِماً   أشدو بوارِفِ غُصْنِها الميّادِ

وهذا الشاعر كان عاشقاً حقيقيًّا وكبيراً لعدن (مثل مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا)، فقصائده تزخر بالتغنّي بجبل شمسان وجبل صيرة وشواطئ عدن ومعالمها الأخرى. يقول، وهو عائد في رحلة بحرية عبر البحر الأحمر إلى عدن وقد تراءى له جبل شمسان في الأفق:

إذا لاحَ شمسانُ فوقَ الجبالِ   فيا وَيْحَ قلبيَ ما يصَنَعُ
فدتُه الشواهقُ من شاهِقٍ   تراهُ العيونُ ولا تشْبَعُ

نفسُ هذا الشعور انتابني وأنا في رحلة العودة من بريطانيا عام ١٩٦٦ بعد أن تخرّجت في الهندسة في تلك البلاد. وعشق الجبال ليس بالشيء الجديد، فالرسول ﷺ قال عن جبل أُحُد: «**إنّه جبل يحبّنا ونحبّه**». ونحن نعرف كم ناجى قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) جبل التوباد.

وعدن كانت مدينة حضارية تعدّ من أفضل مدن الجزيرة العربية قبل أن تعبث بها أيدي الشموليين وتدمر فيها أسس الحضارة، كحقوق الإنسان وكقوانين ملكية الأراضي التي وجد علماء الاقتصاد والاجتماع أنها أساسية لتحقيق الاستثمار والتنمية. ولكن كان الهمّ الرئيسي لكثير ممن يمكن تسميتهم بـ«المغول الجدد» السطو على ممتلكات ومساكن أهل عدن تحت ذريعة الاشتراكية و«التقدّمية»، وميناء عدن الذي كان الثاني أو الثالث على مستوى العالم من حيث عدد السفن التي تزوره، أصبح وما زال في آخر قائمة الموانئ في العالم من حيث الأهمية. فمع الأسف عندما تمّت الوحدة بين شطري اليمن عام ١٩٩٠ لم تحل حكومات الوحدة المتعاقبة الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها الحكم الشمولي بل أضافت إلى ذلك تفشّي الرشوة والفساد والاستيلاء على مزيد من الأراضي العامة والخاصة.

وقد كان عرب الجزيرة ينظرون في الخمسينيات من القرن الماضي إلى عدن كنموذج في مجال التعليم والثقافة والحرية الصحفية والتجارة والانفتاح. وكانت عدن تمرّ بعصرها الذهبي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى أن رزئت بـ«المغول الجدد»، وربما كانت مؤهّلة لتكون ليس أقل من ميناء ناجح مثل سنغفورة. لذلك وجدتني أقول في رثائي لوالدي، رحمه الله، عام ١٩٩٤:

وعاثَ فيها الشموليّونَ في عبثٍ ... بنهبِ دورٍ وتقتيلٍ وإضلالِ
حتى انتهى كيدُهُمْ فيها بنحرِهِمُ ... يُرمى بها كل مغتالٍ بمُغتالِ
كانت مدينة أفلاطونَ فانقلَبَتْ ... كأنها مقصبٌ في قلبِ أدغالِ
وما انجلى كُفْرُهُمْ عنها وشَرُّهُمُ ... إلّا وقد أصبحتْ أشباهَ أطلالِ

هذا عن عدن.

أما عن مؤلف الكتاب النابغة البروفيسور الطبيب د. محمد علي بن حامد البار العلوي الحسيني، فهو مفخرة لعدن التي وُلِد فيها في ٢٩ ديسمبر ١٩٣٩..

ومفخرة أيضاً للملكة العربية السعودية التي يحمل جنسيّتها منذ هجرته من عدن (بسبب ما اعتراها من أحداثٍ ذكرنا بعضها أعلاه) منذ أكثر من أربعة عقود أنجز فيها الكثير، ويعمل فيها حاليًّا مديراً لمركز أخلاقيات الطب في المركز الطبي الدولي بجدة. وهو في الوقت نفسه، استشاري أمراض باطنية . وهو أيضاً مستشار قسم الطب الإسلامي بمركز الملك فهد للبحوث الطبية، ومستشار لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وعضو مؤسس لهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة، وعضو وخبير أو مستشار في عدد غير قليل من المجامع واللجان العليا الهامة الفقهية المتعلقة بالطب والعلوم.

ولهذا العلامة أكثر من ثمانين كتاباً بعضها أُعيد طبعه مرات عديدة، مثل كتابه (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) الذي أُعيد طبعه ١٣ مرة. وكتبه فيها الكثير من التجديد، وكثير منها يتناول القضايا الطبية وما يتعلق بذلك من فقه. وكتبه متنوعة، منها: كتاب (الأخلاق) في مجلّدين. ومنها: (موت القلب أو موت الدماغ). ومنها: (تيه العرب وتيه بني إسرائيل). ومنها: (المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ) في مجلّدين. ومنها: (العلمانية أصولها وجذورها). ومنها: (هل كان جوته شاعر الألمان مسلماً؟). ومنها: (جزيرة سقطرى الجزيرة السحرية). ومنها: (إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن). وهذه النماذج تبين الثراء والتنوّع الكبير في ثقافة هذا العلامة واهتماماته والتي تدخل اليمن ضمنها.

أما الكتاب الجديد عن مسقط رأسه عدن في ثلاثة أجزاء: يتناول في الجزء الأول – الذي بين أيدينا – معالم عدن الدينية والتاريخية. ويتناول في الجزء الثاني تاريخ عدن قبل الإسلام في الحضارة اليمنية القديمة وبالذات دولة أوسان لارتباطها الوثيق بعدن، ومن ثم إلى ارتباط عدن بمصر واليونان والرومان ودور سقطرى في ذلك كله، ثم دخول الإسلام إلى اليمن وعدن والدول المتتالية إلى بداية عهد العبادلة في لحج وعدن. أما الجزء الثالث فيتناول عهد العبادلة ودخول

الإنجليز إلى عدن وقصة السفينة دريا دولت واحتلال عدن وما فعله الاستعمار في عدن والمحميات والرجوع في ذلك إلى المصادر البريطانية وغيرها.. وكيف سلّمت بريطانيا الجنوب للجبهة القومية ودوافعها لذلك. وتحدث عن النشاط التعليمي والنشاط الثقافي والصحفي والسياسي، ونحن في شوق إلى الاطلاع عليه. والدكتور البار لا يكتفي في أجزاء كتابه هذا بما جاء في المراجع والكتب ولكن يعتمد أيضاً، إلى حدٍّ كبير، على معرفته الشخصية بالأماكن والشخصيات والأحداث ويقدم لنا ملاحظاته وآرائه الشخصية مما يضيف إلى قيمة الكتاب كثيراً.

وعلاقتي بالدكتور الصديق محمد علي البار تعود إلى عام ١٩٤٨ إلى أول يوم التحقت فيه بمدرسة وكانت (مدرسة السيلة الابتدائية) بمدينة (كريتر)، وكنت قد وُضعت في السنة الثانية. ولذلك قصة طريفة: فقد نسي مدير المدرسة أن يسجلني في العام السابق لألتحق بالسنة الأولى - كما كان والدي المفتش وضابط المعارف قد طلب منه شفويًّا - فرأى والدي أن يعلمني شخصيًّا في المنزل مقرر السنة الأولى. ثم تقدمت للإمتحان بعد عام، فوجدوني أصلح للسنة الثانية، فوضعت في درج مشترك - كما هي عادة الأدراج في المدارس الابتدائية - مع الطالب محمد علي البار، الذي ظلّ صديقاً حميماً منذ ذلك الوقت. في نهاية العام كان ترتيب صديقي محمد الأول وأنا الثاني. وعندما أذكّر الدكتور محمد بذلك يقول بتواضعه المعهود بأنني كنت أصغر منه بنحو عام. عند ظهور النتيجة، قررت المدرسة أن نقفز سنة، فقفز صديقي محمد، لكنّ والدي لم يوافق أن أقفز أنا. المهم أن محمد علي البار، على الرغم من أنه قفز سنة إلا أنه جاء الأول مرة أخرى مما يدلّ على حدّة ذكائه. وظهر ذلك أيضاً في المؤهلات العليا التي حصل عليها في دراساته الجامعية والعليا. وعندما بلغ السبعين حييته بالأبيات التالية، تحت عنوان (شموع السبعين)، وفيها إشارة إلى مدرسة السيلة وكتبه التي جاوزت الثمانين، وربما تكون قد بلغت التسعين في وقتنا هذا:

جاوزتَ سِنَّك بالأسفارِ والكُتُبِ … فصرتَ فخرَ بني الإسلامِ والعربِ

وللسعيدةِ حقًّا أنتَ مفخرَة … وللسعوديّ حقًّا خيرَ مُكْتسبِ

يا صاحبي منذ أن كنّا تلامذةً … في «سيلة» الخير من أطفالِها النّجُبِ

وأنت تسعى إلى علمٍ ومعرفةٍ … في الطبِّ والدِّينِ والتاريخِ والأدبِ

وكم تطبِّبُ من مَرْضى بلا كلَلٍ … وكم تؤلِّفُ من سِفْرٍ بلا نصَبِ

بل أنت من فرحٍ تمضي إلى فرحٍ … وأنت من طربٍ تمضي إلى طربِ

فمن يعش داعياً لِلَّهِ مُحتسباً … هيهاتَ يشعُرُ بالإرهاقِ والتّعبِ

* *

يا صاحبي وهَوى الرحمنِ يجمعُنا … ورابطُ الحرفِ والأوطانِ والنسبِ

جاوزتْ عمرَكَ، فالسبعونَ ما بلغتْ … فوقَ الثمانينِ يا ابنَ البارِ من كثبِ

فأسألُ اللَّهَ عمراً لا حدودَ لهُ … وصحةً لك طولَ العمرِ يا ابنَ أبي

وأخيراً.. أتمنّى لهذا الصديق الرائع الصحة وطول العمر والمزيد من العطاء.

والله وليّ التوفيق

د. شهاب غانم

دبي، ١٦ مارس ٢٠١٢

التعريف بعدن وسبب تسميتها وما قيل في ذلك

- وصف عدن عند الرحّالة المسلمين
- وصف عدن عند الرحّالة الأوربيين

التعريف بعدن

عدن مدينة قديمة قِدَم التاريخ نفسه. فقد جاء في تاريخ ثغر عدن للطيب بامخرمة(١): «اعلم أن عدن بلدة قديمة يقال إن قابيل لما قتل أخاه هابيل خاف من أبيه آدم، ففرّ من أرض الهند وأقام هو وأهله بجبل صيرة. وإنه لما استوحش بمفارقة الوطن وغيره تبدّى له إبليس، ومعه شيء من آلات اللهو كالمزامير ونحوها، فكان يسلّيه باستعمالها، فهو أول من استعمل ذلك، على ما قيل».

وقد نقل كثير من الكتّاب هذه المقولة بما في ذلك عدد من المستشرقين والأوربيين عندما كتبوا عن عدن.

وقصة **هابيل (Abel)** وقابيل **(Caine)** وردت في القرآن الكريم، وفي سفر التكوين من العهد القديم، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ

(١) الطيِّب بن عبد الله بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، نشر المستشرق السويدي أوسكار لوفاجرين، ليدن، هولندة ١٩٢٦م، وطبعة مصورة - مكتبة مدبولي، ص ٧، ٨.

أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ * مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾ (المائدة: ٢٧ – ٣٢).

ولا شك أن المجرم قابيل قتل أخاه ظلماً وعدواناً، وكان أخوه قادراً على ردِّ العدوان وقَتْلِ أخيه. ولكنه قال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، وهكذا سوّلت لقابيل نفسه أن يقتل أخاه النبيل التقيّ النقيّ، فكان أول دم يقع على الأرض، وبذا تحمّل قابيل كل جريمة تقع في الأرض لأنه أول من سنَّ هذه السنّة السيئة، وأول من قام بجريمة القتل، فكان جزاؤه أن يكون له كفل من كل جريمة قتل تقع في الأرض (كما في الحديث النبوي).

وفي سفر التكوين من التوراة أن الله عاقبه بأن يحمل جثمان أخيه فحمله. ولم يكن يعرف كيف يدفنه. فأخبرنا القرآن الكريم والسنّة المطهّرة أن اللَّـهَ بعث غراباً يبحث في الأرض ويواري جثة غراب ميت، فأصاب قابيل الندم، وقال: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾، وزعم الإخباريون أنه ذهب من الهند حيث كان أهبط آدم عليه السلام حتى وصل إلى عدن، وأنه أقام في جبل صيرة. وهي قصة تحتاج إلى ما يسندها، وليس هناك نصّ قرآني أو نبويّ في ذلك.

وقد جاءت القصة في سفر التكوين الإصحاح ٤ (١– ١٥) باتفاق في أن قابيل وهابيل قدَّما قرباناً، وأن اللَّـهَ تقبّل من هابيل ولم يتقبّل من قابيل، لأنه قدّم زرعاً بائساً وبنيّة فاسدة، بينما قدّم هابيل خروفاً وذبحه لِلَّـهِ. وأن قابيل قتل أخاه حسداً، وأن اللَّـهَ عاقبه بأن يكون مطروداً من الأرض، وأن يتجول فيها من مكانٍ لآخر دون أن يقتله أحد، «فخرج قايين من لدن الرب، وسكن في

أرض نودٍ شرقي عدن»[1] (التكوين ٤/١٦). وأن قابيل ذهب هو وزوجته إلى أرض بعيدة، وبنى مدينة لنفسه وولد له ابن سماه حنوك Enoch، وحنوك جاءه ولد سماه عيراد Irad، وهذا وُلد له محويائيل Mehujael، وهذا وُلد له متوشائيل Methushael، وهذا وُلد له لاميك Lamech، الذي وُلد له جـوبال Jubal، وهو أبو جميع الطبالين والمزمرين والموسيقيين (التكوين ٤/١٧- ٢٢).

إذن التوراة تقول إن أول من استعمل آلات اللهو هو جـوبال وهو أحد أحفاد قابيل. ولا تذكر أن قابيل هو الذي بدأ باستعمال آلات اللهو والطرب.

اتصال البحر

ويقول الطيب بامخرمة بعد أن ذكر قصة قابيل ووصوله إلى عدن ومكثه في جبل صيرة: «وكان من القلزم (البحر الأحمر) إلى عدن، إلى وراء جبل سقطرى كله برٌّ واحد متصل لا بحر فيه ولا باحة. فلما وصل ذو القرنين في طوافاته الدنيا إلى هذا الموضع حفر ففتح خليجاً من البحر، فجرى البحر فيه إلى أن وقف على جبل باب المندب، فبقيت عدن في البحر وهو مستدير حولها. وما كان يظهر من عدن سوى رؤوس الجبال شبه الجزر. وذكر جياش بن نجاح (وهو أحد ملوك الدولة النجاحية في القرن الخامس الهجري) في كتابه «المفيد في أخبار زبيد»، كما نقله عنه المستبصر (والمؤلف هو ابن المجاور) في تاريخه «أن البحر كان مخاضة لقلة مائه، فلذلك تغلّبت الحبشة على جزيرة العرب، حتى ملكوا صنعاء إلى حد إقليم العواهل... ثم إن ذا القرنين، ويقال غيره، نقب باب المندب وفتحه فجرى البحر فيه إلى أن وقف آخر القلزم (البحر الأحمر). فلما تراخى الماء وانبسط وانفرش، ظهرت أرض عدن ونشف ما حول عدن من

---

(١) صيرة تقع شرقي عدن. ومن هنا جاء القول بأن قابيل سكن صيرة بناء على ما ورد في سفر التكوين من التوراة المحرّفة.

جهة الشام (أي الشمال) من المياه، فبقيت عدن نصفها مما يلي صيرة وجبل العرّ (شمسان) مكشوف، ومما يلي المباة (وهي تحت باب عدن وبداية المعلا) وجبل عمران ناشفة، فلما استولت ملوك العجم على عدن (المقصود الفرس الذين جاؤوا من سيراف، وهم من المسلمين السنّة، كما ذكره ابن المجاور) ورأوا ذلك الكشف، خافوا على البلد من يد غالبة تحصر البلد ففتحوا فتحة مما يلي جبل عمران، فاندفق البحر، فنزل إلى أن غرق جميع ما حول عدن من أرض الكشف، وعُرِف ذلك البحر المستجد ببحيرة الأعاجم إلى الآن، وبقيت عدن جزيرة، البحر محيط بها من جميع الجوانب، وكل من أراد السفر إلى جهة من الجهات حمل متاعه في الزوارق، أي السنابيق الصغار، إلى أن يتعدّى البحر فتجيء الجمال والدواب فترفعه من عند المكسر، فلما رأوا ما في ذلك من التعب على الخلق بنوا المكسر (أي جسراً يوصل الجزيرة إلى البر) المعروف. وإنما يسكنها قوم صيادون يصيدون في البحر وكانت مساكنهم في طرفها مما يلي الساحل وقريب منه. وكان غالب البلد خالياً عن السكن والبناء، خصوصاً معاليها. وكانت بمعاليها أشجار كبار ذات شوك والعوسج وغير ذلك. ولذلك سُمّيت الحافة العليا بجَرام الشوك. والجَرام، بفتح الجيم، القطعة من الأرض، بلغة الهند»[١].

وما قاله الطيب بامخرمة يحتاج إلى تدقيق، وفيه أخطاء كثيرة، ولكن فيه بعض الحقائق أو جزء من الحقائق كالتالي:

(١) أن جزيرة العرب كانت متصلة بإفريقيا، وأن البحر الأحمر تكوّن في العصور القديمة جداً نتيجة صدع، فانفصلت جزيرة العرب عن إفريقيا، ودخلها البحر من جهة ما يُعرف اليوم ببحر العرب وخليج عدن المتصلان بالمحيط الهندي.

---

(١) الطيِّب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٨، ٩.

(٢) أن عدن تكوّنت نتيجة بركان هائل حدث قبل ستة ملايين سنة واستمر مشتعلاً لما يقرب عن مليون سنة. ثم خمد ذلك البركان الهائل، وعلى إثره تكوّنت شبه جزيرة عدن المتصلة ببرزخ صغير وقصير يُعرف اليوم باسم خورمكسر. وتقع غرب جزيرة عدن جزيرة البريقة وهي شبيهة تماماً بشبه جزيرة عدن. وتتصل بالبرّ بلسان صغير. ويحيط بعدن جبل العرّ (شمسان) وأما البريقة (عدن الصغرى) فيطلّ عليها جبل إحسان.

(٣) تقع عدن (كريتر)، أي فوهة البركان، في وسط جبل العرّ (شمسان) البركاني الذي احتلت عدن فوهته التي شكّلت هضبة دائرية ترتفع إلى ٨٠٠ قدم ومكوّنة من ركام بركاني. ولكن عوامل التعرية والسيول أكلت معظم الهضبة لتحلَّ محلها مدينة عدن.

ولا تزال بقايا الطفح البركاني (البوميس) موجودة في مواقع مختلفة على هضبة عدن وهي مكوّنة من سليكات الألومنيوم والبوتاسيوم والصوديوم. وتشمل خلطة إسمنتية عالية الجودة. وقد استخدمها اليمنيون القدماء في تجصيص صهاريج عدن الموجودة في منطقة الطويلة قبل ٢٥٠٠ عام، وفي كثير من مبانيهم التاريخية ومساجدهم.

(٤) تبعد عدن عن باب المندب ١٧٠ كيلومتر (١٢٠٠ أستاديا حسب مقاسات اليونان القدماء، والأستاديون يساوي ٢٠٢ ياردة). وقد عرف اليونان والرومان عدن وأهميتها التجارية، وسنذكر ذلك في فصل خاص.

(٥) ذكر اليونان أن البحر الأحمر يضيق في نهايته وذلك بعد ٣٠٠ أستاديا من موزع الميناء اليمني القديم (وهو قريب من المخا). وهناك بوغاز ضيق طوله ستون أستاديا وتشطره جزيرة ديودوروس (Diodorus) – وتدعى الآن جزيرة ميون كما يُطلق عليها جزيرة بريم – إلى شطرين. لذلك تندفع التيارات بداخله بعنف، ويشتدّ هبوب الرياح من الجبال المطلة عليه. وعلى ساحل هذا المضيق

مباشرة قرية تابعة لزعيم المعافر تُسمّى أوكليس = أوقليس (Ocelis)، وموقعها الآن قرية الشيخ سعيد، وهي مكان لرسوّ السفن ومورد محدود جدًّا للماء.

(٦) بعد أوقليس يتسع البحر إلى جهة المشرق، وبعد ١٢٠٠ (ألف ومائتي) أستاديا تأتي العربية السعيدة Eudommon Arabia والمقصود بها عدن، وهي كما يقول اليونان: قرية صغيرة تابعة لمملكة كرب إيل السبئية. ولها مرسى جيد، وأماكن للتزود بالماء، وهو أعذب وأفضل من ماء أوقليس. وتقع على مدخل الخليج ويتراجع البرّ عنها[١].

(٧) اسم عدن قديم جدًّا ومن معانيها محل الإقامة. وقد أطلق على عدة مدن في اليمن أشهرها عدن أَبْين (التي تقع على ساحل أَبْين) والتي ذكرها الرسول ﷺ ليميّزها من العدنات الأخرى، (وسيأتي ما ورد عن عدن من الأحاديث النبوية).

(٨) جبل عدن العرّ المعروف بـ (شمسان) يرتفع إلى ١٧٢٥ قدماً وتمتد منه أذرع كثيرة إلى البحر مكوناً خلجاناً عدّة تصلح لرسوّ السفن، وتكون محميّة من الرياح، ومن أي عدوان، وأهمها صيرة في كريتر، والتواهي والمعلا.(انظر الصورة).

(٩) بعد أن احتلّت بريطانيا عدن عام ١٨٣٩م جعلت الميناء في حجيف أولاً، ثم نقلته إلى التواهي Steamer Point، لأن صيرة لا تتحمل البواخر والسفن الكبيرة.

ميناء التواهي ١٩٢٨م

(١) عبد الله محيرز: العقبة ص ٢٢، وحسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن ص ٤٥.

التعريف بعدن ووصفها عند القدماء

وصف الهمداني[(١)] في كتابه «صفة جزيرة العرب» عدن وسكانها فقال: «إنها جنوبية تهامية، وهي أقدم أسواق العرب، وهي ساحل يحيط به جبل (هو العُرّ= شمسان) لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزبر الحديد (باب عدن = العقبة) وصار لها طريقاً ودرباً. وموردها ماء يُقال له الحيق: أحساء في رمل في جانب فلاة أرم (وهي منطقة الحسوة وما جاورها إلى أبيار علي والعماد، ولا تزال عدن تأخذ ماءها منها) وبها بؤور (جمع بئر والأشهر في جمعها آبار) ملح (أي ماءها مالح) ومشروب (أي ماءها عذب) وسكنها المربون (أي المرابون)، والحماميون والملاحيون. والمربون يقولون إنهم من ولد هارون ﷺ (وهم يهود من يهود اليمن ويدّعون أنهم من نسل هارون. وقد تهوّد كثير من أهل اليمن منذ زمن بلقيس) ومن أهل عدن ابن مناذر الشاعر، وابن أبي عمر المحدّث (وهو أحد أعلام الحديث).

ووصف المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»[(٢)] عدن وأهلها، فقال عنها: «وعدن بلد جليل عامر» آهل «حصين... دهليز الصين، وفرضة اليمن، وخزانة العرب، ومعدن التجارات، كثير القصور، مبارك على من دخله، مثرٍ لمن سكنه. مساجد حسان ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة. وبارك النبيّ ﷺ

---

(١) الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع ص ٩٤.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (البشاري): «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي وضعه سنة ٣٧٥هـ، ص ٨٨.

في سوق منى وعدن. وهو في شبه صيرة الغنم (حظيرة الغنم)، قد أحاط به جبل بما يدور إلى البحر، ودار خلف الجبل لسان من البحر، فلا يدخل إليه إلا أن يخلص ذلك اللسان فيصل إلى الجبل. وقد شُقَّ فيه طريق في الصخر عجيب، وجعل عليه باب حديد، ومدّوا من نحو البحر حائطاً من الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب. والجامع ناء عن الأسواق. ولهم آبار مالحة وحياض عدّة».

وهذا يعني أن الأسوار حول عدن وأبوابها قد تمّ إنشاؤها في عهد آل زياد وقبل آل زريع. وأن آل زريع أعادوا بناءها. ثم قام الزنجيلي ببناء أسوار أقوى وأبواب ستة غير باب عدن. ثم قال: «ومن أجل معايش عدن الواسعة، والكسب الوفير تشدّ إليها الرحال».

وقال عنها **أحمد بن فضل الله العمري** (وفاته ٧٤٩هـ) في كتابه «مسالك الأبصار»: «وهي أعظم المراسي باليمن.. وبها قلعة حصينة، وهي خزانة ملوك اليمن إلا أنه ليس بها زرع ولا ضرع، وهي فرضة اليمن، ومحطّ رحال التجار، ولم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة إلى زماننا هذا، وإليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة.

ويمتار أهل كل إقليم منها ما يحتاج إليه إقليمهم من البضائع. **قال صلاح الدين بن الحكيم**: «ولا يخلو أسبوع من عدّة سفن وتجار، واردين عليها، وبضائع شتى ومتاجر منوّعة. والمقيم بها في مكاسب وافرة، وتجائر رابحة. ولحطّ المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة. فإذا أراد ناخوذة (ربان الباخرة) السفر إلى جهة من الجهات أقام فيها علماً برنك (أي بلون معين) خاص به، فيعلم التجار بسفره، ويتسامع الناس، ويبقى كذلك أياماً. ويقع الاهتمام بالرحيل، وتسارع التجار في نقل أمتعتهم وحولهم العبيد بالقماش السري، والأسلحة النافعة، وتنصب على شاطئ البحر الأسواق، ويخرج أهل عدن للتفرج هناك».

وقال **ياقوت الحموي** (ت ٦٢٦هـ) في كتابه «معجم البلدان»: «وتضاف عدن إلى أَبْين وهو مخلاف عدن.

وقال **ابن خلدون**: وكان من حمير، أَبْين بن زهير بن الغوث بن أيمن بن الهميسع بن حمير. وإليه تنسب عدن.

وقال **عمارة بن الحسين المذحجي اليمني** المقتول سنة ٥٦٩هـ: «أَبْين موضع رأس جبل عدن».

وقال **أبو الفداء الملك المؤيد صاحب حماه** (ت ٧٣٢هـ): عَدَن بفتح العين والدال المهملتين ونون في الآخر هي من تهائم اليمن.

وقال **الأزهري** في تهذيب اللغة أن سبب تسميتها بذلك (أي عدن) أن الحبشة عبرت في سفنهم إليها، وخرجوا منها فقالوا عدونه، يريدون: خرجنا. وقيل من قولهم عَدَنَ بالمكان إذا أقام به، وهي على ساحل البحر ذات حط وقلاع.

وقد وصفها **ابن بطوطة**[1] (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المتوفى سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) في كتابه «**تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**» المشهور **برحلة ابن بطوطة** بقوله: «ثم سافرت منها (أي صنعاء) إلى مدينة عَدَن، مَرسى بلاد اليمن، على ساحل البحر الأعظم (المحيط الهندي)، والجبال تحفُّ بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد، وهي مدينة كبيرة، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، والماء على بعدٍ منها، فربما منعته العرب، وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي

(١) ابن بطوطة: تحفة النظّار (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، وفهرسة مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص ٢٦٠، ٢٦١.

شديدة الحرّ. وهي مَرسى أهل الهند تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانَه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور، وغيرها. وتجّار الهند ساكنون بها، وتجّار مصر أيضاً.

وأهل عدن ما بين تجّار وحمّالين وصيادين للسمك. وللتجّار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسَعَة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة...

ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأري، فكان يحضرُ طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجّار، وله غلمان وخدّام أكثر من ذلك، ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق، يحسنون إلى الغريب، ويؤثرون الفقير، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجبّ.

ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي. وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم، فرأس وساد. وهو من خيار القضاة وفضلائهم. أقمتُ في ضيافته أياماً.

وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام، ووصلت إلى مدينة زيلع، وهي مدينة البرابرة (الصومال)، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب».

عدن في سفر حزقيال والفينيقيين

والواقع أن عدن مدينة قديمة، وهي أهمّ موانئ اليمن على مدار التاريخ. وقد ورد ذكرها في سفر حزقيال (وهو أحد أنبياء بني إسرائيل في العراق، بعد النفي إلى بابل، وهو من القرن السادس قبل الميلاد)، وقد خاطب فيه مدينة صور ووبّخها على غرورها وبُعدها عن الله، قال: «العرب وكل رؤساء قيدار (وهو من أحفاد إسماعيل عليه السلام) هم تجار يدك، تجار شبأ (سبأ) ورعمه هم تجارك. بكل

أنواع الطيب وبكل حجر كريم، والذهب أقاموا أسواقك. حُرَّان وكنّه (قانا، وهو ميناء يمني قديم شرق حضرموت، ومدينة قانا في جنوب لبنان أيضاً). **وعدن**، وتجار شبأ (سبأ)، وأشوار، وكَلْمة، تُجّارك» (سفر حزقيال ٢٧/ ٢١- ٢٤).

وهناك أدلة كثيرة تدل على أن الفينيقيين هم من اليمن الذين هاجروا بعد انهيار سد مأرب[1]، ولذا تجد مدينة صور في عُمان (وهم من الأزد) وفي لبنان، وكذلك مدينة قانا في شرق حضرموت وفي جنوب لبنان. وعندما انتقلت الملكة علثيا إلى قرطاج (في تونس)، وأقامت مملكتها هناك حتى لا تحترب مع أخيها بعد وفاة والدهما، سَمَّت المنطقة كلها حضرموت، وهي منطقة سوسة في تونس اليوم.

عدن تربط الشرق والغرب

وقد كانت عدن ميناء تجاريًّا، يربط الهند والصين بمصر وأوربا. وفي عهد سنوسرت الثالث حفر قدماء المصريين قناة تربط ما بين النيل والسويس، وذلك لنقل البضائع التي تأتي بها السفن المصرية من بلاد بنت (عدن وحضرموت) وشرق إفريقيا. وقد قام عمر بن الخطاب ﷺ بإعادة فتح هذه القناة بعد الفتح الإسلامي في عهده.

وكان النشاط التجاري شديداً بين عدن، فرضة اليمن، ومصر في عهد البطالسة (وهم خلفاء الإسكندر المقدوني الذي احتلّ مصر وبنى الإسكندرية).. وكانت التجارة بين عدن واليونان قوية، وظلت الموانئ اليمنية من ظفار إلى باب المندب تصدّر هذه المواد الثمينة، وأهمها البخور واللبان. ويذكر المؤرخ اليوناني

(١) د. محمد علي البار: إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن، العصر الحديث للنشر، بيروت، ١٤٢٧هـ، ص ٢٣ و٢١٣- ٢٢٨.

هيرودتس (القرن الخامس قبل الميلاد) أن بلاد العرب (السعيدة) أي اليمن، هي الوحيدة في العالم التي تنتج البخور واللبان والقرفة وصمغ اللادن والمرّ... والواقع أنها كانت تأتي من سقطرى وعمان وحضرموت والصومال. وأما القرفة فكانت تأتي من الهند.

وتحدث شعراء اليونان مثل هوميروس في الإلياذة عن سُقطرى، موطن البخور والعطور والصبر ودم الأخوين (العندم) واللبان، وكلها كانت تصدّر من عدن وغيرها من الموانئ اليمنية (مثل قانا).

عدن عند اليونان

واشتهرت عند اليونان باسم العربية السعيدة (Eudmmon Arabia). ثم اشتهرت عندهم باسم فرضة (ميناء) بلاد العرب (Arabia Emporium)، وكانت تجارة اللبان والبخور رائجة جدًّا، وتطلبها مصر واليونان والكلدانيون في العراق.

ويعتبر كتاب رحلة إلى البحر الأحمر (The Periplus of the Erythrea Sea) لمؤلف يوناني مجهول من القرن الأول بعد الميلاد من أشهر المراجع اليونانية – الرومانية التي تحدثت عن موانئ اليمن والنشاط التجاري البحري لليمنيين. وزار عدن وسُقطرى وتحدث عن مملكة سبأ وحضرموت، وموزع (وهي على الساحل الغربي على البحر الأحمر قريبة من المخا الحالية) ووصفها بأنها «مدينة تجارية يسودها القانون... مزدحمة بملّاك السفن العرب والبحّارة. وأهلها يتاجرون مع السواحل البعيدة (يقصد الهند والصين) ويرسلون سفنهم إلى هناك.

وقد وصف عدن وسمّاها Eudmmon Arabia (العربية السعيدة)، وهي تابعة لمملكة كرب إيل السبئية، ولها مرسى جيد، وأماكن للتزوّد بالماء، وهو أعذب وأفضل من ماء أوقليس (Ocelis) (ميناء غرب عدن قريب من باب

المندب. وماء عدن من الآبار وليس عذباً، وربما كانوا يأتون بالمياه العذبة من الأودية التي تفيض بالسيول وخاصة وادي تبن في مصبه بالقرب من عدن، أو من الماء المخزون في صهاريج عدن الضخمة).

وذكر صاحب الرحلة إلى البحر الأحمر أن عدن تتلقّى السفن التجارية من الهند ومصر، تماماً كما تتلقى الإسكندرية السلع من مصر وخارجها.

ويبدو أن عدن فقدت كثيراً من أهميتها عندما تمكَّن البحّارة المصريون أيام البطالسة من السفر إلى الهند دون التوقّف في عدن. وبالتالي فإن السفن التي كانت تأتي من الصين والهند وتفرغ حمولتها في عدن ثم يُعاد تصديرها إلى مصر وغيرها لم تعد تتوقف في عدن. وهو أمر قد حدث لعدن بعد حرب عام ١٩٦٧م عندما تمّ قفل قناة السويس مما أدى إلى انخفاض تجارة عدن. ثم مجيء الحكم الشمولي الشيوعي مما أفقد عدن أهميتها التجارية.

وقد ذكر صاحب رحلة البحر الأحمر (بريبلوس) أن أحد القياصرة هاجم عدن وأحرقها. ويقال إنه الأمبراطور كلوديوس. أما الأمبراطور أغسطس، الذي سبقه، فإنه أرسل قائده وحاكمه على مصر (جاليوس) ليستولي على عدن فباءت رحلته بالخسران.

وقد هاجم عدن كرب إيل ملك سبأ وذي ريدان حتى تصبح موزع بدلاً من عدن هي المركز التجاري... ويقول المؤرخ العدني حمزة لقمان في كتابه «معارك حاسمة في تاريخ اليمن»: إن القيصر الروماني كلوديس هو الذي هاجم عدن، وكان مهتمًّا بأن يجعل تجارة مصر مباشرة مع الهند دون التوقف في عدن. ولكن تلك المحاولة فشلت في نهاية الأمر، واضطر الرومان للتعامل مع عدن.

وكانت قبيلة المعافر (الحجرية اليوم) تحكم الساحل الجنوبي لليمن في دولة أوسان التي امتدّ سلطانها إلى الساحل الإفريقي، وبالذات الصومال وإريتريا

وحكموا زيلع (التي كانت تُعرف باسم أوفاليتس Avalites). وزيلع في الصومال الذي كانت تحكمه بريطانيا.

وقد وصف المؤرخ المشهور بطليموس (القرن الثالث بعد الميلاد) عدن، وسمّاها فرضة بلاد العرب Arabia Emporium، ويبدو أن أول من أطلق اسم عدن من اليونان هو أورانيوس Uranius في القرن الثالث للميلاد وسمّاها Adana وتكتب أحياناً Adane، وعندما فشلت المحاولات الرومانية في الوصول إلى الهند بتكلفة معقولة، عادوا إلى استعمال ميناء عدن. ومن المعلوم أن الملّاحين العرب (من اليمن) كانوا أقدر إلى الوصول إلى الهند والصين ومعرفتهم بها أوثق. وبذلك وفّروا على اليونان والرومان مشقّة الوصول إلى هذه البلدان، وأخذوا البضائع وتبادلوا التجارة مع عدن. ولهذا عادت عدن إلى الازدهار. وكان فيها تجّار من الصين والهند وشرق إفريقيا ومصر واليونان والرومان. واعتادت عدن على التعايش مع كافة الثقافات والأديان.

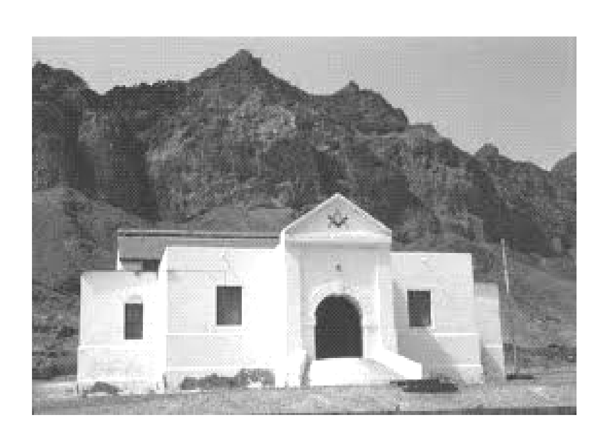
وكان في عدن، بالإضافة إلى سكّانها من أهل اليمن، الهندوس التجار الذين يقيم بعضهم في عدن، كما كان فيها من المصريين واليونان والرومان وفيها من الأحباش والصومال. وكان بعض أهل اليمن قد تهوّدوا منذ زمن سليمان ﷺ عندما أسلمت بلقيس على يديه، ثم اختفت اليهودية تقريباً، وعادت من جديد على يد بعض التبابعة. وقدمت بعثة مسيحية إلى عدن عام ٣٤٥ ميلادية برئاسة ثيوفيلس[١] وأنشأ كنيسة من أجل التجار (من اليونان والرومان) الذين يقيمون

(١) ثيوفيلس Theophilis أي محبّ الإله. وهو من أتباع المذهب الآريوسي نسبة إلى آريوس الليبي الذي توطن الإسكندرية والذي رفض تأليه المسيح عيسى ابن مريم واعتبره قمّة البشر ولكنه ليس بإله، فاضطهدته الكنيسة في عهد قسطنطين الأول، ثم تبع مذهبه قسطنطين الثاني. وفي عهده ذهب ثيوفيلس إلى الهند عبر عدن واليمن. ثم اختفى هذا المذهب بسبب الاضطهاد الروماني. وذهب بعض أفراده هروباً بدينهم إلى سُقطرى.

فترات طويلة في عدن، كما أقام كنيسة في ظفار الحِمْيَرية (وهي غير ظفار في صلالة في عمان).

كما أن النصرانية دخلت الحبشة وعن طريقها دخلت اليمن، وكان أهل نجران نصارى.. وحاربهم ذو نواس (من ملوك التبابعة) واضطهدهم، فدخلت الحبشة الحرب ضدّه ونصرتهم.

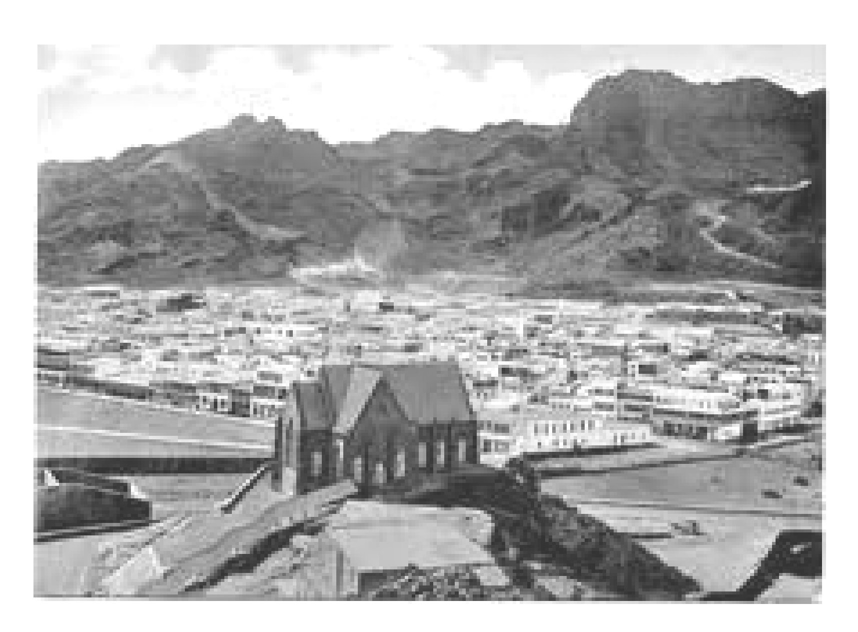
ولهذا كان في عدن الوثنيون والنصارى واليهود والهندوس وغيرهم... ولما جاء الإسلام دخلت اليمن بأكملها في الإسلام.



مركز الماسونية، وترى على بابه نجمة داود. وموقعه في المعلّا، وسمّاه الأهالي بنجلة (منزل) الشيطان. وتوسّع بعد ذلك، ثم صار مقرّ الحزب الاشتراكي اليمني (الشيوعي).



كنيسة في التواهي ولا تزال باقية إلى اليوم.



كنيسة سانت ماريا في كريتر. وقد تحوّلت إلى المجلس التشريعي في بداية الخمسينات من القرن العشرين.



مدفن الفرس المجوس (البارس) أتباع المذهب الزرادشتي في عدن كريتر.

عدن في كتابة الرحّالة الأوربيين والعصور الوسطى[1]

دخلت أوربا بعد ظهور الإسلام في عصور الظلام. وانكفأت على نفسها وحكمتها الكنيسة المتعصّبة مما أثار حروباً دينية عديدة في أوربا. ولم تحتكّ أوربا بالعالم العربي والإسلامي إلا في الأندلس وعبره بدأت الحضارة تصل إلى أوربا مرة أخرى. ثم جاءت الحروب الصليبية الحاقدة المدمّرة، وكان الاتجاه إلى بيت المقدس وأرض الشام (سوريا الكبرى). وكان الاتصال حربيًّا وعسكريًّا أول الأمر، ثم صار اتصالاً ثقافيًّا.

وكان أوّل الرحّالة المشهورين إلى الشرق هو ماركو بولو (١٢٥٤- ١٣٢٤؟) وهو تاجر ورحّالة إيطالي ذائع الصيت، لأنه أول أوربي وصل إلى الصين.

ولد ماركو بولو في البندقية (Venice) وهي مدينة اشتهرت بالتجارة، وكان أبوه تاجراً. وفي عام ١٢٧١م سافر هو ووالده وعمّه بحراً من البندقية إلى عكا في فلسطين، ومنها إلى العراق فإيران فبلاد التركستان (طريق الحرير) إلى الصين، ووصلها في عهد قبلاي خان حفيد جنكيز خان الذي حكم الصين وما حولها. وكان ماركو بولو يجيد أربع لغات، وفي رحلة العودة التي بدأت ١٢٩٢م وصل إلى الهند ومنها إلى هرمز وإلى عدن. وكتب ماركو بولو كتاباً ذاع صيته عن رحلته عام ١٢٩٨م وكان أول أوربي يصف الشرق وخاصة الصين، وتخلل كتابه مبالغات الرحالة.

---

(١) ستتحدث عن الرحّالة الأوربيين في العصور الحديثة في الجزء الثالث من الكتاب، بإذن الله.

قال ماركو بولو عن عدن[1]: «ثمانية أيام هي المسافة من وسط الهند (المقصود من ساحلها الغربي) إلى عدن التي ذكرت في الكتاب المقدّس. وهي بلاد تحيط بها الجبال العالية التي تكثر عليها القلاع والحصون، وتحتوي على كثير من اليهود الذين لا يخضعون لسلطة الوثنيين»!!.

وانظر إلى هذا التعصّب والجهل المقيت. فعند ماركو بولو والكنيسة في روما المسلمون هم وثنيون يعبدون الكعبة ويؤلّهون محمّداً ﷺ. ثم انظر إلى قوله عن اليهود أنهم لا يخضعون لسلطة الوثنيين. وقد كان يهود عدن يخضعون تماماً لسلطة الدولة المسلمة، وفي وقته كانت الدولة الحاكمة هي الدولة الرسولية. وقد تميّز المسلمون بإعطاء الحريات الدينية كاملة لأصحاب الأديان الأخرى، وخاصة لأهل الكتاب. كما أعطاهم الخلفاء المسلمون سلطات واسعة ليحكموا فيما بينهم في شؤونهم الخاصة. وكان الجاوون (رئيس اليهود)، ومثله رئيس النصارى في بغداد وغيرها من العواصم الإسلامية، له محكمة، وسجن، وعسكر من عساكر الدولة الإسلامية لينفّذ أحكامه على أهل طائفته. ولكن إذا أراد اليهودي أو النصراني أن يتحاكم إلى قاضي المسلمين، فلا يمنع من ذلك. وأما إن كانت القضية بين مسلم وغير مسلم، فإنها لا بدّ أن ترجع لقضاء الدولة العادل.

وبدلاً من أن يشيد ماركو بولو (وكثير من الأوربيين مثله) بهذا العدل الذي لم يُعرف إلى اليوم، فإنه يتحدّث عن أن هؤلاء اليهود لم يكونوا يخضعون لسلطة الوثنيين!!

وقد أثار رئيس أساقفة كنتر بري في بريطانيا ضجّة كبرى، عندما طالب بأن يسمح للمسلمين أن يتحاكموا في أمورهم الخاصة حسب شريعتهم. ورغم

---

(١) د. محمد باعليان: عدن في كتابات الرحّالة الأوربيين ما بين القرن الثالث عشر إلى الثامن عشر، ندوة: عدن بوابة اليمن الحضارية ص ١٧٧ - ١٨٧. وأرجعها إلى كتاب ماركو بولو الجزء ١١، الفصل ٣٥، فقرة ٧.

الحديث في أوربا وفرنسا عن الحرية الشخصية، فإن المرأة المسلمة تُمنع من لبس النقاب وتُعاقب على ذلك، وتمنع في أحيان كثيرة حتى من غطاء الرأس. وإذا تزوّج مسلم بأكثر من امرأة فإنه يعاقب بالسجن، أما إذا كانت لديه عشرات الخليلات والعشيقات فلا شيء عليه.

ولا يستطيع مسلم يزور أوربا أو أمريكا أن يدخل إلى تلك البلاد ومعه أكثر من زوجة لأنه يعاقب بالسجن على فعل ذلك، ولكن لو دخل مع مائة عشيقة يسمح له بذلك!!.

وقد كان الوضع في الحضارة الإسلامية يسمح لليهودي بأن يتزوج بنت أخته أو بنت أخيه لأنه مسموح في دينهم (أو على الأقل مسموح عند طائفة منهم). وهذا هو الفرق بين العدل الإسلامي والحضارة الإسلامية، والعدل الأوربي والحضارة الأوربية التي لا تعرف سوى الأكاذيب، والنزعات العنصرية والتعصب المقيت.

الوضع السياسي كما يصفه ماركو بولو

عندما وصل بولو إلى عدن عام ١٢٩٢م كان ملك اليمن وسلطانها المظفّر يوسف بن الملك المنصور عمر بن رسول. قال ماركو بولو: «يوجد في عدن سلطان يحكم اليمن بأكملها ويسكن تعز (العاصمة)، ويسمى شمس الدين أبو المحاسن المظفّر يوسف ابن الملك المنصور مؤسس الأسرة».

ويقول عن العلاقة بين سكان عدن والنصارى أنهم يكرهون المسيحيين. وقد دلَّل على ذلك بأنه «عندما قام سلطان المماليك بالهجوم على عكا (لتخليصها من الصليبيين) فإن سلطان عدن (واليمن) الأشرف أمدّه بثلاثين ألف فارس وأربعين ألفاً من الجِمال، ليس حُبًّا في سلطان المماليك، بل نكاية وتنكيلاً بالمسيحيين».

والأرقام لا شك فيها مبالغة. وقد قام حكّام اليمن في الدولة الرسولية بإمداد المماليك بالرجال والعتاد في حربهم ضد الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يحكمون مناطق من فلسطين ولبنان وسوريا والأردن، وكانوا يكرّرون هجومهم على مصر.

والواقع، أن اليمن ساهمت في صدّ الصليبيين منذ العهد الفاطمي الذي واجه حرباً صليبية شرسة حتى اضطر الخليفة الفاطمي أن يستعين بنور الدين زنكي الذي أرسل جيشاً يقوده شيركوه (عم صلاح الدين) وصلاح الدين الأيوبي رغم تحذير وزير الخليفة (شاور) له بأنّ دولته ستنتهي إذا تمكّنوا، وبالفعل انتهت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين بعد تمكّنه. ولكن الخليفة الفاطمي ردَّ على وزيره شاور: «أنا أرضى أن تذهب مملكتي ودولتي إلى مسلم بدلاً من أن تذهب إلى مسيحي صليبي».

وهو موقف رائع لم يتكرّر للأسف في التاريخ الإسلامي، بل كان الصراع على الحكم حتى بين أصحاب المذهب الواحد، بل بين الأخوة يؤدي بهم إلى الاستعانة بالصليبي الحاقد ضد أخيه أو ابن عمّه. ويكفي في ذلك أن نذكر أن حفيد صلاح الدين سلّم مفاتيح القدس للأمبراطور الألماني الصليبي (بعد أن حرّرها صلاح الدين) ليساعده في حرب ابن عمّه!!

وذكر ماركو بولو التوتر الذي يسود بين الحبشة Abash (الأحباش) وبين أهل عدن بسبب التعصب الديني. وادّعى أن أحد الأساقفة الأحباش كان عائداً من الحج في بيت المقدس عن طريق عدن فأراد السلطان منه أن يسلم، فرفض، فقام السلطان بختانه. فلما علم ملك الحبشة بذلك، جرّد حملة على عدن تضمّنت الخيول والفيلة واحتل المدينة ونكّل بأهلها.

وهنا يتضح كذب ماركو بولو الصريح، إذ لم يذكر أحدٌ من المؤرخين قط أن الأحباش هجموا على عدن واستولوا عليها لا في العهد الرسولي ولا فيما قبله أو بعده، سوى ما حدث أيام أبرهة قبل الإسلام عندما احتلّوا اليمن.

ويبدو أن هذا القسيس أسلم بالفعل، ولهذا قاموا بختانه، ولكن التعصب المقيت عند الأوربيين، وعند ماركو بولو، أدّى به إلى هذا الافتراء. فالمسلمون لم يُجبروا أحداً على تغيير دينه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾. وقضاة المسلمين وعلماؤهم يمنعون فرض الإسلام بالقوة على نصراني أو يهودي أو حتى مجوسي... وكان سلاطين آل رسول من العلماء (انظر الجزء الثاني من الكتاب، فصل الدولة الرسولية). وهذا كله من أكاذيب ماركو بولو المتعصّب.

وقد أشار ماركو بولو إلى أن عدن تضم عدداً من القرى والبلدات. وأشار إلى أن الشحر تتبع سلطان عدن (كان الحاكم الرسولي يحكم اليمن كلها من صنعاء إلى ظفار في عمان اليوم). ووصف جزيرة سُقطرى التابعة لحاكم عدن (ج٢، فصل ٣٢ فقرة ٢) وقال: «إن كل السفن التي تتعلق تجارتها بعدن تتوقف في هذه الجزيرة». وذكر أن التجار «يبيعون سلعهم هناك ويشترون أو يستبدلون بها الذهب». وهو أمر غير صحيح. والسفن كانت تذهب من عدن مباشرة إلى الهند (ساحل المليبار) دون توقّف في سُقطرى. وقد يتوقف بعضها في الشحر أو في هرمز للتجارة أو لانتظار موسم الرياح التي تندفع بها السفن الشراعية، ونادراً جدًّا ما كانت تذهب إلى سُقطرى.

وذكر ماركو بولو أن ميناء عدن كان يعجُّ بالسفن المحمَّلة بالبضائع من الهند والصين. وبعد تعشيرها وجمركتها تذهب إلى مصر. وأغلب السلع المصدّرة إلى مصر هي تجارة الكارم (البهارات والتوابل)... وتشحن إلى الهند الخيول العربية والفوّة (نبات أحمر يقبل عليه الهنود).

وذكر ماركو بولو أن سكان عدن في عهده كانوا ثمانين ألفاً. ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه، لأن عدن هي كريتر فقط وما حولها من القرى الصغيرة. وذكر المؤرِّخون المسلمون أن سكان عدن وصلوا في العهد الرسولي إلى ستين ألفاً.

والخلاصة أن كلام ماركو بولو عن عدن مليء بالأخطاء والأحقاد الصليبية. ولست أدري إن كان فعلاً قد زار عدن، لأن الموسوعة العربية العالمية (الطبعة الثانية) وضعت خريطة الذهاب والإياب (وهي تنقل عن دوائر المعارف الأوربية). وفي العودة ذهب من الهند إلى هرمز، ومنها مرة أخرى إلى إيران (تبريز) ثم إلى أذربيجان، ومنها إلى أوربا ولم يدخل عدن حسب قولهم. وبالتالي يكون ما كتبه عن عدن معلومات سمعها من التجّار الأوربيين. وأضاف إليها من خياله!!

الرحّالة الإيطالي لودو فيجو دي فارثيما (Ludo Vico Di Varthema):

في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، قام الرحّالة الإيطالي لودو فيجو دي فارثيما برحلة إلى بلاد الشرق انطلاقاً من البندقية (١٥٠٢م) إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، ثم بلاد الشام. ومن دمشق ادّعى الإسلام وسار مع قافلة الحجّ إلى مكّة المكرّمة، وبعد الحجّ اتّجه إلى جدّة التي أبحر منها إلى عدن التي وصلها عام ١٥٠٤م، ومنها اتّجه إلى الهند.

وفي طريقه إلى عدن توقف في جيزان التي قال عنها إن ميناءها يعجّ بالسفن. ثم اتّجه جنوباً عبر البحر الأحمر بمحاذاة الشاطئ حتى وصل جزيرة كمران. وقال إنّ سكّانها في وقته كانوا نحو مائة عائلة، وفيها مياه عذبة، وتخضع لسلطان اليمن (العربية السعيدة)، وكان ذلك في زمن عامر بن عبد الوهاب الطاهري. وقد وصل عدن بعد رحلةٍ استغرقت يومين ونصف من كمران.

وقد خصص فارثيما الفصل الثالث من الجزء الثاني من كتابه للحديث عن مدينة عدن[1]، وتحت عنوان: «عدن والتقاليد (العادات) الوحيدة التي تحترم التجار» قال: «عدن هي المدينة الأقوى على وجه الأرض (بسبب تحصيناتها وموقعها في وسط جبل العُرّ). وقال إن لها سوراً من جانب واحد (هو الجانب

---

(١) د. محمد باعليان: عدن في كتابات الرحّالة الأوربيين، السابق، ص١٧٧ – ١٨٧.

البحري)، ومن الجانب الآخر تحيطها الجبال العالية المسطّحة من أعلى. وأشار إلى أنه قد صعد إلى أعلى قمّة جبل شمسان (العُرّ)، وذكر خمس قلاع على تلك الجبال.

وقد قدّر سكّان عدن آنذاك بخمسة إلى ستة آلاف عائلة. ووصف الطقس بأنه حارّ، وأن السوق كانت تُقام ليلاً بسبب الحرارة الشديدة في أثناء النهار. ولا بد أنه وصلها في فصل الصيف (يونيه - يوليه - أغسطس).

وقال إن ميناء عدن يقع أسفل جبل تعتليه قلعة (يقصد جبل وقلعة صيرة). وعند وصول السفن إلى الميناء، يقوم ضباط السلطان بالتحرّي عن الجهة التي قدمت منها السفينة، وطبيعة وكمية شحنتها من البضائع، والزمن الذي استغرقته رحلتها، وعدد بحّارتها، ومن هو ناخوذتها (قبطانها)، إلخ... وتمنع السفينة من المغادرة إلا بعد دفع الجمارك والعشور.

وكان الناس يتوجّسون خوفاً من الأوربيين لأن طلائع البرتغاليين قد ظهرت وبدأت تعيث في الأرض فساداً. وقال فارثيما: إنه في اليوم التالي لوصوله عدن تمّ الزجُّ به في السجن بعد أن تشاجر مع أحد مرافقيه الذي شتمه بالقول: «مسيحي... كلب ابن كلب»، واتُّهم بالتجسس لصالح البرتغاليين، فحُبس ٦٥ يوماً وكُبِّل بالأصفاد.

وذكر الصراع الدائر بين سلطان عدن (واليمن) [عامر بن عبدالوهاب] والإمام الزيدي، وأن السلطان جهّز جيشاً من ثمانين ألف مقاتل وفارس (يبدو العدد مبالغاً فيه)، وذكر الزيّ العسكري للحرس السلطاني الذي تحلّوا بالهندام. والفرق بينه وبين زيّ بقية الجنود الذين يلبسون إزاراً من الكتّان وقطعتين من جلد البقر إلى جانب النبال والسيوف القصيرة العريضة.. وفي فصل الشتاء يلبس الجنود صدرية من القماش المحشوّ بالقطن. واعتبر أن تنظيف الجنود أسنانهم بالمسواك شيئاً طريفاً.

جان دو لا روك ١٧٠٨- ١٧١٠[1]:

وصف جان دو لا روك وقائع أول رحلة بحرية عسكرية قام بها الفرنسيون لاستكشاف جنوب الجزيرة العربية وأماكن إنتاج البن. وتكوّنت الرحلة من سفينتين مسلّحتين بخمسين مدفعاً. وقد مرّت السفينتان بعدد من موانئ شرق إفريقيا ثم جزيرة سُقطرى ثم عدن.

الميناء والمدينة: وبمجرد أن وصلت السفينة إلى قرب عدن لاح لهم رأس عدن المكوّن من عدّة قمم جبلية. وتتربّع مدينة عدن على سفح جبال عالية تحيط بها من كل الأطراف تقريباً، وعلى قمّتها خمس أو ست قلاع مزوّدة بأسوار عديدة. ولهذا كانت عدن مدينة مهمة وشهيرة وحصناً منيعاً ومحطة رئيسة في العربية السعيدة (اليمن).

وقال: في اليوم الثالث كنا سعداء بالرسوّ في ميناء هو الأفضل في العربية السعيدة والأشهر. ويصف منطقة الميناء بقوله: أما من جهة البحر التي يسهل منها الوصول إلى المدينة، فهناك خليج ينفتح بمقدار ٨ أو ٩ فراسخ وينقسم إلى جزأين: أحدهما كبير ويبعد عن المدينة والآخر أصغر، وهو المعروف بالميناء، ويبلغ عرضه فرسخاً واحداً، بدءاً من القلعة المشرفة عليه (قلعة صيرة) والمزوّدة بخمسين مدفعاً وينتهي هذا القسم عند الحامية الأبعد حيث توجد بعض الحصون التي تكلمت عنها. وترسو السفن على عمق ١٨ و٢٠ و٢٢ ذراعاً. وكانت السفن القادمة لأول مرة ترسو على بُعد فرسخ أو أكثر من الميناء، وكان السبب في أغلب الأحيان هو الخوف من تيارات الهواء القوية المندفعة نحو جبل صيرة المطلّ على الميناء، مثلما حصل مع الفرنسيين، فضلاً عن حذرهم من النزول إلى أرض مجهولة بالنسبة لهم. وكان من عادات أهل المدينة في استقبال المراكب

---

(١) المصدر السابق ص ١٨١- ١٨٥ (محمد باعليان: عدن في كتابات الرحالة الأوربيين، ندوة: عدن بوابة اليمن الحضارية) وننقل عنه حرفياً.

الواصلة أن يقدموا المشروبات المرطبة إلى القادمين في سفنهم بواسطة زوارق صغيرة، وبعد أن يؤذن للقادمين بالنزول إلى أرض الميناء يستقبلون بمراسيم شرف خاصة متبعة في مثل تلك المناسبات، لا سيما إذا كانت السفن الواصلة تحمل طابعاً رسميًّا كسفينة كاتب رحلتنا، التي رفعت العلم الفرنسي وأحاطتها رعاية ملك فرنسا. ففي اليوم التالي لوصول الفرنسيين ميناء عدن، وبعد أن عرفوا أنه مرحَّب بهم، قاموا بإطلاق سبعة مدافع للتحية، فردّ حاكم المدينة بالترحيب بهم بإطلاق المدافع من القلعة الواقعة فوق الميناء (صيرة). ومن أولى مراسيم الاستقبال أن يقوم (أمير البحر) – وهو قبطان على ما يبدو مختص – باستقبال المراكب الواصلة إلى الميناء، ويكون من مهامه معرفة جهة السفن الواصلة وطبيعة مهمّتها وسبب زيارتها، ومن ثم يعبر الضيوف بين صفين من الجنود على الجانبين، وبعد ذلك يقوم أمير البحر بترتيب لقاءٍ مع حاكم المدينة، ويرتّب إقامة للوافدين الذين يعاملون كضيوف على حاكم المدينة، كما حدث مع لا روك ومرافقيه. ونظراً لأهمية عدن كميناء يستقبل الناس من مختلف الجنسيات، فإن حاكم المدينة كان لديه بعض المترجمين الذين يتقنون بعض اللغات، ففي حالة بعثة لا روك كان المترجم في قصر الحاكم برتغالي الجنسية يجيد العربية والفرنسية، ومن أهم مراسيم الاستقبال التقليدية في دار الحاكم هو تقديم القهوة السلطانية الشهيرة – حسب قول كاتب الرحلة لا روك – وبعد المجاملات وتبادل الهدايا عرض حاكم عدن على الفرنسيين المتاجرة مع بلاده. حيث يورد لا روك في تقريره ما يفيد حرص حاكم عدن على الترويج للتجارة، إذ حاول في أثناء لقائه بهم أن يعرض عليهم بعض التسهيلات التجارية والبضائع التي يمكن أن يزوِّدهم بها من بلاده، مثل البن اليمني، وفي ذلك إشارة إلى أن مهمة الوالي لم تكن سياسية فقط، بل إن واحدة من مهامه كحاكم لعدن كميناء تجاري هي الترويج للتجارة وتطوير المدينة.

أسواق المدينة: يبدو من سياق حديث لا روك عن سوق المدينة أنها كانت

مرتّبة على هيئة صفوف من الحوانيت الصغيرة الممتدة على جانبي عدد من الشوارع الصغيرة، وممتلئة بالبضائع، وقد كانت سوقاً مخططة على أحدث طرز ذلك العصر حيث قال لا روك عنها: «... وبعدها ذهبنا لرؤية السوق حيث تباع كل أنواع البضاعة، وهي معروضة في الحوانيت الصغيرة الموجودة على امتداد عدّة شوارع صغيرة، وهي منظّمة بشكل يشبه تقريباً سوق سان جرمان» (لا روك ٣٨، ٢٠٠٤م). وأشار إلى أن السوق تُدار بواسطة البانيان الذين وصفهم بأنهم سماسرة العربية السعيدة (عدن) وأن غالبية التجّار ينتمون لهذه الطائفة التي تعدّ من أشهر الطبقات الاجتماعية التي تشكّل النسيج الاجتماعي لمدينة عدن.

الفنّ المعماري: ذكر صاحب الرحلة أن للمدينة باباً يسمّى (الباب البحري) يقع جهة الميناء ويبدو أنه الباب الذي يدخل منه الوافدون إلى عدن عبر البحر، وأورد وصفاً للباب بأنه ضخم ومصنوع من الخشب المثبت بمسامير ضخمة من الحديد، وبعد اجتياز الباب البحري يصف لنا كاتب الرحلة ما يمكن أن نسمّيه صالة الاستقبال في الميناء وهي عبارة عن قاعتين متجاورتين سقف كل منهما على شكل قبّة ويربط بينهما ممر مكشوف يبلغ طوله نحو عشرة أمتار. ويبدو أن القاعة الأخيرة هي الصالة الرئيسة التي يستقبل فيها القادمون. وهناك باب آخر من ناحية البر يسمّى (باب جسر الماء)، ويبدو أنه سُمِّي كذلك لأن مياه الشرب التي ترد لعدن من خارجها تمرّ عبر هذا الباب. وقد أشار صاحب الرحلة إلى ذلك الباب بقوله: «للوصول إلى عدن عن طريق البر لا يوجد إلا ممر واحد مستعمل أُنشئ على أرض ضيقة نسبياً يتجه نحو البحر ليصبح كأنه شبه جزيرة .. ويشرف على رأس الطريق حصن مراقبة يتمركز فيه حراس في عدة مواقع» (لا روك ٤٢، ٢٠٠٤م). وهو وصف ينطبق على الباب الذي كان قائماً في المكان المعروف اليوم بطريق (محطة العاقل) الذي يربط كريتر بخورمكسر من جهة الشرق، وكانت مياه البحر تمتد لتلامس أمواجها أسفل الجبل تاركة شريطاً ضيقاً استُخدم كطريق

يؤدي إلى داخل المدينة. ويقع فوق هذا الممر وعلى حافة الجبل حصن أو برج حراسة مستدير لا تزال أغلب أجزائه ماثلة إلى اليوم، وكانت توجد إلى جانب أبراج الحراسة تلك العديد من القلاع التي تحيط بالمدينة، وقد زوّدت تلك القلاع بالمدافع المصنوعة من الحديد أو ما يُعرف بالمدفع العربي أو العثماني.

وقد أشار إلى الصهاريج بقوله: «وهناك قناة رائعة تقود الماء من هنا (أي من سفوح الجبال) إلى قناة أو خزّان مياه بُني على بعد ربع فرسخ من المدينة وهو يؤمن مياهاً عذبة لكل سكانها» (لا روك ٤٢، ٢٠٠٤م).

بيوت الخاصة: وهو القصر الذي يقيم فيه حاكم المدينة أو نائب السلطان (دار السعادة، المعروف والذي كان مقرًّا لحاكم عدن). يقول تقرير الرحلة إنه يؤدي إليه درج صاعد، وورد في وصف قاعة الاستقبال في القصر ما يفيد بأنها قاعة تقليدية في صدرها تقع دكة مرتفعة مخصصة لجلوس الحاكم، وعلى جانبيه عدد من الوسادات ليتكئ عليها، أما المكان المخصص لجلوس الضيوف فيقع أمام الحاكم جهتي اليمين واليسار، وكان من العادة أن يخلع الداخل إلى الصالة حذاءه عند الباب. ومما سجله التقرير: «.. صعدنا درجاً جميلاً يؤدي إلى الشقة الرئيسة فوجدنا الحاكم جالساً في صدر الصالة على منصّة مغطّاة بسجّادة رائعة ومتكئاً على وسادات من القماش المطرز بالذهب، وكانت حاشيته تجلس على يمينه ويساره على سجادات أخرى. وقد غطّت باقي الصالة حصائر ناعمة للغاية» (لا روك ٣٦، ٢٠٠٤م). وكانت نوافذ بعض البيوت تغطى بالمشربيات الخشبية التي تمرر الهواء إلى داخل البيت وتستخدمها النساء للنظر للخارج، فهي تمكن من بالداخل من رؤية الخارج دون أن يرى، ومثل هذه المشربيات ما زالت مثبتة إلى اليوم على نوافذ بعض منازل مدينة عدن.

بيوت العامّة: في مقابل ذلك كانت بعض بيوت العامة تتكوّن من طابقين، ومبنية بالترج على السفح، إلى جانب وجود بعض الخِيَم. كما كانت بيوت الناس

قليلة التأثيث، حيث وصف صاحب الرحلة بعض البيوت بالقول: «وبالرغم من اتساع البيت وأناقته الخارجية، إلا أن أثاثه لا يتعدى الحصائر التي تستخدم كأسرّة ومقاعد وموائد. وهذا ما فاجأنا، ولربما كانت تلك هي عادات البلد» (لا روك ٣٧، ٢٠٠٤م).

الحمّامات التركية: (هذه الحمّامات قديمة منذ أيام الزريعيين أي من قبل الأتراك بأربعة قرون). إن الشيء الذي قد لا يتوقعه بعضنا أن عدن كانت تحتوي على حمامات عامة نظراً لارتباط ذلك النوع من المنشآت بالمناطق الباردة أو المعتدلة، يجب الاعتراف بأنه لا يمكن رؤية أجمل من حمّامات هذه المدينة، فهي مكسوّة كليًّا بالرخام. ويبدو من وصف لا روك لتلك الحمّامات أنها تشبه ما نعرفه اليوم من حمامات في مدينة صنعاء، التي يطلق عليها الحمّامات التركية، نسبة إلى الأتراك الذين جلبوا معهم هذا النوع من العمائر إلى اليمن، إلا أن حمّامات مدينة عدن، يبدو أنها قد اتّسمت بالفخامة حيث كُسيت جدرانها بالرخام، وتشكّلت من مجموعة من الغرف التي غُطِّيَت بقباب صغيرة متجاورة تدور حول القبّة المركزية أو القاعة الرئيسة في الحمّام، وهو نظام تغطية تركي نراه سائداً حتى اليوم في الجوامع والحمّامات التي تعود لفترة الوجود العثماني. وقد أورد لا روك وصفاً جميلاً لحمّامات عدن فقال: «يجب الاعتراف بأنه لا يمكن رؤية أجمل من حمّامات هذه المدينة. فهي مكسوّة كليًّا بالرخام واليشب. وسقوفها قبب رائعة ذات منافذ للضوء ومزيّنة من الداخل بأروقة ترتكز على أعمدة جميلة. فالبناء بأكمله مقسم إلى غرف وحجرات وقاعات أخرى مقببة. تقود كلها إلى صالة القبّة الرئيسة... فهي تشبه إلى حدٍّ ما، ما نراه في المدن التركية الكبرى التي تشير إليها بالكفاية روايات الرحّالة إلى المشرق» (لا روك ٣٩- ٤٠، ٢٠٠٤م).

مأكولات البلد: حوى تقرير أو كتاب الرحلة بين جنباته العديد من الإشارات الدالّة على أسماء وأنواع بعض الأشربة والأطعمة المعروفة في مدينة

عدن خلال تلك الفترة، ومنها المرطبات التي لم يحدد نوعها. وأغلب الظن أنها نوع من عصائر الفواكه، حيث ذكر: «وكانت مراكب البلد تأتينا أفواجاً لتعرض علينا شتى أنواع المرطبات» (لا روك ٣٥، ٢٠٠٤م). وفي القصر الحكومي قدمت للضيوف القهوة السلطانية، والحقيقة أنها قهوة خاصة يتم تحضيرها في قصر الحاكم لضيوف الدولة، وتكمن خصوصيتها أنها تحضر من قشر البن الطازج والليّن قبل أن يجف ويقسو، لذا من المرجّح أن فصوص البنّ تُجلب بشكل منتظم إلى قصور السلطان والأعيان. ويورد صاحب الرحلة وصفاً لعملية تحضير القهوة السلطانية فيقول: «أما عند الأعيان فهناك طريقة أخرى يتميزون بها في تحضير القهوة. فهم لا يستخدمون فص القهوة قط بل يكتفون باللحاء أو القشور التي تغلف الفص ويضيفون الغشاوة الرقيقة التي تغطي الفص مباشرة...». ويضيف لا روك: «يؤخذ لحاء الثمرة في تمام نضوجها ويكسر ويوضع في مقلاة أو قصعة من الفخار، ثم يوضع على نار الفحم بينما يتم تحريكه بانتظام حتى لا تتعرض للحرق مثل القهوة، بل لكي تكتسب بعض اللون. وفي الوقت نفسه يغلى الماء في مغلاة وعندما يصبح اللحاء جاهزاً يسكب في الماء بما فيه الغشاوة ويُترك المزيج يغلي مثلما تحضّر القهوة العادية... المشروب طيب لطيف الطعم لا يحتاج، حسب قولهم، إلى إضافة السكر، إذ لا يحتوي على مرارة تحتاج إلى تعديل بالسكر، لا بل إن الطعم لا يخلو من الحلاوة المعتدلة واللذيذة» (لا روك ١٦٢، ٢٠٠٤م).

وهناك الفواكه التي لم يحدد كاتب الرحلة أنواعها، وذكر أنها قدمت إليهم في بيت حاكم القلعة، إلى جانب المربيات التي غالباً تصنع من الفواكه. فضلاً عن اللحوم والأسماك التي كانت تتوفر بكميات كبيرة في الأسواق.

وبعد قضاء عدة أيام في عدن غادر الفرنسيون عدن عائدين إلى بلادهم في ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٧٠٨م.

ومن المعلومات التي أمدّنا بها الرحّالة عن عدن وأحوالها هي أن عدن رغم

وقوعها في أقصى جنوب بلاد المسلمين، تأثرت بالجوّ السياسي السائد بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي، والذي شابه التوتر الناجم عن الحروب الصليبية التي أعلنتها أوربا ضد المسلمين منذ بزوغ القرن الحادي عشر، فتأثر أهلها بما تأثرت به الشعوب الإسلامية، حيث عكست معلومات الرحّالة إلى عدن نظرة سكان المدينة وحكامها إلى الغربيين وهي علاقة اتّسمت بالحذر والريبة، لا سيما خلال القرون التي أعقبت الغزو الصليبي حتى القرن السادس عشر. وعلى الصعيد الاقتصادي، رأينا أهمية عدن كميناء تجاري يربط الشرق بالغرب على مرّ القرون، حيث كان محطة للسفن التجارية القادمة من الهند وبلاد فارس وموانئ البحر المتوسط. وذكرت تقارير الرحّالة أسماء البضائع الصادرة والواردة إلى الميناء التي كانت تدرّ أموالاً طائلة على حكّام المدينة من خلال الضرائب المفروضة على تلك البضائع. ونستطيع التعرف على بعض عادات الميناء في التعامل واستقبال السفن القادمة إليه لغرض التجارة. كما أمدّنا الرحّالة بعدد من المعلومات عن الناحية العمرانية للمدينة مثل العمارة المدنية كالقصور والمنازل والأسواق والحمّامات العامة، فضلاً عن العمارة الحربية ممثلة بالأسوار والقلاع.

عدن في اللغة

جاء في المعجم الوسيط وغيره: عَدَنَ (بالمكان) عَدْناً وعدوناً، أقام به. ومنه جنّة عدن: جنة إقامة لمكان الخلد فيها. ويقال: عَدَن البلد: توطَّنه، والأرض سمّدها. وعَدَن الحجر قلَعَهُ، وعدن به الأرض أي ضربها به. وعدنت الإبل أي لزمت مكانها. وعدن المكان أي استخرج منه العدن (وهو الحديد).

العدانة: الجماعة والفرقة، والعِدَن: رجال مجتمعون.

العِدان: ساحل البحر وحافة النهر. والعدان من الشيء سبع سنين.

المَعْدن: مكان كل شيء فيه: أصله ومركزه (ويقال معدن العرب أي أصل العرب) وموضع استخراج الجوهر من ذهب ونحوه. وقيل اشتق اسم عدن من

المعدن وهو الحديد، وجاء في تاريخ ثغر عدن للطيب بامخرمة: «قيل إن عَدَن الذي تُعرف به مدينة عدن، وكذلك أبْين، هما ابنا عدنان ابن أَدَد. نقله السهيلي في شرح السيرة عن الطبر ي... وذكر أن عدن سميت برجل عَدَنَ بها: أي أقام.

ويوجد في اليمن عدنات كثيرة كما ذكره الأستاذ عبد الله محيرز في كتابه «العقبة». وما بين لبعوس (في يافع) والضالع وشمال ردفان أمكن حصر ما لا يقل عن عشر «عدنات» كما يقول السيد أبو بكر المشهور، في كتابه «جلاء الهمّ والحزن بذكر ترجمة صاحب عدن». وهناك عدن لاعة في حجة، وحصن عدن في وادي حضرموت، وعدن المناصب، وعدن بني شبيب في إد، وقد حدّدها رسول اللهﷺ بعدن أبْيَن تمييزاً لها عن بقية (العدنات). وهذه هي المشهورة في التاريخ، وميناء اليمن الأهم، وهي التي ستخرج منها نار من قعر عدن تحشر الناس وهي آخر الآيات العشر. كما يخرج من عدن اثنا عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله، كما جاء في الحديث النبويّ الشريف.

ويرجع اسم عدن عند بعض المؤرخين وأصحاب اللغة لعدنان، لّما بناها سمّاها على اسم ابنه عدن، وهو كلام لا دليل عليه، بل بعيد كل البُعد عن الصحة.

وقيل إن الحبشة عندما خرجت سفنهم إلى عدن فقالوا: عدونا (عدونة) أي خرجنا فسُمِّيت عدن. وقيل: ما اشتق اسم عدن إلا من عاد. كذلك يقال إنها كانت في القديم حبس شدّاد بن عاد. أما ابن المجاور فيقول إنها كانت حبس الفراعنة[1].

---

(١) د. محمد عبد الله هادي باوزير: عدن: تاريخ وحضارة. رؤية تاريخية في أسباب وزمان التسمية. ندوة: عدن بوابة اليمن الحضارية (١٨- ١٩ فبراير ٢٠١١م) جامعة عدن ص ٢٨٧- ٢٩٩.

ويقول الهمداني أن (مِقَط) هي أحد أسماء عدن القديمة. ومقط التراب هو المنقطع من الأرض في البحر، أي أنها جزيرة أو شبه جزيرة، واستدلّ على ذلك بقول شاعر اسمه السمط الفيروزي قدم على أحد البرامكة وأنشده:

أتيتكم من مِقَط التراب   ومنبت الـورس والكنـدر

والورس (نبات يكثر في اليمن، ويُستخدم للزينة، والكندر هو اللبان، وكلاهما يُصدَّر من عدن).

وقد ذُكِرَت عدن في الشعر الجاهلي. قال الأعشى:

قد طفتُ ما بين بانقيا إلى عدنٍ   وطال في العجمِ تَرحالي وتِسياري

وذكرها عمر بن أبي ربيعة عندما طلب منه أخوه أن يبتعد عن مكّة وبناتها، وأن يذهب إلى عدن ولحج، فذهب وهاجت به الذكريات، فقال:

هيهات من أمّـةِ الوهّـاب منزِلُنـا   إذا حللْنا بـسيفِ البحـرِ مـن عَـدَنِ
واحتلَّ أهلُكِ أجيـاداً فلـيسَ لنـا   إلا التــذكُّر أو حــظٌّ مــن الحــزنِ

واشتهرت البرود العدنية، وأفضل الأطياب، الغالية، وهي من عدن. وتعمل من العنبر والزباد. وهي أحسن البلاد في صناعة الطيب حتى ذهبت شهرتها في الآفاق.

والخلاصة أن الباحثين يتفّقون على قِدَم مدينة عدن. وأنها من أهم المراكز التجارية في العالم القديم، ولكن لا أحد من القدماء أو المحدثين يتفق على سبب التسمية، وإن كان أقرب الأقوال هو ما جاء به أستاذنا عبد الله محيرز رحمه الله في كتابه «العقبة»: بأنها مكان الإقامة والعدون. وقد وجد عدداً كبيراً من العدنات، عدا ما طرأ عليه من التصغير (عُدَين)، أو تصغير مع التأنيث (عُدينة) وهي من أرباض تعز. وذكر ما لا يقل عن عشر من العدنات في الضالع ويافع (عدن

حمادة، وعدن أهور، وعدن حِمْيَر، وعدن أرود، وعدن جشعان وكلها في الضالع) وفي يافع عدن الشبهي، عدن الدقيق، عدن الحجال وعدن الحوشبي. وفي ردفان عدن الراحة.

ويقول المحيرز: «ويفيد من رأى هذه المواقع ودلّ عليها، أنها تقع في بطون الجبال بعيدة عن جادة الطريق نائية عن التجمّعات العمرانية، وهي منتجعات اتخذها الناس طلباً للحماية والأمان. واتسع بعضها حتى شمل أغلب الجبل الذي تربض تحته كعدن أبْين، وعدينة تعز، وعدين التعكر في محافظة إب. واختفى بعضها مثل عدن لاعة في حجة، وحصن عدن في وادي حضرموت، وعدن المناصب، وعدن بني شبيب في نواحي إب. وبقيت عشرات منها ما بين قرى صغيرة، مجهولة مواقعها لأغلب الناس».

وخلاصة رأيه أن عدن مصطلح «لمثوى آمن نظراً لموقعها الحصين متصلة بسلسلة عالية من الجبال صعبة المرتقى» (المحيرز، العقبة ٣٢- ٣٣).

ويؤيد هذا القول الدكتور محمد عبد الله بن هادي باوزير في بحثه: عدن تاريخ وحضارة، وأن مدينة عدن قد خُصَّت بموقع آمن تحيط بها الجبال، وكأنها سور عليها»، وهو الأمر الذي جعلها تتمتع بموقع جغرافي متميّز، فهيّأها لتكون مدينة تجارية مهمة تؤدي دور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب منذ عهود قديمة».

وجنّات عدن هي جنّات الإقامة الدائمة السعيدة. ولا شك أن المعنى اللغوي هو الذي أعطى عدن اسمها ولقبها وتاريخها.

بركان عدن (التركيب الجيولوجي) لمدينة عدن (كريتر)

والأحاديث الواردة في عدن

التركيب الجيولوجي لعدن (بركان عدن) CRATER وحديث النبيّ محمّد ﷺ:

تقول الدراسات الجيولوجية ما يلي عن التكوين الجيولوجي لعدن:

إن التكوين الجيولوجي لمدينة عدن هو جزء لا يتجزأ من تكوين الدرع العربي (الجزيرة العربية واليمن) والتي تعد القاعدة الأركيولوجية[1] القديمة لقارة أسطورية تدعى قارة جندوانا لاند (Gondwana Land) القديمة. ويعتبر الدرع العربي جزءاً من هذه القاعدة الأركية.

وقد تعرضت هذه القاعدة الأركيولوجية (الدرع العربي) لعدد من الضغوط والحركات التكتونية[2]، وطغى البحر عليها في العديد من الممرّات عدة مرّات خلال العصرين الجوراسي والكريتاسي مما أدّى إلى تعرّض الدرع العربي للانكسار في نهاية العصر الكريتاسي (Cretaceans) وحتى عصر الميوسين (Miocene)، مما نتج عن ذلك الانكسار خليج عدن، فقضى على معظم أجزاء الدرع العربي الجنوبي، ولم يبقَ منه إلا السهل الساحلي المطلّ على البحر العربي،

---

(١) archae أو archeology = archeo ، بادئة معناها بدائي وقديم.

(٢) التكتوني Tectonic: متعلق بتشوّه وتغيّر أديم الأرض، والقوى المؤدية إليه والأشكال الناشئة عن ذلك.

والذي تظهر فيه الصخور النارية القديمة والمتحولة ناتئة في عدة مواضع[١].

ومع تعاقب عملية طغيان البحر وانحساره، وبتوالي التعرية تكوّن برزخ خورمكسر، وارتبط بجزيرة، وأثناء الفترة الزمنية ما بين عصري المايوسين والبلايوسين تكوّنت ستة مراكز بركانية ذات الفتحات الوسطى على ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية، من مدخل البحر الأحمر غرباً، وحتى عدن شرقاً. وكل هذه البراكين كانت نشطة وقوية وعنيفة قبل ملايين السنين. وهي كما يلي من الشرق إلى الغرب: عدن، عدن الصغرى (البريقة)، رأس عمران، وأهم بركة، وجبل خرز، وجبل في جزيرة ميون (جزيرة بريم Perim) في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية حين يتقابل البحر الأحمر مع خليج عدن.. وتظهر الصخور البركانية بارزة ومتفرقة على طول الشريط الساحلي الذي تغطّيه الرمال والترسّبات البحرية.

وتُعدُّ براكين عدن وعدن الصغرى (البريقة) من النوع التطابقي حيث تظهر فيها آثار الطفح البركاني، والالتحام البركاني في أكثر من مركز بركاني. وقد توقف تكوين المخروط (جبل شمسان في عدن وجبل إحسان في البريقة) بسبب تكوّن كالديرات (جمع كالديرا Kaldera = Caldera) واسعة، وثوران اللافا (وهي الحمم النارية التي تخرج من جوف البركان) التي غطّت الكالديرا.

وأصبحت عدن (كريتر) أي فوهة البركان، كما أطلقها الإنجليز على عدن التاريخية CRATER، حيث تتكوّن هضبتها من مخلفات الرماد البركاني. وعدن والبريقة جزيرتان توأمان (إحداهما في الشرق وهي عدن والأخرى غربها وهي البريقة أو عدن الصغرى).

---

(١) لقد كانت قارة إفريقيا وجزيرة العرب متصلتان فحدث صدع كبير ودخلت المياه من المحيط الهندي فأدى ذلك إلى تآكل أجزاء من الدرع العربي الجنوبي، وتكوّن البحر الأحمر وخليج عدن.

ونتج عن ذلك النشاط البركاني جبل العُرّ أو شمسان الذي يبلغ ارتفاعه نحو ٥٥٣ متراً عند أعلى قمّة فيه (فوق سطح البحر) في عدن، وجبل إحسان في البريقة.

شبه جزيرة عدن

هي بركان خامد يمتد في خليج عدن حوالي مائتي كيلومتر.

وتمتد عدن كرأس صخري في مياه الخليج، ويربطها بالبرّ برزخ رملي يُعرف ببرزخ (خورمكسر). وتحيط بفوّهة البركان سلسلة جبلية (جبل العرّ = شمسان) خلال الزمن الجيولوجي الثالث مع تكوّن أخدود البحر الأحمر.

وقد ساهمت في تشكيل تضاريس مدينة عدن وخليجها تلك السلسلة الجبلية المحيطة بها من جهة الشمال والغرب والجنوب الغربي تتفرع من جبل العرّ (شمسان)، عمودها الفقري.

وساعد موقع مدينة عدن (كريتر) الذي تميّز بعمقه وحماية الجبال للمدينة مما جعل عدن أهم ميناء تجاري ما بين إفريقيا وجزيرة العرب والهند والصين. ومن جهة البحر مصر وأوربا بعد ذلك.

وتمثّل مدينة عدن كريتر الجزء الأدنى من فوهة البركان على سهل منبسط لا تزيد مساحته على ثلاثة كيلومترات مربعة.

والجزء الأعلى من الفوهة تحتله كالديرا هضبة عدن المرتفعة نحو ٢٥٠ متراً فوق سطح البحر. ويعلو هذه الكالديرا جبل شمسان (٥٥٣ متراً) .



صورة لجبل شمسان (العرّ) بأذرعه العديدة وتكوينه الخلجان العديدة
وانتشار المباني ما بين وديانه ومسائله (جمع مسيلة)

وتندرج هذه الكتلة الصخرية باتجاه الغرب حيث تُعرف بسلسلة جبال شمسان في منطقة المعلا والتواهي، حيث تنتهي عند رأس طارشن. وتتفرّع سلسلة جبل شمسان نحو الشرق والجنوب، حيث تُعرف بجبل العيدروس جنوباً، وجبل المنظر شرقاً المطل على ساحل جزيرة صيرة من جهة، وعلى بحر حقات من جهة أخرى. وتنتهي هذه السلسلة في الجنوب الشرقي عند رأس معاشق. ويتفرّع من هذه السلسلة ذراع صخري باتجاه الشمال الشرقي للفوهة البركانية تتمثل بجبل التعكر (الخساف) وجبل المنصوري ويفصل بينهما باب عدن التاريخي.

وأهم خلجان عدن الخليج الأمامي (Front Bay) في صيرة وهو الميناء التاريخي لمدينة عدن. ويحميه جزيرة صيرة، وهي جبل بركاني في وسط البحر في

الجنوب الشرقي من عدن. وهي بذلك تجعل الميناء القديم محميًّا من كل جهة تقريباً. وقد تمّ بناء قلعة على قمّة جبل صيرة (أصبحت معلماً سياحيًّا)، واتفق أغلب الباحثين أنها بُنِيَت في عهد الزنجيلي الوالي الأيوبي على عدن وأنّ بناءَها يشبه القلاع الأيوبية في مصر والشام (سوريا الكبرى)[1].

ولا تزال بقايا الطفح البركاني موجودة في مواقع مختلفة على هضبة عدن وتوجد بها كهوف عديدة تسمّى كهوف البوميس. وهذا الطفح البركاني مكوّن من سليكات الألومنيوم والبوتاسيوم والصوديوم. ويكون خلطة إسمنتية عالية الجودة. واستخدمها اليمنيون القدماء في تجصيص صهاريج عدن الموجودة في الطويلة، كما استخدمت كملاط Mortar في المباني والمساجد التاريخية. والبوميس Pumice هو عبارة عن رواسب حجر الخفاف البركانية، وعندما تخلط بمادة الجير (النورة) تشكّل خلطة عجيبة تكتسب خاصة إسمنتية، والخفاف (خفيف الوزن) بسبب تسرّب الغازات البركانية في الحجر.

متى حدثت براكين عدن؟

يذكر ثلاثة من العلماء الجيولوجيين البريطانيين في بحث هام نشرته مجلة مختصة بالأبحاث الجيولوجية Petrology - oxford journals في نوفمبر ١٩٦٩م (Journal of Petrology 1969, 11, (33): 433 - 462) وهم الأساتذة الدكاترة: K. G. Cox وL. G. Gass وD. I. J. Mallick أن بركان عدن كريتر، وبركان البريقة ورأس عمران وأهم بركة وجبل خرز وجبل بريم (ميون)، هي الستة البراكين المشهورة بعد انفصال إفريقيا عن جزيرة العرب بواسطة البحر الأحمر.

---

(١) أحمد حنشور ومعروف عقبة: البوميس إحدى المواد الرئيسية للبناء العمراني القديم في مدينة عدن. ندوة: عدن بوّابة اليمن الحضارية (١٨– ١٩ يناير ٢٠١١)، جامعة عدن (ص ١ – ١٠).

وقد ركّز الباحثون دراستهم على ثلاثة براكين فقط هي: بركان كريتر (عدن) وبركان البريقة (عدن الصغرى) وبركان رأس عمران. وبدراسة الماجما (طفح البركان) (Magma) والصخور البركانية (Trachytes) والشكل الحممي من الجرانيت (Rhyolites) والثوليت (Tholeiite) وهو الجرانيت الذي يسند أجزاء من الجبل.. إلخ. وجد الباحثون أنها ترجع إلى بركان ثار قبل خمسة ملايين سنة في العصر المايوسيني والبلاسييني.

ولكن الأبحاث الحديثة المعمّقة بالمواد المشعّة دلّت الباحثين على أن التأثيرات الحرارية ترجع إلى الفترة ما بين عشرين وثلاثين مليون سنة من عصرنا الحالي. أي أنها أقدم بكثير مما كان يذكر (ما بين خمسة وستة ملايين سنة). وقد أكّدت الأبحاث أن البركان كان مشتعلاً قبل خمسة ملايين سنة، ثم خمد. ولم يثر كبركان حتى اليوم. وإن كان من المتوقع أن يثور هذا البركان في أي وقت في المستقبل، ومن الصعب، بل من المستحيل تحديد زمان ثورته الجديدة.

وقد ذكر موقع الناسا وموقع سميثسونيان The Smithsonian / NASA Astrophysics Data System على موقعهم والذي نقلته جوجل تسجيل نشاط بركاني قوي في خليج عدن وامتدّ من ١٤ نوفمبر ٢٠١٠م إلى ١٠ يناير ٢٠١١م.

وحصلت ٣٧ هزّة في اليوم الأول ١٤ نوفمبر ٢٠١٠م.

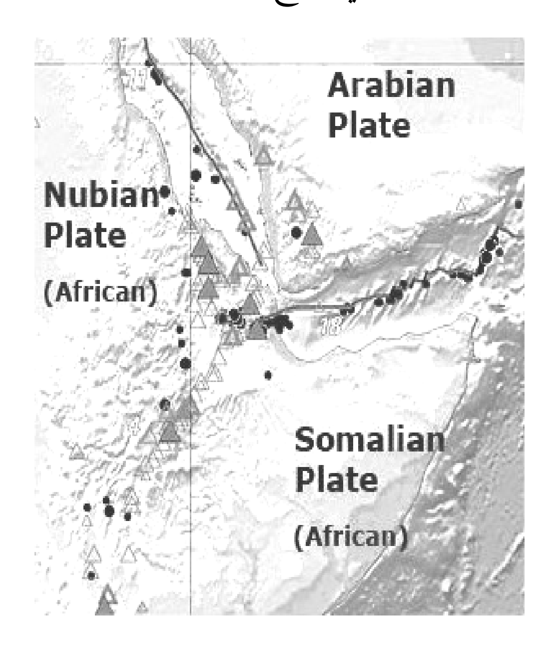
٧ هزّات في اليوم التالي ١٥ نوفمبر ٢٠١٠م.

٣ هزّات في اليوم الثالث ١٦ نوفمبر ٢٠١٠م.

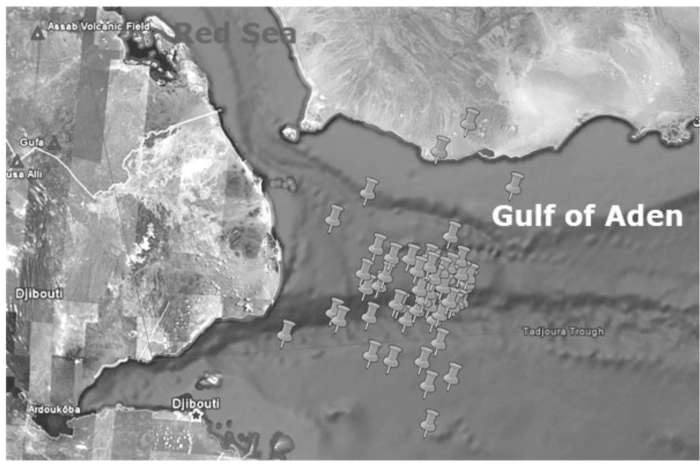
ثم حصلت هزّتان في اليوم الخامس وهزّتان في اليوم السابع وهزّتان في اليوم الثامن.

والخلاصة أن ٤٧ هزّة قوية (٤,٥ إلى 5 على مقياس ريختر) حصلت في فترة متتالية (من ١٤ نوفمبر ٢٠١٠م إلى ١٠ يناير ٢٠١١م) وأغلبها حدثت في الأيام

الثلاثة الأولى وكانت على عمق عشرة كيلومترات تحت سطح البحر، مما جعل الباحثين والمراقبين يرجعون ذلك إلى تحرّك الصفائح الثلاث الموجودة في أرض النوبة (الحبشة)، والصومال، والصفيحة العربية (عدن) وأدّى هذا التحرّك لهذه الصفائح على عمق عشرة كيلومترات إلى هزّات أرضية قوية في خليج عدن (انظر الصور).



تحرّك الصفائح الثلاث:
صحيفة النوبة (الحبشة) والصومال والصفيحة العربية (عدن) مما أدّى إلى حصول ٤٧ هزّة زلزالية أكثر من (٤,٦ إلى ٥,١ على مقياس ريختر)، وعلى عمق عشرة كيلومترات في خليج عدن (قليل منها أقل أو أكثر من ذلك العمق.



وتدعى الهزّات المتتالية أسراب، كأنها أسراب نحل أو غيرها من الحشرات والطائرات Swarm.

ويعلِّق بعض الباحثين والمراقبين على ذلك بقوله: هل قَرُبَ آخر الزمان بحيث تنفجر هذه المنطقة في براكين متوقعة (غير معلوم وقت حدوثها) وتبدأ من منطقة عدن (كريتر) وقيل إن بدايتها قد تكون جزيرة صيرة ذاتها.

والغريب حقًّا أن القدماء مثل بامخرمة والهمداني وابن المجاور وغيرهم تحدّثوا عن النار الموجودة في قعر عدن، وأنها تبدأ من صيرة ذاتها. وقد زعم بعضهم أنه مدَّ حبلاً في بئر عميقة في جبل صيرة فخرج الحبل محترقاً. واعتبر ذلك دليلاً على أنه تحت جبل صيرة ناراً.

وللأسف أُخذت هذه الأقوال من كثير من الباحثين في تاريخ عدن على أنها أساطير مع أنها قد وردت في الأحاديث النبوية، وأثبتتها العلوم الجيولوجية الحديثة، وأن عدن (كريتر) والبريقة وعمران... إلى بريم (ميون) ليست إلا سلسلة من البراكين القديمة (ستة)، وأنها ستثور في آخر الزمان وأن أوّلها وأهمّها هو بركان عدن. وإليك دراسة مختصرة للأحاديث في هذا الباب من كتابي «إضاءات قرآنية ونبويّة في تاريخ اليمن» (كنوز المعرفة – جدة).

عدن في الأحاديث النبوية

هناك حديثان عن عدن الأول في صحيح مسلم وكتب السنن، والثاني أخرجه أحمد في المسند وأبو يعلى والطبراني في الكبير وغيرهم.

الحديث الأول: عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: اطّلع النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر. فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجّال والدابّة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

ومثله في **صحيح مسلم أيضاً**: «ونار تخرج من قُعرة عدن تُرحِّل الناس»[1].

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: هكذا هو في الأصول: **قُعرة بالهاء والقاف المضمومة. ومعناه من أقصى قعر عدن**. وعدن مدينة مشهورة باليمن. قال الماوردي سمّيت عَدَناً من العُدون وهو الإقامة. لأنّ تُبَّعاً كان يحبس فيها أصحاب الجرائم. وهذه النار الخارجة من قعر عدن هي الحاشرة للناس.

أما حديث «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى» فقد خرجت سنة ٦٥٤هـ ، وليس في الحديث أن نار الحجاز متعلّقة بالحشر، بل هي آية من أشراط الساعة مستقلة (خرجت بالمدينة من الحرة الشرقية).

وهذا الحديث رواه **أبو داود في سننه** أيضاً عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه وهو لا يختلف عن حديث مسلم الآنف ذكره، وفيه: «**وآخر ذلك تخرج نار من اليمن من قعر عدن تسوق الناس إلى الحشر**».

وأخرج الحديث نفسه **الإمام الترمذي في سننه** عن حذيفة بن أسيد وفيه «نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس فتبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا». قال أبو عيسى الترمذي، وهذا حديث حسن صحيح.

وقد روى هذا الحديث أيضاً **ابن ماجة في سننه وابن حِبَّان في صحيحه، والحاكم في المستدرك والإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في سننه.**

هذا الحديث من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفتن وأشراط الساعة، ج١٨/ ٢٧- ٢٩. دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢م.

وعدن أبْين هي فوهة بركان قديم كان مشتعلاً قبل خمسة إلى ستة ملايين سنة (0,5 إلى ٦,5 سنة في العصر المايوسيني - البلايوسيني).

ومدينة عدن أسماها الإنجليز بعد احتلالها ودراسة طبوغرافيتها وتكوينها الجيولوجي «فوهة البركان» كريتر Crater. وهو بركان خامد منذ ملايين السنين. ولكن علماء الجيولوجيا يقولون إنه سيثور في آخر الزمان. وإن البراكين العاتية ستكون بالنسبة له مثل لعب الأطفال أو الألعاب النارية.

يقول المهندس الجيولوجي معروف عقبة في بحثه «عدن... البعد التاريخي والحضاري» المقدم للندوة العلمية الأولى ١٥- ١٧ مايو ١٩٩٩م (عدن: الماضي- الحاضر- المستقبل)(1):

«يعتبر بركان عدن أحد المراكز البركانية الستة التي تقع في خط بركاني واحد، وتمتدّ من باب المندب، عند المدخل الجنوبيّ للبحر الأحمر حتى مدينة عدن.

«ويعتبر بركان عدن من أشهر براكين العالم، بل عندما تمّت دراسة براكين عدن من قبل البعثة الملكية لعلوم البراكين (البريطانية) خلال عام ١٩٦٤م، بدأ البروفسور I. G. Gass ورقته العلمية بقوله: «إن البراكين الحالية ما هي إلا ألعاب نارية أمام بركان عدن». وذلك من خلال التركيب البنيويّ لتلك البراكين(٢).

ونجد في مجلة المختار Readers Digest ١٩٧٩م مقالاً لأميلي وبيير أولاولير وفيه: أن بركان كراكاتو في أندونيسيا الذي انفجر عام ١٨٨٣م والذي اعتبر

(١) المهندس معروف إبراهيم عقبة: عدن- البعد التاريخي والحضاري. الندوة العلمية الأولى ١٥- ١٧ مايو ١٩٩٩م، (عدن: الماضي- الحاضر- المستقبل)، جامعة عدن ١٩٩٩، محافظة عدن وجامعة عدن، ص ١٦١- ١٦٢.

(٢) أ. ج. جاس: براكين عدن، ترجمة: محمد سعيد باحاج، ١٩٨٩م.

أقوى بركان في ذاكرة البشرية المدوّنة، وتسبّب في قتل **٣٦,٠٠٠** شخص، وسُمع دويّ البركان على بعد مسافة خمسة آلاف كيلومتر، وحجب الرماد البركاني ضوء الشمس لمدة أسبوع عن الأرض، وأدى البركان إلى اختفاء معظم الجزيرة، وقد قُدِّرت القوة التفجيرية لذلك البركان بمائة قنبلة هيدروجينية... وينتهي المؤلفان إلى أن هذا البركان الضخم يعتبر مثل الألعاب النارية مقارنة ببركان عدن[1].

ومما تقدّم يتّضح بكل جلاء الإعجاز العلمي لحديث الرسول ﷺ، فهو قد أخبر أن عدن تقوم على بركان، وأن هذا البركان سيثور في آخر الزمان. وهو بركان مروع يحشر الناس ويسوقهم إلى المحشر. وتأتي الأبحاث العلمية الجيولوجية الحديثة لتثبت أن عدن ليست إلا فوهة بركان، وقد أسماها الإنجليز كريتر- أي فوهة البركان. كما تثبت أن البركان الذي حدث قبل أكثر من خمسة ملايين سنة كان شديداً جدًّا. ولا يوجد ما يمنع من ثورانه مرة أخرى وربما بصورة أشدّ مما كان عليه، وهو ما يخبرنا به حديث المصطفى صلوات ربّي وسلامه عليه وعلى آله.

الحديث الثاني

جاء في مسند الإمام أحمد (ج١/ ٢٣٣): حدثنا عبد الرزاق عن المنذر الأفطس. قال سمعت وهباً يحدّث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج من عدن أبْين اثنا عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله هم خير من بيني وبينهم».

والحديث أخرجه أبو يعلى (٢٤١٥)، والطبراني في الكبير (ج١١/ ٥٦)، ويحيى بن معين في الجزء الثاني من حديث يحيى بن معين (كتاب الفوائد رقم

(١) معروف عقبة: مصدر سابق.

٧٢)، وأخرجه الخلاّل في العلل، كما في المنتخب لابن قدامة، وابن عديّ في الكامل ج٦/ ٢١٨٤، وابن الجوزي في العلل المتناهية (ج١/ ٣٠٦)، كلهم عن طريق المنذر بن النعمان الأفطس عن وهب بن منبه، والمنذر بن النعمان الأفطس روى عنه عدد من علماء الحديث منهم معتمر بن سليمان وعبد الرزاق الصنعاني. وقال عنه يحيى بن معين: ثقة، (الجرح والتعديل ٨/ ٢٤٢)، ووثقه ابن حبان. وذكره البخاري في التاريخ الكبير (ج٧/ ٣٥٨) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج١٠/ ٥٥) رواه أبو يعلى والطبراني وقال (من عدن أتين) [وهو تصحيف والصواب - عدن أبْين]. ورجالهما رجال الصحيح غير منذر الأفطس وهو ثقة.

وقد قال الإمام أحمد عن المنذر بن النعمان (وهو الأفطس): ثقة صنعاني ليس في حديثه مسند غير هذا.

وخلاصة القول إن هذا الحديث رجاله رجال الصحيح كما يقول الهيثمي في مجمع الزوائد ما عدا المنذر بن النعمان وهو ثقة.

وهو بشارة كبرى لعدن (أبْين) لأنه لم يخرج إلى الآن من عدن أبْين اثني عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله، «وهم خير من بيني وبينهم»، كما يقول المصطفى صلوات ربّي وسلامه عليه وعلى آله.

ولا شك أن إخبار النبيّ ﷺ بذلك هو من الإخبار بالغيب، وكم قد أخبر من الغيوب وتحقّقت كما قال ﷺ. وهذا من إخباره ﷺ بهذا الغيب وبشارة عظمى لعدن وأهل عدن حيث يخرج منهم هذا العدد الكبير من جند الله المجاهدين الذين ينصرون الله ورسوله... وأنهم (خير من بيني وبينهم)... فهذه الخيريّة تجعلهم في مصاف أولياء الله المجاهدين في سبيله، الناصرين لدينه.

فبشراك يا عدن. وبشراكم أهل عدن بهذه البشارة العظيمة من سيد الخلق أجمعين. أما وقت خروجهم فهو غير محدد، ولعلهم يخرجون عند ظهور المهديّ عليه السلام الذي بشّرت به الأحاديث الكثيرة التي بلغت درجة التواتر المعنوي كما قال كثير من العلماء (ومن آخرهم الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله).

وقد قال الإمام الشوكاني في رسالته: (التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجّال والمسيح): «وجميع ما سقناه بالغ حدّ التواتر، كما لا يخفى على من له فضل اطلاع». وقال ابن حجر الهيثمي المكيّ في (الصواعق المحرقة): «والأحاديث التي جاء فيها ذكر ظهور المهديّ كثيرة متواترة».

وتأتي المهديّ أبدال الشام وعصائب مصر وأجناد اليمن والرايات السود التي تخرج من خراسان لا يصدّها شيء حتى ترد إيليا (بيت المقدس).

بعض معالم مدينة عدن (كريتر) التاريخية

- **باب عدن**
- **التلاج ودرب الحريبي (الدرب التركي)**
- **الخساف**
- **جبل شمسان (جبل العُرّ)**
- **صهاريج عدن التاريخية في الطويلة**
- **صهاريج أخرى**
- **صيرة وميناء عدن القديم**

معالم عدن (كريتر)

باب عدن

عدن محمية بقلعة على قمة جبل صيرة للدفاع عنها. كما أنها محاطة بالبحر من جميع الجهات تقريباً ولا يمكن دخولها لوجود جبل شمسان (العرّ) بارتفاعاته المديدة. **ولا توجد لعدن طريق إلى البر سوى فتحة (شصر) في الجبل وهي ما عُرِفت باسم العقبة أو باب عدن. وقد تمّ توسيع هذا الباب حتى تمرّ منه القوافل كما كان بالإمكان قفله بباب من حديد، وأعلاه سور متصل وعلى جانبيه حاميتان.**

والجزء الواقع على يمين الباب للخارج من عدن يسمى الجبل الأخضر، ثم اشتهر باسم جبل المنصوري. ويمتد حتى يصل إلى صيرة. والآخر على يسار الخارج من عدن هو امتداد لجبل التعكر (شمسان). وهذه المنطقة تُعرف باسم الخساف. وقد قام الزريعيون بإدارة سور حول عدن، ثم أقام الزنجيلي (والي عدن من قبل الأيوبيين) بإدارة سور ثانٍ بحيث تكون عدن في منتهى التحصين ولها ستة أبواب. وسيأتي الحديث عنها عند الكلام عن الزنجيلي وإصلاحاته في عدن (في الجزء الثاني من الكتاب).

باب عدن (العقبة)

قال الطيب بامخرمة في كتابه «تاريخ ثغر عدن»[1] عن باب عدن البري: «يُقال إن الجبال كانت محيطة بعدن، ولا طريق لها إلى جهة البرّ، وإن أول

---

(١) الطيب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، مرجع سابق، ص ١٥.

من فتح الباب شدّاد بن عاد، إنّه لما بنى إرم ذات العماد[1] في صحارى عدن، كما ذكره السهيلي وغيره، أمر أن ينقب له باب في صدر الوادي فنقب، فجعل شداد ابن عاد عدن حبساً لمن غضب عليه، ولم تزل حبساً إلى آخر دولة الفراعنة ولاة مصر. وكذلك كانت التبابعة تحبس بعدن، يقال إن أول من حُبِسَ بها رجل يسمّى عدن فسُمِّيت البلدة به، والله أعلم».

وقال بامخرمة أيضاً[2]: «قيل إن عدن الذي تعرف به مدينة عدن، وكذلك أبْين، هما ابنا عدنان يعني ابن أذد، نقله السهيلي في شرح السيرة عن الطبري».

ويسمّى باب عدن، باب البر، والقلعة. وهو المنفذ الوحيد لعدن من جهة البرّ وأما المنفذ الثاني فهو من جهة البحر. وقد وصفه الهمداني بقوله: «شصر مقطوع في الجبل» وقد قام عدد من حكام عدن بتوسيع الباب ومنهم الناصر الرسولي، وقد أطلق عليه اسم باب الزيادة الذي شيّد سنة ٨٠٩هـ.

وعدّ الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب» باب عدن من عجائب اليمن التي ليس لها مثيل في الدنيا، وشبّهه بالشصر أي الطعنة (فهو طعنة في جبل). وقد تمّ توسيع الباب لتدخل القوافل وتخرج منه ووضع عليه حرّاسه، وعلى قمّته سور، وفي أسفله باب من حديد يُغلق كل مساء ويُفتح كل صباح.

وفي الصورة نرى أعلى الباب السور الذي جدّده الإنجليز عام ١٨٦٧م، وعلى اليمين من الفتحة جبل الخضراء (جبل المنصوري) وامتداداته إلى قرب ساحل صيرة، وإلى جبل حديد، وعليه عدد من الدروب. وعلى يسار الباب جبل التعكر (شمسان) وتحته الخساف.

---

(١) توجد قرية صغيرة خارج عدن تسمّى العماد، ويزعم بعض المؤرخين القدماء، أنها هي إرم ذات العماد، ولا بد أن تجرى أبحاث ميدانية وحفريات للبحث عنها، وإلى الآن لم يحدث شيء من ذلك.

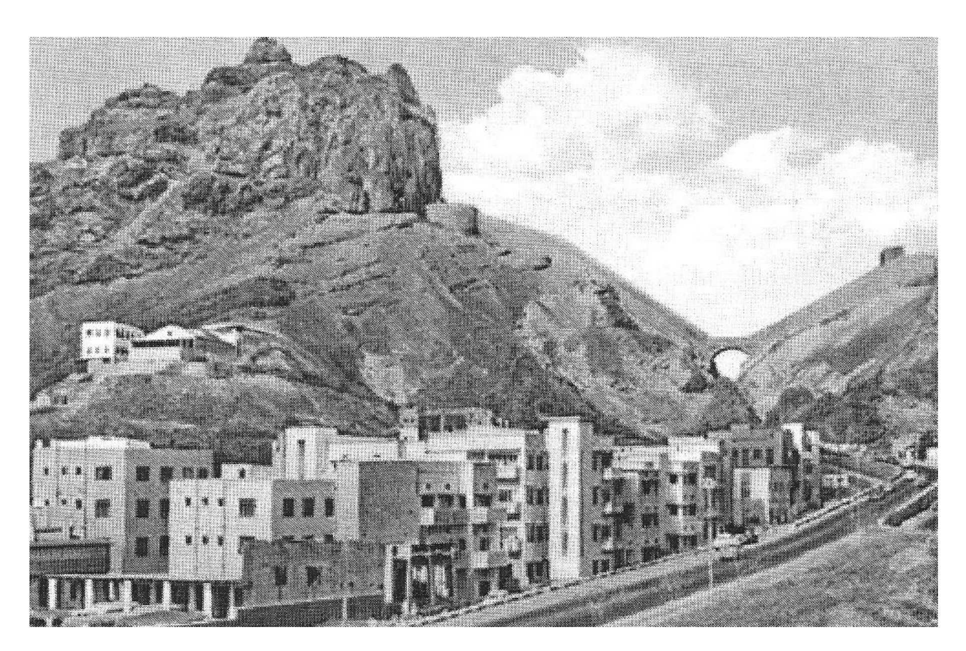
(٢) الطيب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٤.



باب عدن (العقبة) شصر أو فتحة في الجبل، زعم الطيب بامخرمة في كتابه «ثغر عدن» أن أول من فتح الباب شدّاد بن عاد، وجعل عدن سجناً لمن غضب عليه.

وقد أُقيم الباب من الحديد في عهد بني زريع، وتمّت زيادته وتدوير السور حول الجبل في أيام الأيوبيين على يد واليهم الزنجيلي (الزنجبيلي) وقام الرسوليون بتوسعة الفتحة ووضع باب آخر حوله.

وفي عام ١٩٦٣م تمّ إزالة الجسر وتوسيع الباب ليتّسع الطريق المسفلت للسيارات ذهاباً (خروجاً من عدن) وإياباً (عودة إليها). ثم توسيع الباب مرة أخرى بعد الاستقلال.



العقبة (باب عدن) وتحتها وادي الخساف وقد امتلأ بالعمائر.



صـورة قديمـة لبـاب عـدن مـع ظهور السور والحصن



تمّ تهديم السور والحصن على العقبة (باب) عدن في أبريل عام ١٩٦٣م لتوسيع الطريق.
والصورة توضح لحظة تفجير السور على الباب

وقد كان باب العقبة (باب عدن) يُفتح ويُقفل صباحاً ومساء. كما كانت عليه حراسة من الجند، لذلك كانت عدن حصينة. وكان المتولي على باب البرّ يضع الضرائب على القوافل الخارجة منه والداخلة إليه بالبضائع. ويشكّل ذلك مع الفرضة دخلاً كبيراً لعدن. وقد جعل المكرم أحمد بن علي الصليحي على باب البر وحصن التعكر العباس بن المكرم الهمداني، وجعل أخاه مسعود الهمداني على حصن الخضراء (المنصوري) المطل على الميناء وباب البحر. ووافقا على أن يرفعا كل عام دخل عدن إلى السيدة (أروى) زوجة المكرم أحمد بن علي الصليحي، ومقداره مائة ألف دينار ذهباً، يزيد قليلاً أو ينقص. وبقيت عدن بيد الزريعيين أمداً طويلاً.

وقد قامت بريطانيا بتجديد السور (الجسر) على الباب وذلك سنة ١٨٦٧م ضمن استحكاماتها العسكرية. وهدم الجسر عام ١٩٦٣م لتوسيع الطريق، ثم ازداد التوسيع بعد الاستقلال.. وسنتحدث عن باب عدن عند الحديث عن الدول المختلفة وما قامت به نحوه لأهميته التاريخية والعسكرية.

المباه: فإذا خرج الإنسان من باب عدن تلقّته منطقة تُعرف باسم المباءه عند القدماء، وهي كما يقول الطيب بامخرمة: «قرية صغيرة تحت عدن، بينها وبين عدن ربع فرسخ (كليومتر)، سُمِّيت بذلك لأن من خرج من عدن سائراً أقام بها إلى أن تتكامل بقيّة الرفقة ويسيرون معاً. وكذلك القوافل الواصلة إلى عدن كانوا يقيمون بها، ويتهيَّأون للدخول بالغسيل ولبس الثياب ونحو ذلك»[1]. ثم قال: «وكان بها دكاكين، ومحلاجة، وبيوت. وغالب أهلها صيادون، ويحرقون النورة والحكم، وبها مسجد قديم خرب فجدّده السلطان صلاح الدين عامر بن عبدالوهاب رحمه الله ، ورتّب فيه إماماً ومؤذِّناً، وخطيباً يخطب الناس يوم الجمعة،

---

(١) الطيِّب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٨١.

ونصب له منبراً»[١].

وهي المنطقة التي قامت فيها مجموعة من الدكاكين (الشابات Shops) أيام الإنجليز بعد مبنى شركة البترول وقبل الوصول إلى جبل حديد. وقال عنها الأستاذ عبد الله محيرز في كتابه «العقبة»: «وهذا لا يدع أي شك بأن موقع القرية هو الموقع الذي بخارج عدن وعرف بدكّة «الكباش». وكانت محطة لتجّار المواشي القادمة مع الصومال حتى تتم المعاملات الجمركية ويتم بيعها لتجّار اللحوم»[٢]. ويبدو أن هذه القرية كانت في هذه المنطقة من دكّة المعلا المتصلة بلحف الجبل حيث مبنى شركة البترول (سابقاً B. P.) ومنطقة الدكاكين التي تليها.

الدروب: قال أستاذنا عبد الله محيرز رحمه الله في كتابه «العقبة»: «تبدأ من باب عدن سلسلة جبلية، تتّجه شمالاً إلى جبل حديد على ساحل المكسر (خورمكسر)، اتخذت أجزاؤها عدة أسماء ونسيها الناس. وتفصل بينها وبين جبل حديد فجوة تقدّر بمائتي ياردة وقد رُكِّب عليها سور وبوّابة»، ويطل جزء منها على قرية المباه، وجزء فيه حصن جبل حديد.

وهذه الدروب كثيرة وبعضها دفاعي، وبعضها جدران وحواجز لمنع تسلّق الأجزاء الواطئة من السلسلة.

ولهذا تقع بعض المعارك بين المهاجمين لعدن والمدافعين عنها حولها وفيها. وعلى نهاية هذه الدروب حصن جبل حديد الذي جعلته بريطانيا مقرًّا لقيادة معسكرات البرزخ. وعلى هذا الحصن (وفيه) سكن سعد زغلول وجماعته عندما أخذتهم بريطانيا إلى سيشل فتوقفوا في عدن وأسكنوهم في جبل حديد وذلك عام ١٩٢٢م.

(١) عبد الله محيرز: العقبة، ص ٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٠.

ثم جعلته بريطانيا بعد ذلك مدرسة لأبناء شيوخ وأمراء المحميات، وهي طريقة ذكية لأخذهم كرهائن، بحيث تضمن بريطانيا ولاء آبائهم. وحتى لا تظهر بريطانيا العظمى أنها تستخدم نظام الرهائن فقد جعلت هذا الحصن البعيد عن الناس مدرسة خاصة لأبناء هؤلاء الشيوخ لتعلمهم ما تريد وتضمن ولاءهم.

وأما جبل حديد فقد قيل إنه سُمِّي كذلك لوجود الحديد فيه. وقد استخدمه القدماء وخاصة الرسوليين والطاهريين كموقع عسكري هام لحماية عدن.

ويبعد جبل حديد عن كريتر حوالى كيلومترين فقط. وقد ذكر ابن المجاور في تاريخه وجود مسجد في سفحه بُني من الجصّ والآجر.. واهتمت بريطانيا بعد احتلالها عدن بهذا الجبل والدروب وحصّنتها كما أنها جعلت عل قمّته خزّاناً كبيراً للماء الذي يجلب من خارج عدن، وهو مصدر هام للثكنات العسكرية البريطانية في هذه المنطقة، ثم صار مصدر المياه الرئيسي لسكان مدينة عدن كريتر.

والفجوة التي تفصل جبل حديد عن الدروب منخفضة فتمتلئ بماء البحر في حالة المد فتجعل من جبل حديد جزيرة أو شبه جزيرة. وقد رُسمت صورة لجبل حديد في حالة المد أُخذت في منتصف القرن السابع عشر الميلادي من جهة صيرة توضح ذلك، وعندما ينحسر الماء في حالة الجزر يمكن العبور بالأقدام إلى جزيرة العبيد (جزيرة العمال).

وسننقل فيما يأتي ما جاء في كتاب الأستاذ عبد الله محيرز «العقبة» عن التلاج والدروب وهو خير من كتب عنها:

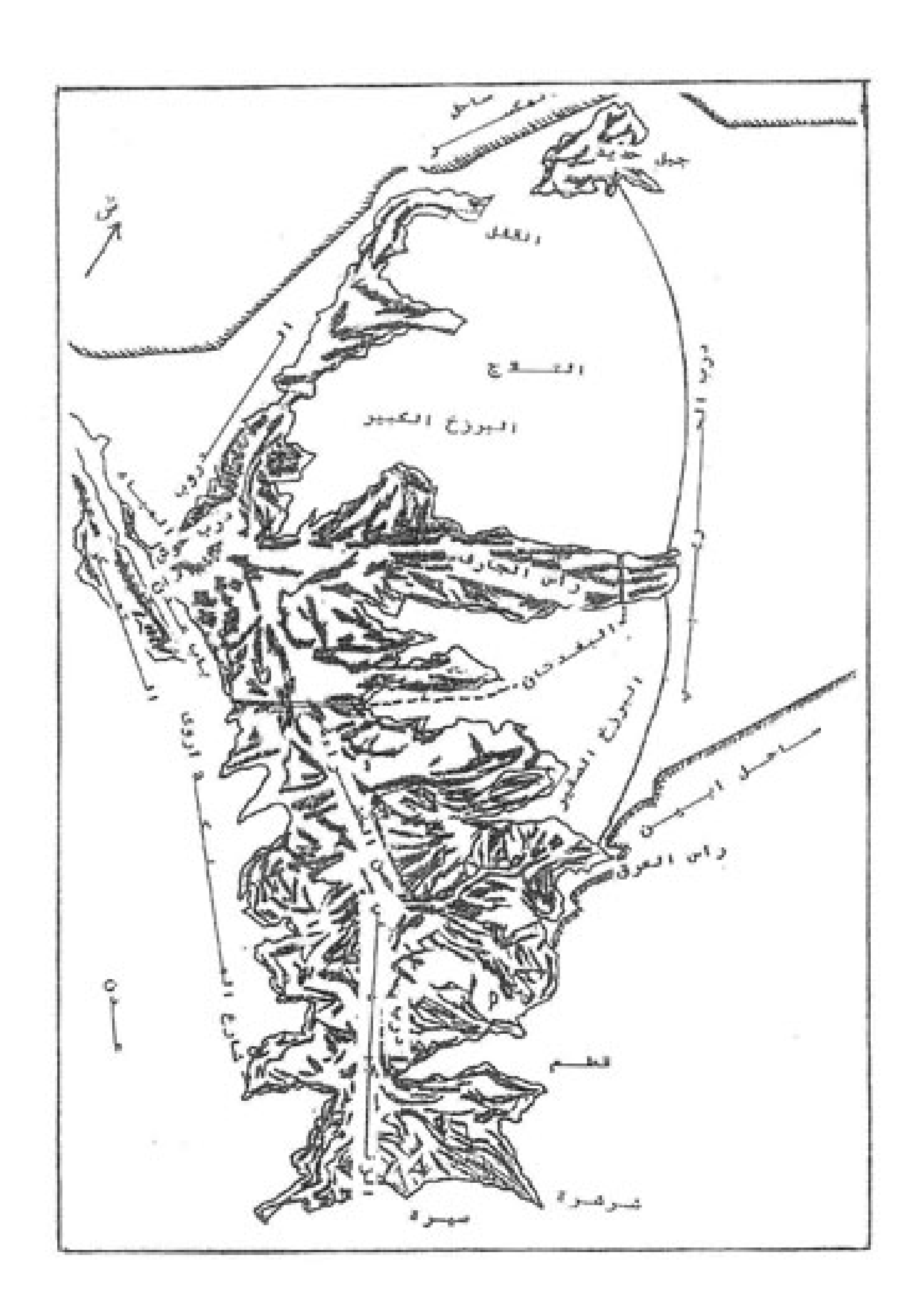
التلاج ودرب الحريبي (الدرب التركي)

يقع بين رأس العرق، وجل حديد وادٍ فسيح، ينفرج على ساحل أبْين، وتقطعه سلسلة جبلية تنتهي برأس الجارف إلى قسمين[(١)]، وقد أطلق الإنجليز اسم البرزخ على هذا الوادي (Isthmus)، وحرّفه الناس إلى (الأسميس) لأنه الموقع الوحيد الذي يربط شبه جزيرة عدن بالبرّ. ويكون أخطر وأضعف جهة لاقتحام المدينة، إذ ينفتح على ساحل أبْين كاشفاً عبر شعابه السبيل لأي متسلل إلى باب عدن بسهولة ويسر. فأعلى قمة بالنسبة لما يحيط به من جبال لا تزيد عن ٢٥٠ قدماً، ويقل عن ذلك في بعض أجزاء من الدروب، ويصل إلى سطح البحر في الفجوة التي تفصل جبل (حديد) عن سلسلة (الجوهري). وبسبب ذلك حظيَ الموقع بعناية منقطعة النظير، وبُنيت عليه استحكامات عسكرية ودروب ومسالك جعلته من أخطر المواقع، وأمنعها.

وقد تكلمت المصادر الأجنبية عما يسمى بالدرب التركي، وخزان الماء عند ذكر البرزخ. وقصد بالدرب التركي ذلك الدرب الممتد من جبل حديد إلى رأس الجارف، ثم منه إلى رأس العرق. هو بشكله الحالي أحد الاستحكامات العسكرية القديمة، التي أُعيد بناؤها - بعد سنوات قليلة من احتلال الإنجليز لعدن- لحماية ثكنات البرزخ، وصدّ هجوم المقاومة الوطنية التي تكثّفت في هذه الفترة لاستعادة المدينة.

---

(١) يظهر في الخارطة المرفقة بكتاب هنتر *An Account of the Settlement of Aden* قسما البرزخ وقد كُتب على أحدهما (Small Isthumus) أي البرزخ الصغير والآخر (Large Isthumus) أي البرزخ الكبير.



خارطة لسلسلة جبل المنصوري إلى جبل حديد وموقع باب عدن وجبل التعكر والبغدتين والتلاج

ولكن ما هو هذا الدرب.. وخزان الماء؟

في تقريرٍ نشره عن مسح قام به لساحل عدن في السنوات ١٨٣٤ - ١٨٣٦م يصف هينس (Haines) مسيرة قناة للماء لتموين المدينة:

«تبدأ من أقصى شمال شبه الجزيرة (عدن)، ومن داخل الجدار المهدم، والمسمّى بالدرب العربي، الذي يمتد من البحر إلى البحر عبر البرزخ» فهو إذاً، أولاً: جدار يمتد من ساحل أبْين إلى ساحل المكسر عبر البرزخ، وثانياً أن اسمه الأصلي كما ذكره: الدرب العربي.

ويوحي الأول أن هذا الدرب يغلق الطريق على من قصد قطع البرزخ قادماً من البر متجهاً إلى العقبة، أو إلى رأس قطم ومنها إلى صيرة. فهو يبدأ من جبل حديد إلى رأس الجارف، ومنه إلى رأس العرق على شاطئ ساحل أبْين.

ويصف مصدر آخر هذا الدرب وأهميته بدقّة أكثر، كشاهد عيان عاصر إنشاء الاستحكامات في الثماني سنوات الأولى للاحتلال: «يقع الجدار التركي على بعد ميلين من المعسكر[1]، وعليه حراسة دائمة قوامها ٣٥٠ جنديًّا. وتقع وراءه مباشرة سلسلة مرتفعات، عليها حراسة قوية على أهبة الاستعداد عند الهجوم. وقد بنى الإنجليز الجدار الحالي بعد الاحتلال مباشرة، وهو بشكله الأخير- سنة ١٨٦٤م[2] عبارة عن كوم من الحجارة ارتفاعه أربعة أقدام

(١) أطلق الإنجليز اسم (Camp) أي معسكر على مدينة عدن (إلى جانب تسميتها كريتر Crater أي فوهة البركان) حتى بعد الحرب العالمية الثانية. كما أطلق عليها اسم القلعة (Fort).

(٢) كان هذا في الواقع وصفاً للجدار حتى سنة ١٨٤٦م بعد ترميم سريع له. ولكنه ترميم لم يكن كافياً لصدّ هجمات المقاومة كما اتضح في حركة الشريف إسماعيل، فبنى الإنجليز درباً حصيناً: هو في الواقع الدرب الحالي. انظر فصل الاحتلال البريطاني لعدن، الجزء الثالث.

وعرضه ثلاثة، ويمتد ثلاثة أرباع الميل عبر البرزخ، فاصلاً عدن عن شبه الجزيرة العربية»[١].

«وتكمن فاعليته وقوته، في التحصينات الميدانية، والريدانات المكوّنة من أكياس الرمل. وقد وُضعت عليه ما يقرب من عشرين مدفعاً، وأسلاك شائكة على جانبيه وبُنيت عليه حواجز، وخنادق»[٢].

وقد أدرك الإنجليز - كما أدرك من قبلهم - أنه بقدر خطورة هذا الموقع على المدينة، وإمكانية التسلل عبره: إما إلى العقبة أو إلى صيرة، إلا أنه بعد تحصينه، وحمايته، يصبح ذا فاعلية لا حدود لها لحماية المدينة ضدّ أي هجوم عليها من جهة البرّ. فبإمكان قوة صغيرة على جبل حديد أن تصدّ أي هجوم متجه نحو العقبة وأخرى على رأس العرق للمتجه نحو المدينة عن طريق (صيرة).

على أنه لم يمضِ عشرون عاماً على هذا الوصف للاستحكامات العسكرية للموقع، حتى نجد وصفاً آخر للكابتن بليفير- مساعد المقيم السياسي- وهو ضابط آخر عمل في عدن في تلك الفترة، قائلاً: «ويحمي البرزخ خط دفاعي ضخم، باستحكاماته العسكرية المتنوعة: خندق عميق، بستيونات، ريدانات، وحصون مزوّدة بأسلحة ثقيلة.

وفي داخل المعسكر توجد ترسانة، ومخازن، وثكنات، وجزء من القوات العسكرية المرابطة في عدن، وخزانات للماء، يجري الآن ربطها عبر نفق إلى آبار المدينة، ومنشآتها المدنيّة، ويتم التفكير حاليًّا بإنشاء معمل لتقطير الماء العذب احتياطاً ضد انقطاع الماء»[٣].

---

(١) Sketches, P. 29 .

(٢) السابق، ص ٢٩.

(٣) Playfair, *Arabia Felix*, P.13 .

وبذا أصبح البرزخ في العقد السابع من القرن التاسع عشر مؤسسة عسكرية ضخمة قادرة على التحكم على مداخل المدينة.

أما تسميته بالدرب العربي فلعل ذلك يوحي - أول وهلة - بنسبته إلى بُناته الأصليين، وهم اليمنيون، وليس الترك. ولا يعرف من بدأ بتسميته بالتركي[١]. إلا أنه أطلق عليه ذلك بعد الست السنوات الأولى للاحتلال إما خطأ، أو إنكاراً، واستكثاراً لأي مقدرة محلية. أو أن الترك في أيام حكمهم استفادوا منه فنُسب إليهم. وقد رأى بعضهم: أنها تسمية مضللة[٢].

ولعل نسبته إلى الترك تعود إلى (لاروك) الذي وصف هذا الموقع في ١٧٠٨م: «ويحيط بهذا الموقع دروب في حالة سيئة، وخاصة من جهة البحر، حيث توجد على مسافات متقاربة قواعد وضع عليها خمسة أو ستة مدافع صُنعت من الصفر، وخمسون قذيفة. ويعتقد أن هذه الأسلحة هي جزء من الترسانة التي جلبها سليمان القانوني عندما احتل المدينة، وخلفها الترك وراءهم عندما اضطروا لتسليم المدينة لحكّامها العرب»[٣].

وجدار كهذا لا بد وأنه كان موجوداً منذ زمن قديم. وهو افتراض يخضع للمنطق، والضرورة الاستراتيجية التي تحتّم حماية هذا الموقع الخطير بأي شكل، بما في ذلك بناء درب يقطع الطريق للمتسلل إلى المدينة عبر البرزخ، وإلى درب حوش، ثم دخولها من العقبة من وراء بابها.

ويدعم هذا الافتراض تحليل لبعض المخططات التي وضعت أيام الرسوليين لاقتحام المدينة، عندما استحال دخولها من بابها بسهولة. وتوحي

---

(١) نُسبت كثير من المنشآت إلى الأتراك، من ضمنها آبار عدن، وصهاريجها، وحتى مسجد العيدروس وأصبح ما صعب نسبته إلى أحد نسبته المصادر الأجنبية إليهم.

(٢) Sketches, P. 29 .

(٣) La Roque, P. 490 .

القصة المشهورة التي أوردها الخزرجي عن خروج الملك المؤيد على أخيه بالاستيلاء على عدن، بعد أن وصل (أبْين) أنه ربما يكون هذا هو الدرب الذي يقابل القادم على الساحل من أبْين معترضاً دخوله التلاج[١]. فتوجه إلى عدن وتأملها، فرأى في بعض نواحيها درباً ضعيفاً، متشعثاً.

ويبدو أن اسم الدرب لم يكن الدرب (التركي)، أو (العربي) قبل الاحتلال، ولكن درب (الحريبي). وقد حرَّفه هينس في تقريره المذكور[٢].

ويروي العبدلي في معرض حديثه عن حركة الشريف إسماعيل لاستعادة عدن من الإنجليز سنة ١٨٤٦م، عن شاهد عيان، أن الخيل خاضت في الماء في (ساحل أبْين)، ثم قفزت على درب الحريبي، في اتجاه باب عدن[٣]. وقد أوضح ذلك جاكوب في كتابه ملوك العرب بأن: الدرب (العربي) هو درب (الحريبي)[٤].

ومن الصعب معرفة سبب هذه التسمية، إلا أنه توجد شخصية وزرت للإمام المهدي صاحب المواهب في مطلع القرن الحادي عشر، وترجم لها زباره في نشر العرف: «الوزير صالح بن علي الحريبي اليمني، صاحب الحجرية، من اليمن الأسفل»[٥]. وتفيد ترجمته بأنه قام إلى جانب وزارته بأعمال إنشائية، وعسكرية في أنحاء عدة من اليمن، من ضمنها إدارة بعض ثغور اليمن، وقيادة جيش لإعادة الزيدية من[٦] حضرموت وإخراج يافع منها. ولا يبعد أن يكون

---

(١) العقود اللؤلؤية، ج ١ ص ٢٣٩. يتم تحليل هذه القصة بتفصيل في الدور العسكري للعقبة أيام الرسوليين.

(٢) درجت كثير من المصادر الأجنبية المبكرة على تصحيف الأسماء العربية، وقد صحف هينس في تقريره اسم العيدروس إلى (إدريس) وغيره جعله (هيدروس).

(٣) العبدلي، ص ١٢٩. (أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن في تاريخ لحج وعدن).

(٤) Jacob, P. 41

(٥) زبارة، ص ٧٧١.

(٦) الصواب: (إلى).

ترميم هذا الدرب من بعض أعماله.

أما خزان الماء فيبدو أنه كان وراء هذا الدرب ترد إليه القوافل، وتتموَّن منه السفن في ميناء صيرة. وقد رفع هينس في تقريره[١] أنه تبدأ من داخل الجدار قناة للماء تمتد إلى بئر (المحيط)، طولها حوالى عشرة أميال، وأن هناك صهريجاً رائعاً تصب فيه هذه القناة بمياه الشرب من هذه البئر، لتموِّن السفن بالماء.

ووجود صهريج كهذا يضفي على هذا الموقع أهمية خاصة، لا للعقبة وحدها: شريان المدينة البري، ولكن لصيرة، مينائها وشريانها البحري. ويجعل لهذا الدرب مهمة أخرى، وهي الدفاع عن هذا الصهريج، واستقرار التموين للسفن، واستمرار الخدمات التي يقدمها الميناء للملاحة. ويؤكد مصدر آخر[٢] سبق هينس بثلاثة قرون وجود هذه القناة وهذا الصهريج. وتشير بعض كتب التراث إلى هذا المرفق الحيوي لخدمة السفن، إشارة تفيد في تحديد موقعه، واسم الموقع نفسه قبل أن يطلق عليه البرزخ، أو الجدار التركي أو الدرب العربي أو درب الحريبي. ففي سنة ٩٢٢هـ يفيد ابن الديبع[٣] أنه عندما وصل حسين الكردي إلى بندر عدن لاحتلالها: «فنزلوا بساحل أبْين تحت حصن الخضراء، ونزل جماعة من أصحابه ليستقوا من ماء التلاج، فقتل منهم جماعة. فإلى جانب تحديده موقع الجبل الأخضر كما سلف، يحدد أيضاً موقعاً سمّاه التلاج قريباً من ملتقى ساحل أبين بالجبل الأخضر عند رأس العرق بمسافة تمكن رجال سلمان التركماني، وحسين الكردي بالسير إليه من سفنهم لشرب الماء. وهذا ينطبق على هذا الوادي. وتوحي العبارة بوجود خزان للماء ترتاده السفن، كما توحي بأن عليه حراسة تدافع عنه، وتجعل منه موقعاً عسكرياً أيضاً.

(١) Haines, P.134.
(٢) Alboquerque, P.12. (البوكيرك البرتغالي).
(٣) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٢٨٤.

ويؤكد ابن الديبع[١] أهمية التلاج - في معرض تعداده لمآثر الملك الظافر في تموين القرى والمدن بالماء - بأنه «هو أجرى التلاج إلى مدينة عدن» مضيفاً إلى مهامه العسكرية تزويد المدينة، والسفن، والقوافل، بالماء. ويضع القاموس معنى واحداً للتلاج والثلاج بأنه وادٍ يفصله جبل، ويقسمه قسمين. هو كذلك في الواقع، إذ يقسمه رأس الجارف إلى قسمين.

والتلاج - إذاً - موقع دفاعي قديم، ومحطة عسكرية اتخذها الطاهريون بدلاً من المباه التي كانت تحط فيها جيوش الرسوليين. ويروي بامخرمة - بما يؤكد أهميته العسكرية - تفاصيل المعركة التي دارت بين أهل البلد وسلمان وحسين الكردي. فقد احتلّ الأخيران قلعة صيرة، وضربا المدينة بالمدافع بدون طائل. فنزلا إلى مراكبهما منهزمين. وفي نفس الوقت، أرسل السلطان عامر بن عبد الوهاب أخاه عبد الملك لشدّ أزر أهل عدن، فوصلها: «وأصبح - يوم الخميس ثاني الوقعة - بالتلاج، فنصب خيامه ثَمَّ، وأقام فيها طول نهاره، فلما رأى المصريون كثرة الخيام، سألوا عن ذلك، وكانت لهم جواسيس وعيون، فأخبروا بوصول الشيخ عبدالملك»[٢].

وقد حافظ هذا الموقع على أهميته العسكرية إلى اليوم. ولا زال خزان الماء الذي يموّن المدينة على رأس جبل حديد - الذي يطل على التلاج - يقوم بنفس المهمة التي كان يقوم بها سلفه تحت سفحه».

الخساف: ذكر الطيب بامخرمة أن عدن كانت جزيرة يحيط بها البحر من جميع جوانبها، وكل من أراد السفر حمل متاعه في الزوارق، أي السنابيق الصغار، إلى أن يتعدّى البحر فتجيء الجمال والدواب فترفعه من عند المكسر.

---

(١) نفسه، ص ٢٩٠.

(٢) قلادة النحر، لبامخرمة، ج ٣.

فلما رأوا ما في ذلك من التعب على الخلق بنوا المكسر المعروف. وإنما كان يسكنها قوم صيادون يصيدون في البحر، وكانت مساكنهم في طرفها مما يلي الساحل وقريب منه. وكان غالب البلد خالياً من السكن والبناء خصوصاً معاليها، وكان بمعاليها أشجار كبار ذات شوك كالسُمر والعوسج وغير ذلك، ولذلك سُمِّيت الحافة العليا بجرام الشوك، والجَرام بفتح الجيم، القطعة من الأرض بلغة الهند»[١].

وفي موضع آخر قال بامخرمة في ترجمته لأحد الأولياء:

وهو ريحان بن عبدالله العدني (عبد حبشي) له مشهد قريب من الخصاف (الخساف)[٢]...

وقال الأستاذ عبد الله محيرز في كتابه «العقبة»[٣]: «أن عبد الله بن أبي بكر السعدي المعروف بابن الخطيب (من قرية الطرية في أبْين) استوطن عدن، واتخذ مسجداً يتعبّد فيه ويدرّس الناس عُرف باسمه ويقع في جرام الشوك، كما أورده الجندي في تاريخه، ونقله عنه الخزرجي في العقود اللؤلؤية».

قال المحيرز[٤]: «والخساف وادٍ فسيح، يشمل في أقصى حدوده معسكر ٢٠ يونيه (وهو الذي كان يدعى الليوي أيام الإنجليز) وفي أضيقها ما بين الباب وسفح جبل التعكر (شمسان). قلتُ: وقد امتلأ الخساف بالعمائر السكنية. وهو ما يشكّل خطراً إذا ما جاءت أمطار قوية ونزلت السيول من جبل شمسان فقد كان في أسفله صهريج كبير اندثر، فإذا جاءت مثل هذه السيول فستجرف ما أمامها من مبانٍ وسكان».

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٨.
(٣) عبد الله محيرز: «العقبة»، ص ٥٤.
(٤) المصدر السابق.

ويقول المحيرز أيضاً[١]: «وعند سقوط الأمطار يسيل الماء منه في منحدر لينضم مع روافد أخرى في مجرى واحد، موازٍ لشارع الملكة أروى (السيدة بنت أحمد) - عند مجمع البنوك - مع المجرى الرئيسي لمياه السيول المندفعة من وادي الطويلة إلى خليج صيرة.

وقد تميز الخساف بسبب ارتفاعه بوجود آبار عذبة وكثرة الأشجار البرية. وبلغ عدد الآبار فيه عام ١٨٤٣م (أي بعد احتلال الكابتن هينس لعدن عام ١٨٩٣م ببضع سنوات) ٢٧ بئراً. وعلّقت عليه قوات الاحتلال آمالاً كبيرة لتموين قواتها بالمياه. وكانت منطقة الخساف تحوي عدداً من الصهاريج والقنوات المائية شبيهة بما هو موجود في الطويلة إلا أنها مطمورة»[٢].

وكانت مدينة عدن تنتهي عند مسجد أبان، وبقيت المسافة إلى باب عدن ضاحية لها، وظل الخساف - كما يقول المحيرز - قفراً إلا من بعض المقابر والمعسكرات (أو مشاهد الأولياء).

وقد وصف موظف في إحدى شركات البواخر الإنجليزية الخساف بُعيد احتلال عدن (١٨٣٩م) فقال: يوجد عند نهاية باب عدن وادٍ فسيح، قفر، محاط بجبال عالية من ثلاث جهات، امتلأ جزء منه بالأضرحة، والآخر بعشش من القش والقصب[٣].

جبل شمسان (جبل العُرّ): يطلق اسم العُرّ في اليمن كلفظ مرادف للجبل وقد أطلق على عدة جبال في اليمن، ومنها جبل عدن الذي عُرف فيما بعد باسم شمسان الذي يبلغ ارتفاعه ١٧٢٥ قدماً فوق سطح البحر، وتمتد منه إلى البحر

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٢) محيرز: العقبة، ص ٥٥ وصهاريج عدن.

(٣) محيرز: العقبة، ص ٥٥ كما ينقله عن: Kirkmman and Doe, P. 187 .

أذرع كثيرة، مكوّنةً خلجاناً عدة تصلح لرسوّ السفن، وتكون محمية من الرياح ومن أي عدوان. وأهم هذه الخلجان الخليج الأمامي في صيرة، وهي جبل عالٍ في وسط البحر مقابل عدن تجعل الميناء القديم محميًّا من كل جهة تقريباً.

وهو جبل بركاني ثار منذ ما يقرب من ستة ملايين سنة واستمر مشتعلاً من آن لآخر لمدة مليون سنة، ثم خمد منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، وسيثور مرة أخرى - كما أخبرنا بذلك المصطفى ﷺ - في آخر الزمان، وكما أكد ذلك علماء الجيولوجيا.

ولا تزال بقايا الطفح البركاني موجودة في مواقع مختلفة على هضبة عدن (البوميس) وتستخدم مع النورة للتبليط والتجصيص. وقد استخدمت في تجصيص الصهاريج التاريخية في الطويلة. وفي بعض المنشآت والدفاعات التاريخية في عدن.

وقد أورد الهمداني في صفة جزيرة العرب ص ١١٧، كما ينقله عنه المحيرز أنه نهاية جبال السراة الممتدة من شمال الحجاز إلى اليمن، وعرّفه بأنه جبل يحيط البحر به. وعلى ذلك فهو جبل يمتد من باب عدن (على يسار الخارج منه) إلى قرب باب حقات. وعلى سواحله تقع مدينتي التواهي والمعلا وخلجان متعددة. ويؤكد ابن المجاور هذا التعريف. وقد بنى الزنجيلي (الزنجبيلي= حاكم عدن من قبل الأيوبيين) سوراً دائراً على جبل المنظر (المطل على حقات) إلى آخر جبل العُرّ (المطلّ على باب عدن) وركّب على هذا السور باب حقات.

وجبل شمسان وعر ويتخلله وديان ومنحدرات سحيقة، وتربض مدينة عدن في سفحه محيطاً بها من أغلب جهاتها.

وكان القدماء يطلقون عليه اسم العُرّ، وتغيّر ذلك إلى شمسان في بداية عهد الرسوليين (القرن العاشر الهجري). ويورد بامخرمة والبافقيه أن المماليك المصريين عند محاولتهم الاستيلاء على عدن قصفوها من قلعة صيرة التي استولوا عليها، وكانت القذائف تصل إلى سفح شمسان بعيداً عن المدينة.

ونتيجة النتوءات الكثيرة تكوّنت خلجان عدة أهمها صيرة وحقات وضراس وجولدمور، وفي هذه المنطقة وادي فيه عين ماء تبضّ بالماء، فتنمو أشجار الأراك والعشر والسُمر وغيرها. ويعرف أبناء عدن هذه المنطقة باسم (أبو الوادي).

ولم تكن هناك مدينة التواهي ولا جولدمور (الساحل الذهبي) لوعورة الطريق الجبلية ولم يتم استخدامها إلا بعد استعمار بريطانيا لعدن عام ١٨٣٩م، وبعد أن وجدت أن ميناء صيرة لا يصلح للسفن الكبيرة. وقد كان الميناء أهمل بفعل الزمن في صيرة وامتلأ بالرمل وسار الساحل ضحلاً جدًّا فانتقلت السفن في العهد البريطاني - وخاصة بعد استخدام البواخر (الفحم) - إلى التواهي الذي كان أكثر عمقاً ويتحمل وجود العديد من السفن الكبيرة في آن واحد.

ورغم أن المعلا قد استخدمت للسفن الشراعية قبل الاستعمار البريطاني، إلا أنها توسّعت كثيراً بعد الاستعمار.

صهاريج عدن: (صهريج لفظ فارسي معرَّب يعني حوض الماء).

تعتبر صهاريج عدن من معالم عدن التاريخية. وقد وضع الأستاذ عبد الله محيرز كتاباً في صهاريج عدن. وذكر أن أحد النقوش اليمنية القديمة جاء فيه أن امرأة تدعى قيلزد قدّمت مسنداً للآلهة ذات بعدان (الشمس) تكفيراً عن خطيئة ابنتها بتدنيس **صهريج عدن**»[1]. والظاهر أن التدنيس كان بسبب تلويثها للماء حيث كانت طامثاً (حائضاً) فدخلت فيه ربما للاغتسال.

وكانت الحضارة البابلية وكثير من الحضارات القديمة بما فيها الحضارة اليمنية القديمة تعاقب على تلويث المياه، وتعتبر ذلك إثماً كبيراً يستدعي تقديم

---

(١) عبد الله محيرز: صهاريج عدن، المركز اليمني للأبحاث الثقافية، عدن ١٩٨٧م، ص١٣، وهذا النقش موجود في متحف اللوفر بباريس بالرمز 4 (1 - 50 H).

القرابين للآلهة. وهي نظرة صحيّة هامة فقدها الإنسان في القرن العشرين والواحد والعشرين حيث يلوث مصادر المياه والبحار والأنهار بنفايات المصانع والمواد الكيماوية التي هي أشدّ تلويثاً للمياه من نفايات الإنسان والحيوان، وربما كانت أخطر على الصحة. ومن المخاطر الحديثة تسرّب النفايات النووية والإشعاعات الخطيرة منها إلى البحار ومصادر المياه.

ويعتقد الأستاذ عبد الله محيرز رحمه الله[١] أن صهاريج الطويلة المشهورة والتي أعاد اكتشافها مجموعة من المهندسين الإنجليز على رأسهم بليفير (Playfair) عام ١٨٥٦م أنها ليست خزانات لحفظ الماء، كما يعتقد بليفير، بل هي «وسيلة لتلقّف الماء عبر جدران حاجزة، إما منقورة بصفا[٢] الجبل، أو مبنية بالحجارة والجصّ في عرضه، تقوم بثلاث مهمات: تلقّف الماء، وحجز الحجارة والطمي الساقط مع الشلالات، وتوجيه الماء عبر سلسلة من هذه الجدران لتصريفه إلى حيث تكون الحاجة إليه.

«فنظام الطويلة أشبه بمصارف جبلية لتصريف مياه الشلالات وتوجيهها إلى المدينة» ويستدل على ذلك بما كتبه كوجلان أحد الذين اكتشفوا هذه الصهاريج الضخمة حيث قال: «قد رفع إليّ مساعدي أنه اكتشف قناة تتخللها خزانات عميقة في مسارها في وادي الطويلة إلى المدينة». كما يستدل على ذلك بما كتبه (إينج) مدير الآثار في عدن في عام ١٩٥٣م «ولا يمكنني مع الأسف، إنكار أن المهندسين البريطانيين أظهروا شيئاً من سوء التقدير. لقد شيّدت هذه الخزانات في الأصل لتلقي ما ينحدر إليها من الهضبة، إضافة إلى مصارف لتوجيه كل قطرة ماء تنزل على صفحة الجبال إليها. وقد أهمل هؤلاء المهندسون

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠.

(٢) الصفا والصفوان في اللغة صخر أملس قوي.

هذه المصارف، بل لعلّهم في حالات ما أخربوها». ثم قال في موضع آخر: «وقد بنوا عدة حواجز للطمي والحجارة على مجرى المياه المنحدرة من الهضبة، وسبّب ذلك احتقان الماء في الهضبة فغاض فيها».

ولهذا لم يعد نزول المطر يملأ هذه الخزانات الضخمة إلا نادراً جدًّا. ويتصور المحيرز أن هدف نظام الطويلة هو مصارف للمياه وليس خزناً لها، بحيث تنزل هذه المياه من الجبال العالية في مصارف محدّدة إلى داخل المدينة حيث الحاجة لها. ويستدل على ذلك بما كتبه الإنجليز أنفسهم وبمصادر التاريخ وملاحظاته الشخصية. وقال إن بليفير (وهو الذي قام باكتشاف بعض هذه الصهاريج وتولى ترميمها وكتب تقارير جيدة عنها كما كتب كتاباً هامًّا عن تاريخ اليمن اسمه تاريخ العربية السعيدة) ذكر في تقريره وجود خمسين صهريجاً للمياه في وسط المدينة وأوديتها، ١٨ منها في الطويلة وحدها. بينما كتب كبير المهندسين إلى كوجلان في ١٩ ديسمبر ١٨٥٦م أن عدد صهاريج الطويلة ٣٥ صهريجاً.

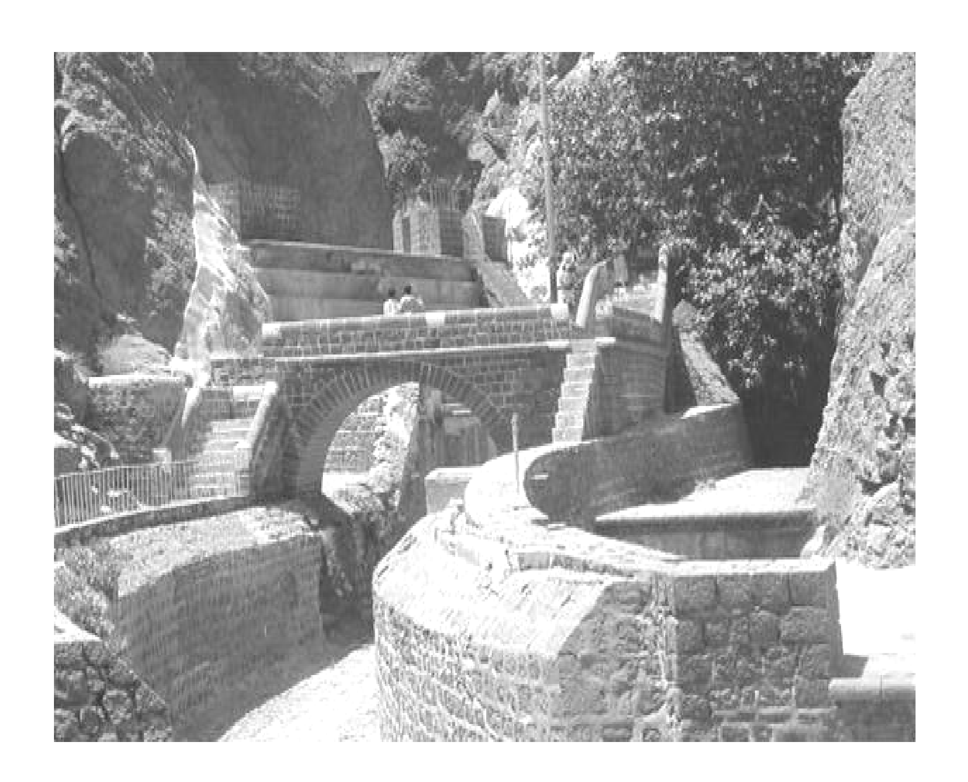
واعتبر المحيرز أن ما قام به المهندسون البريطانيون كارثة لنظام التصريف اليمني الرائع. وتساءل المحيرز: هل يمكن إعادة النظام إلى حالته القديمة قبل أن يعبث بها البريطانيون؟ فقال: لا، وذلك لعدة أسباب، أولها وأهمّها أن مصارف المياه داخل المدينة وصهاريجها قد ردمت منذ أزمنة متطاولة وتمّ بناء المساكن والدور والطرق عليها. وبالتالي فإن إعادة النظام القديم ستعني إغراق المدينة بكاملها كلما جاءت أمطار ولو معتدلة. أما إذا جاءت أمطار قوية فلا شك أنها ستُحدث كارثة كما حدث عام ١٤٩٧هـ / ١٩٦٧م ، وكما حدث عام ٩١٦هـ عندما هطلت أمطار قوية وصفها ابن الديبع بقوله: «وامتلأت الصهاريج كلها حتى تفجّرت وزاد الماء زيادة عظيمة حتى سال إلى البحر من نصف الليل إلى آخر النهار، واشتدّ حتى أشفق الناس وخافوا، وسقطت بعدن

بيوت حجر كثيرة، وسقط بيت على أهله، فهلك منهم تحت الردم خمس نسوة، وعبد، وسال (الوادي) بولد ليوسف البهنسي فلم يوجد له أثر». فإذا كان الأمر كذلك مع وجود السيلة (مجرى مياه الأمطار) فكيف سيكون الأمر مع انسداد هذه السائلات (المجاري) بالمباني. ويحذر المحيرز من ردم هذه السائلات والبناء عليها لأن ذلك سيشكّل خطراً على المدينة وأهلها إذا جاءت أمطار قوية. وطلب أن تمسح هضبة الطويلة وتدرس بهدف إقامة مصارف بحيث تحمي المدينة من أي طوفان مفاجئ منها.

إن هذه الصهاريج قديمة ترجع إلى الحضارة السبئية فهم قد اشتهروا ببناء السدود ومنها سدّ مأرب العظيم... وهناك العديد من الصهاريج في عدن وليست مقتصرة على صهاريج الطويلة. وقد وصف المقدسي (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) الحياض الكبيرة الموجودة في عدن لحفظ المياه. كما وصف ابن المجاور (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) وجود صهريجين للمياه في منطقة الزعفران في عدن. وذكر ابن بطوطة الذي زار عدن حوالى سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م أن بها صهاريج يجتمع فيها ماء المطر.

وذكر ابن الديبع مؤرخ الدولة الطاهرية أن عامر بن عبد الوهاب بنى صهريجاً كبيراً للماء خارج المدينة (أي خارج باب عدن في المباه، كما وصف نزول مطر شديد في عدن عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م تهدّمت منه بعض البيوت في كتابه: «الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد».

وقد اختفت هذه الصهاريج بفعل الزمن وتراكم عليها الطمي والأحجار الكبيرة الهابطة من الجبل وقد أعاد اكتشافها عدد من المهندسين البريطانيين بعد احتلال عدن. على رأسهم المهندس بليفير Playfair وذلك عام ١٨٥٦م (بعد أقل من عشرين عاماً من احتلال عدن بواسطة القبطان هينس).



صهاريج الطويلة في كريتر عدن



موضع وضع جثث الفرس المجوس الزراديشت في منطقة الصهاريج حيث تترك للطيور الجارحة لأكلها، وصهريج القبّة في الطويلة في كريتر- عدن.

ولا شك أن هذه الصهاريج قديمة وقد اشتهر اليمنيون الأقدمون ببناء السدود ومصارف المياه، ومن أشهرها سد مأرب. وحضارة السبئيِّين تمتد إلى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وملكة سبأ التي أشار إليها القرآن الكريم عاصرت سليمان عليه السلام وأسلمت على يديه: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)، وسليمان عليه السلام عاش في القرن العاشر قبل الميلاد (٩٦١- ٩٢٢ قبل الميلاد). وفي مناطق كثيرة في اليمن هناك نظام هندسي رائع لحجز المياه وتصريفها. ولا شك أن صهاريج عدن جزء من هذا النظام الهندسي اليمني الرائع.

وقد ذكر **المقدسي** في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٨٥ عن عدن: «ولهم آبار مالحة وحياض عدة» وهو ما يؤكد وجود أحواض لخزن الماء في القرن الرابع الهجري[(١)] / العاشر الميلادي.

ويصف **ابن المجاور** موارد المياه في عدن ويصف صهريجين شاهدهما أثناء زيارته لعدن في بداية الدولة الرسولية وقال إنهما في حافة الزعفران. وقال عنه المحيرز إنه كان موجوداً في الزعفران وردم بعد الحرب العالمية الثانية ويقع في أرض فضاء في آخر شارع الزعفران الحالي. وقال ابن المجاور أن الفرس هم الذين بنوه وهو يقصد الملك الفارسي المسلم السني الذي كان يحكم جزيرة قيس وهرمز والذي احتلّ عدن وأقام فيها عدة منشآت. وأما البئر الآخر فيقع على طريق الزعفران أيمن الدرب في لحف الجبل الأحمر، إذا حصل المطر انقلب إليه السيل يومين[(٢)]. وقد بناه الزريعيون حكام عدن.

ووصف **ابن المجاور** الآبار العذبة وخصّ بئر الزعفران بالذكر بأنه يرجع مثل النبيذ (أي ما ينتبذ من العنب أو التمر قبل أن يتخمر) في الحلاوة. وذكر أن الملك

---

(١) عبد الله محيرز: صهاريج عدن، ص ١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥.

إسماعيل بن طغتكين الأيوبي شرب عند أحد ولاته (المعتمد محمد بن علي التكريتي) فأعجبه ذلك الماء لعذوبته، فقال له: من أين ذلك الماء؟ قال: من ماء الزعفران (أي بئر الزعفران في عدن)، وأنها إذا تركت في الشمس تحولت إلى نبيذ[1].

وقال **نقلاً عن الإسحاقي الداعي أن بداخل عدن مائة وثمانون بئراً** حلوة، لكنها مائعة؟ وذكر بعد ذلك الآبار المالحة ثم الآبار الحلوة خارج عدن مباشرة (ظاهر عدن).

قال **ابن المجاور**[2]: «وغالب سكان البلد عرب مجمّعة من الإسكندرية ومصر (أي القاهرة) والريف (أي ريف عدن من لحج وأبْين وغيرها) والعجم والفرس (المفروض أنهم شيء واحد وهم من الفرس المسلمين سكان هرمز وما حولها، وقد استولى على عدن حاكم هرمز، وجزيرة قيس)، وحضارم، ومقادشة (من مقديشو في الصومال)، وجبالية (من الحجرية تعز وما حولها)، وأهل ذُبحان (هل هم أهل بيحان؟)، وزيالع (من مدينة زيلع في الصومال)، ورباب؟، وحبوش (من الحبشة). وقد التأم إليها من كل بقعة ومن كل أرض وتموّلوا (أي صاروا أصحاب أموال) وأصحاب خير ونعم... وغالب أهلها حبوش وبرابر (أي من سكان بربرة في الصومال). ولم يكن من سائر الربع المسكون والبحر المعمور أعجبُ من نساء البرابر ولا أوقح منهن.. والله أعلم».

وقد زار ابن بطوطة عدن حوالى سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م وذكر أن بها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر (تحفة النظار ص ١٦٨).

وقد بنى الظافر عامر بن عبد الوهاب صهريجاً كبيراً للماء خارج المدينة

---

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، مصدر سابق، ١٩٥١م، ص ١٣١، والمصدر السابق ص ١٣٢. وكانت زيارة ابن المجاور لعدن في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

(٢) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ١٣٤.

(أي خارج باب عدن) عند المباه حتى اعتبر من مآثره. قال **ابن الديبع يعدّد** مآثره: «مسجد عظيم بداخل مدينة عدن، وآخر بالمباه بظاهر باب البرّ (باب عدن) منها، وصهريج عظيم بها لم يسبق إلى مثله». ووصف ابن الديبع نزول مطر شديد في عدن عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م[١].

وقد وصف رحالة برتغالي هو دورات باربوزا (معاصر لابن الديبع) موقع هذا الصهريج خارج باب عدن، وأن الماء يجلب إلى عدن من هذا الصهريج الضخم عبر الجمال يوميًّا[٢]. وكتب برتغالي آخر يدعى رسنديس أنه كان بالمدينة عام ١٥٣٠م عدة صهاريج للماء وواحد خارجها، وأنه يجلب إلى المدينة ما بين ألف وخمسمائة وألفي جمل محمّلة بالماء يوميًّا. وتدخل هذه الجمال المدينة بالماء في النهار، ولكن في الليل تصب في صهريج قريب من بيت الماء تحت بابها، إذ لا تفتح المدينة في الليل على الإطلاق[٣].

ووصف أحد الذين رافقوا سليمان باشا الأرناؤوطي في حملته على عدن، صهاريج عدن، قال: وماؤها كله من الأمطار، يحفظ في حفر، وصهاريج يبلغ عمقها مائة قامة[٤]!!

ثم اندثرت هذه الصهاريج حتى عثر عليها بليفير وكوجلان بعد احتلال بريطانيا لعدن في القرن التاسع عشر الميلادي وبالذات سنة ١٨٥٦م.

وتقع صهاريج الطويلة في الجهة الشمالية الغربية لمدينة عدن كريتر، في أسفل مصبّات هضبة عدن المرتفعة حوالى ٨٠٠ قدم. وتأخذ الهضبة شكلاً شبه دائري. ويقع المصب عند رأس وادي الطويلة.. وتتصل الصهاريج بعضها

---

(١) ابن الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، ص ٢٣٢ و٢٩٠.
(٢) المحيرز: صهاريج عدن، ص ١٦.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦، ١٧.
(٤) المصدر السابق.

ببعض بشكل سلسلة، وهي مشيّدة في مضيق يبلغ طوله ٧٥٠ قدماً تقريباً. ويحيط بها جبل شمسان بشكل دائري باستثناء منفذ يتصل بمدينة كريتر.

وتقوم الصهاريج بحجز المياه المنحدرة من الهضبة من خلال شبكات المصارف والسدود والقنوات التي استحدثت بهدف تنقية المياه من الشوائب والأحجار.

وآخر من وصفها من الرحالة هو أمين الريحاني الرحالة والأديب اللبناني التي قال عنها: «وهذه الخزانات من أجمل الأعمال الهندسية في العالم».

وتبلغ السعة الإجمالية للصهاريج حوالى ٢٠ مليون جالون. وأكبر الصهاريج سعة هو صهريج بليفير الدائري الذي يتسع لحوالى أربعة ملايين جالون. وأصغرها سعته حوالى عشرة آلاف جالون، ويقع بالقرب من سائلة وادي العيدروس.

وقد تم ترميم أربعة عشر صهريجاً، وهناك ستة وثلاثون صهريجاً لم ترمّم، وبعضها صار مخرّباً. ناهيك عن الصهاريج المطمورة والتي لم يتم اكتشافها. وهناك مجموعة من الصهاريج في الخساف مطمورة، كما أن في الزعفران صهاريج مطمورة.

وتصب صهاريج الطويلة بطريق متدرجة من أعلاها في لحف الجبل إلى وسطها صهريج كوجلان المربع والذي يملأ الفراغ بين جبلين في كل واحد منهما صهريج وهما صهريج أبي قبة (لوجود قبة مبنية عليه منذ زمن العثمانيين) وصهريج أبي سلسلة. وتصب الصهاريج جميعها في صهريج بليفير خارج حديقة الطويلة، وهو أكبر الصهاريج كما أسلفنا (سعته أربعة ملايين جالون).

وقد أقامت حكومة عدن أيام الاستعمار حديقة الطويلة حول الصهاريج، وهي معلم سياحي ومتنفس لأهل عدن كريتر، كما أن بها متحف أقامته بريطانيا عام ١٩٣٠م. وهو اليوم مركز للوثائق والصور التاريخية بمدينة عدن.

وأقامت بريطانيا عام ١٨٦٣م سدًّا لحجز المياه الساقطة من جبل شمسان (العرّ) على أساس أنه سيكون بحيرة، وتنقل المياه عبر قناة إلى جبل المنصوري إلى خزانات في جبل حديد. وعمل سدّ آخر أيضاً في الخساف. وانتهى العمل فيهما سنة ١٨٧٧م.

وأُقيمت سدود ستة على وادي الطويلة لتنظيم المياه المندفعة إلى الصهاريج، كما أُقيم سدّ بستان الفرس من ناحية شرق الطويلة لنفس الغرض. ولكن مياه الأمطار قلت بسبب الحواجز التي وضعها الإنجليز على هضبة الطويلة، فغارت المياه في الهضبة عند نزول الأمطار. ولم يعد لهذه السدود فائدة فاندثرت.

صيرة وميناء عدن القديم

صيرة: يرتبط تاريخ عدن بصيرة. وقد أورد الطيب بامخرمة في كتابه «تاريخ ثغر عدن» أن قابيل لما قتل أخاه هابيل هرب من أبيه (الذي أُهبط إلى الهند وقيل سرنديب = سيلان = سيرلانكا) ووصل إلى جزيرة صيرة، وأقام بها. وأن الشيطان تبدّى له ومعه شيء من آلات اللهو فاستخدمها.

كما قال بامخرمة أيضاً أن بداية خروج النار من قعر عدن التي جاء ذكرها في الأحاديث النبوية (وسنتعرّض لها في فصل خاص) تبدأ من صيرة. ولا شك أن صيرة جزيرة بركانية تابعة لبركان عدن. وقد أورد بامخرمة وغيره أن شخصاً دلّى حبلاً في بئر في صيرة فخرج الحبل محترقاً.. (وهي رواية تدل على إدراكهم أن ما تحت ظاهر جبل صيرة بركان خامد ولا تزال به نار). وقد ذكر المعاصرون ومنهم الأستاذ عبد الله محيرز أن هذه كلها من الأساطير. ونحن نعتقد أن لها شيء من الصحة، ولا شك أن عدن، ومنها صيرة، كلها بركان خامد وأنه سيثور يوماً ما في آخر الزمان، وهو من آخر علامات قيام الساعة.

ولفظ صيرة عند أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي وضعه سنة ٣٧٥هـ يرجع إلى صيرة الغنم. بل شبّه عدن كلها بصيرة الغنم إذ البحر يحيط بالجبل (العُرّ = شمسان) من معظم جهاته، ثم ينتهي إلى ساحل صيرة وأمامه جزيرة صيرة. وتتصل عدن بلسان من البرّ هو البرزخ (خورمكسر) ولها باب البرّ (باب عدن = باب العقبة) شُقَّ في الجبل عجيب، وجعل عليه باب حديد ومدّوا من نحو البحر حائطاً من

الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب».

وكانت ميناء عدن على مدى القرون هي ساحل صيرة، وذلك منذ أيام الحضارة السبائية، ثم الأوسانية، ثم أيام اليونان والرومان الذين حاولوا احتلالها ففشلوا، وبقيت مركز التجارة الدولي بين الهند والصين ومالقا (ماليزيا وأندونيسيا) وبين مصر وأوربا (اليونان والرومان) وإفريقيا الشرقية (الحبشة وإريتريا والصومال ممتدة إلى جزيرة القمر الكبيرة وهي مدغشقر وكل ساحل إفريقيا الشرقي). وسكن في عدن التجار من كل جنس ولون ودين، وتعايشوا بشكل مذهل حيث كان فيها الوثنيون واليهود والنصارى والمجوس والهندوس، ولكن أكثر سكانها في معظم الأوقات كانوا من اليمن، وإن كان فيها هنود وصومال وصينيون وفرس وأحباش ومصريون ويونان... إلخ.

وصيرة (أو صير) في اللغة هي الجبل. وقد رُوي عن الإمام عليّ قوله: «لو كان عليك ديْن مثل صير (أي جبل) لأدّاه الله عنك».

وكان البحر عميقاً في ساحل صيرة، وقد أصبح ضَحْلاً منذ القرن التاسع عشر الميلادي عندما غزا القبطان هينس عدن (عام ١٨٣٩م). ويفصل ما بين صيرة (الجبل) وحقات (الخليج) وجبل المنظر (آخر جبل شمسان ناحية البحر) بحر قوي الموج يسمى معجلين... ولا يزال هذا البحر يتدفق على صيرة. ويخشاه أبناء عدن وخاصة في موسم الرياح، فإن السباحة فيه قاتلة، وكم من شباب عدن غرقوا في لجحه ودوّاماته. كما أن فيه كثيراً من أسماك القرش الكبيرة المفترسة، والتي تهاجم من يسبح في مياهه.

وقد كان في عدن تجار يهود (من يهود اليمن)، وكانوا يعملون بالتجارة والربا (طبيعتهم على مدى الأزمان والقرون المتطاولة).. وكانوا يتبادلون التجارة مع يهود مصر. وفي الجنيزة في القاهرة (وهي معبد يهودي قديم تجمع فيه كل مراسلات اليهود في مصر وما يرد إليها) رسائل من عدن تذكر صيرة بالاسم في رسالة من تاجر عدني يهودي إلى زميله اليهودي المصري وذلك سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م.



جبل صيرة التاريخي وعلى قمته القلعة التاريخية التي ساهمت في حماية الميناء من المعتدين.

وقد جدّدها الأتراك، ووضعوا العديد من المدافع فيها لحراسة الميناء.

وكان الهجوم على عدن في معظم الأحيان من ناحية البحر، ومن ذلك هجوم ملك جزيرة قيس (وهي جزيرة في مدخل الخليج العربي = الفارسي ويحكمها ملك سيراف) على عدن واحتلاله لها عن طريق صيرة. وكذلك فعل البرتغاليون في محاولاتهم المتعددة (١٥١٣- ١٥١٦م) ثم المماليك في مصر ١٥١٧م ثم العثمانيون ١٥٣٨م ثم القبطان هينس عام ١٨٣٩م.

لهذا كله كانت التحصينات قوية ممتدة على جبل شمسان وعلى ساحل صيرة وعلى جبل صيرة، وكانت الأسوار متعددة.

وقد أقام أهل عدن، في العهود الإسلامية منذ أيام بني زياد ثم الحسين بن سلامة ثم الصليحيين ثم الزريعيين ثم الأيوبيين وخاصة في عهد واليها الزنجيلي العديد من الأسوار والتحصينات، وعملوا على توسيع الميناء المرسى المحمي من الرياح والأمواج، والرصيف الذي تفرغ فيه البضائع ويتم تعشيرها ووضع الضرائب عليها، ثم المخازن والقيساريات في نظام دقيق وبديع.

واتخذ الأقدمون حاجزين من الحجر لتحطيم الأمواج عند اندفاعها إليه من جانبيه: من رأس شرشرة في نهاية جبل المنصوري، في أول منعطف له في اتجاه ساحل أبْين، ومن رأس جبل صيرة نفسه ضد الأمواج القادمة من حقات ومعجلين وخليج عدن. وقد شاهد ولستد البريطاني هذا الحاجز عند زيارته لعدن

عام ١٨٣٥م (قبل احتلال عدن ببضع سنوات). وأما الذي عند رأس شرشرة إلى نهاية جبل المنصوري فقد بقي – كما يقول الأستاذ محيرز في كتابه (صيرة) – إلى بداية القرن العشرين، عندما أُزيل لفتح الطريق البحري Marine Road.

النظام الإداري والملاحي في ميناء عدن (صيرة)

يقول ابن المجاور إن عدد السفن التي ترسو تحت جبل صيرة يفوق السبعين سفينة في كل عام (أيام الأيوبيين وبالذات حاكمها الزنجيلي). كما قام الأيوبيون بحماية السفن التجارية من القراصنة في البحر، وهم كثر، وذلك ببناء سفن حربية كانت تسمى الشواني. ثم بطلت الحاجة لها، ولكن الضريبة المفروضة من أجل هذه الحراسة استمرت في زمن الأيوبيين.

وكان أهل عدن قد وضعوا نظاماً لاستقبال السفن القادمة: وكان هناك شخص حاد البصر يُدعى الناظور يرقب البحر من جبل المنصوري (الجبل الأخضر)، فإذا رأى سفينة قادمة نادى هيريا هيريا، ويكافأ بدينار لكل سفينة ينادي على دخولها. ويتم إعلام المدينة ومشايخ الفرضة بالخبر، فإذا قرب المركب سار إليه المباشرون بالسنابيق (القوارب الصغيرة) لمقابلته في عرض البحر، فإذا وصلوا إلى السفينة صعد المباشرون لاستجواب الناخوذة (قبطان السفينة) من أين وصل وممن بضائعه ومن معه من التجار والمسافرين؟ ويتم كتابة أسمائهم. ويسألهم الناخوذة عن البلد وأخبارها وعن الوالي وعن البضائع وأسعارها. ويكتب الكراني (الكاتب) ما في جوف السفينة من البضائع. ثم يعود المباشرون إلى المسؤول عن الميناء، أو نائب الوالي، ويقدمون له تلك المعلومات، ويبشرون أهل المدينة بمن وصل من أقاربهم أو معارفهم.

وإذا وصل النواخيذ من البحر تقدّم بهم عرفاء الساحل إلى الوالي أولاً ثم بعد ذلك إلى الناظر ويكتبوا قوائم الموجودات في السفينة (وهو ما يسمى ستمي)، وذلك لأخذ الضرائب عليها. وكانت المواد الغذائية معفاة تماماً من الضرائب،

وأما المواد الأخرى فتختلف الضرائب، على حسب أهميتها والطلب عليها.

وإذا وصلت الأغنام من البحر يتم إدخالها إلى الزريبة التي تحت الفرضة، ويتم إخراج نصيب الديوان (أي الوالي وحاشيته) منها، وتصدّر الأخرى ويتم بيعها أولاً بأول.

وإذا وصل الرقيق من البحر، تقدّم بهم عرفاء الساحل إلى الوالي أولاً ثم بعد ذلك إلى الناظر الذي يختار منهم ما يصلح للديوان.

ولا تفتح الفرضة إلا بحضرة الوالي والناظر والكتاب أو نوّابهم. وإذا جاؤوا إلى الفرضة كان أمر ما يدخل إليها وما يخرج منها إلى الناظر. وعلى الوالي الحفظ والبحث من وقت الوزن والعدّ. ويضبط الفتش (أي المفتشين)، وعليه الإشراف على حفظ الأبواب، وملازمة الفرضة أيام الموسم. والكتّاب جميعهم يلازمون على الحضور، ويتم تقويم القماش والبضائع وعشورها، وتفسح البضائع بعد دفع الضرائب وتسجيل ذلك كله في دفاتر معدّة لذلك. وتعطى للتاجر صك باستلام العشور منه وتسمى هذه «الفسوحات»، ويجب أن تكون بخط الناظر ثم يكتب الوالي بعده ويتم ختمها بالختم الرسمي.

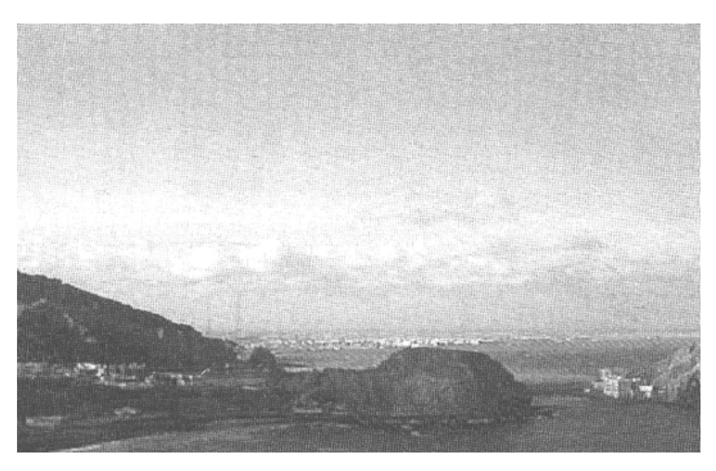
وتبقى مفاتيح الفرضة والأبواب عند الوالي في بيته. ويذهب البوابون لأخذ المفاتيح كل صباح، ثم يعيدون المفاتيح إلى بيت الوالي في المساء بعد أن يتم قفل جميع الأبواب للحفاظ على البضائع، ويكون ختم الفرضة عند الناظر الذي يختم الفسوحات.

وعند استهلال الشهر يقعد الوالي والناظر والكتّاب على دكّة طويلة، ويستعرضون الأجناد والمرتبين في الديوان وأرباب الصناعات وما يجري مجراهم، ويكتبون بذلك عرائض، ويضع الوالي والكتّاب خطوطهم (تعليقاتهم وإمضاءاتهم).

ويتم رفع الحساب من سائر جهات الثغر (أي ثغر عدن) من الفرضة (الباب البحري) ومن باب البرّ (العقبة) بعد جمع أموال الضرائب

والمحصولات إلى الخزانة (أي خزانة الدولة). وهذه الأموال كلها ترفع عن طريق الناظر بعد ضبطها وتسجيلها في سجلات خاصة، ويشرف عليها الوالي بنفسه.. ولهذا فإن سلطات الناظر والوالي هي السلطات العليا في الإشراف على الميناء وأخذ الضرائب واستيفاء ما للدولة من أموال وما يجب عليها من مصاريف لموظفي الفرضة والكتاب والبوابين والحراس.. إلخ. والمحافظة على الفرضة وإجراء ما يجب من إصلاحات. ولا يتصرف صاحب الصناعة إلا بخط الناظر على ذلك. وفي كل هذه الأمور لا يكتفى أبداً بالأوامر الشفهية، بل يجب أن تسجل وتكتب حتى تعتمد، وبالتالي يمكن مراجعتها في أي وقت.

واستمر هذا النظام مع تعديلات منذ أيام الزريعيين ثم الأيوبيين ثم الرسوليين ثم في العهد العثماني الذي بدأت فيه أعمال ميناء عدن تتدهور بسبب اهتمام العثمانيين بميناء المخا الذي كان قريباً من مزارع البن التي غزت أوربا بل وأمريكا. وكانت السفن الأوربية بل والأمريكية تأتي إلى المخا لأخذ البن المشهور منها، حتى عرف البن في أوربا باسم مخا Mokha، ولا تزال إلى اليوم كثير من المقاهي تسمي نفسها مخا في إيطاليا وفرنسا واليونان وكثير من مدن أوربا وتركيا. بل إن نوعاً من القهوة لا يزال يعرف باسم مخا Mokha إلى اليوم.



خليج حقات وجزء من جبل المنظر، وجزء من جزيرة صيرة، وما بينهما معجلين حيث تكثر الأمواج ويغزر الماء، وخاصة في موسم الرياح وتبدو في الأفق خورمكسر.

معالم مدينة عدن كريتر الدينية

بعض مساجد عدن التاريخية وأعلامها

- منارة كريتر (مسجد عدن).
- مسجد أبان بن عثمان بن عفان.
- مسجد الشيخ جوهر.
- الإمام العيدروس ومسجده وتلاميذه ودوره التاريخي.
- مسجد الذهيبي (البصال) والمدرسة الياقوتية.
- مساجد آل العراقي.
- مسجد العسقلاني والشيخ محمد البيحاني.
- مساجد للشيعة في عدن.

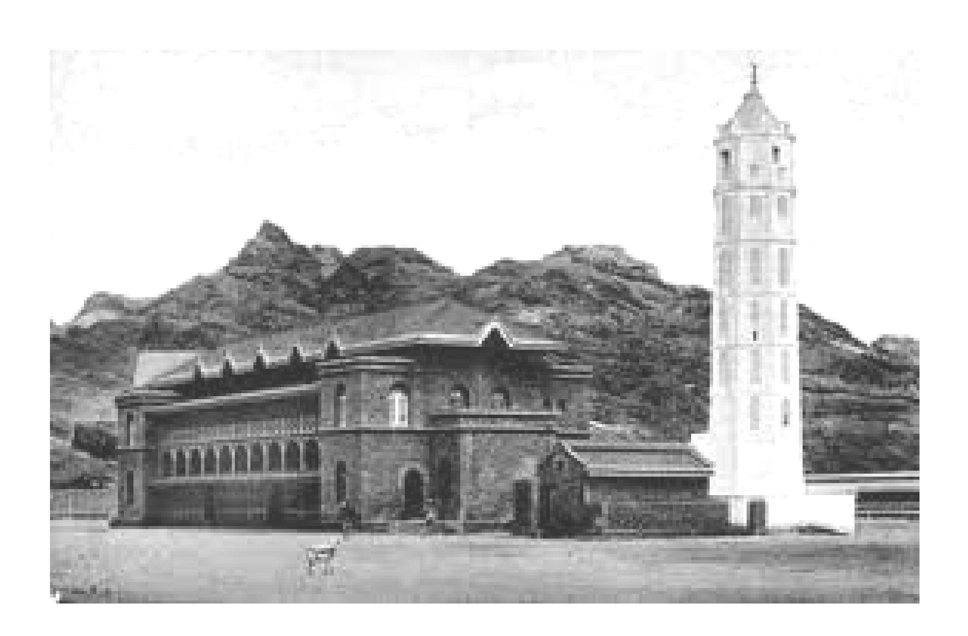
معالم (مساجد) عدن وأعلامها

منارة عدن

هذه المنارة التاريخية هي كل ما تبقّى من أول مسجد بُني في عدن في عهد الرسول محمد ﷺ. قال الطيب بامخرمة في كتابه «تاريخ ثغر عدن»: «بُني جامع عدن في طرف البلد.. ويقول الحافظ ابن الديبع في كتابه «تحفة الزمن» بأن الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ، دخل عدن في أيام الرسول سيدنا محمد ﷺ، وخطب على منبرها وذلك في منتصف السنة العاشرة للهجرة، وتوجه من اليمن ليلحق بالنبيّ ﷺ في حجّة الوداع وساق الهدي. فكان القارن الوحيد من الصحابة مع النبيّ ﷺ.. وكان أول من بنى الجامع أبو موسى الأشعري ثم معاذ ابن جبل رضي الله عنهما.

ودخل هذا الجامع عدد من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري الذي ولّاه الرسول التهائم، وولّاه أبو بكر ﷺ بالإضافة إليه عدن. وكانت عدن تابعة للجند التي كانت تحت ولاية معاذ بن جبل ﷺ. ولا بدّ أنه دخلها أيضاً لأنها كانت تحت ولايته.

ثم أُعيد بناء هذا الجامع وتمّت توسعته في الفترة ما بين عامي ٨٦- ٩٢هـ/ ٧٠٠- ٧١١م، حيث تمّ بناؤه في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله. وذكر السيد عبد القادر بن عبد الله المحضار في كتابه «التذكير بأخبار العباد والبلاد»: أن أهل عدن وجدوا بساحله قطعة كبيرة من العنبر فاختلفوا فيه، فبعثوا إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فأمرهم ببناء الجامع.



منارة عدن وبقربها محكمة عدن. صورة من أواخر القرن التاسع عشر الميلادي

وقد أورد ابن المجاور هذه القصة إلا أنه قال إنها حدثت في زمن الفرس المسلمين حكام قيس (كيش) وسيراف في الخليج العربي (الفارسي) والذين استولوا على عدن في القرن الثالث الهجري. واتفق العلماء آنذاك على أن يجعلوها في المسجد الجامع فبنوه. ثم جدّد بناءه الأمير حسين بن سلامة المتوفى ٤٢٦هـ من موالي آل زياد، وكان في الأصل عبداً حبشيًّا، وحسنت سيرته وكان على درجة من العلم والصلاح، ووسّع المسجد من جهة الغرب وصنع له منبراً. وقد اتفق المؤرخون على ذلك (المقدسي، ابن المجاور، الطيب بامخرمة وغيرهم). وقال عمارة اليمني في كتابه «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» أن الأمير حسين جدّد جامع عدن ووسّعه. وقال الجندي والأهدل أن الأمير حسين زاد في الجامع جناحين من جهة الغرب[1].

(١) د. أحمد صالح رابضة: معالم عدن التاريخية، مركز الدراسات اليمني والمركز الفرنسي للدراسات اليمنية- صنعاء، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥١.

ثم جاء من بعده الأمير عمران بن محمد بن سبأ الزريعي المتوفى بعده سنة ٥٦٠هـ وجدّد بناء المسجد ونصب منبراً جديداً وكتب اسمه على المنبر[١]. وقام المجاهد علي بن داود الرسولي بإصلاح هذا المنبر وتجديده.

ثم جدّد بناء الجامع السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري المعاصر للإمام أبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني وصديقه، في أواخر القرن التاسع الهجري[٢].

وقد تولى الخطابة فيه العديد من علماء وخطباء عدن، منهم القاضي علي بن أحمد بن عبد الله القريظي، ذكره صاحب «طبقات الخواص» وقال عنه: «وكان شيخاً كبير القدر مشهوراً بالصلاح وقبره بمقبرة مدينة عدن. وهو من رجال القرن الثامن الهجري[٣]. ومنهم الفقيه أبو بكر بن إسحاق المشهور بابن المستأذن وفاته سنة ٨١٥هـ. وخطب بعده ابنه عبد الرحمٰن[٤]، ثم تولى الخطابة الفقيه أحمد بن عمر بن خالد الأصبحي، ثم ناب عنه ابنه في حال مرضه وكبر سنِّه. ثم تولى الخطابة الفقيه عبد الرحمن بن أبي بكر بن يوسف إلى وفاته سنة ٨٣٩هـ. ومنهم العلامة المحدث والولي المشهور الحسين بن الصديق الأهدل وله مسجد في حافة حسين وعرفت الحافة باسمه، وكان يدرّس ويخطب في المسجد الجامع ثم في منزله وفي مسجده[٥].

(١) عبد القادر بن عبد الله المحضار: «التذكير بأخبار العباد والبلاد» مرقوم بالآلة الكاتبة، ص ١٥، ١٦.

(٢) المصدر السابق، وحمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ٢٤١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ثابت سالم العزب ومعروف عقبة: منارة عدن التاريخية: ندوة عدن ٢٠١١م، ص٤٩ – ٦٦.

(٥) كل ما ذكر عن خطباء مسجد عدن الجامع منقول من كتاب السيد عبد القادر المحضار: التذكير بأخبار العباد والبلاد ص ١٥ – ١٨.

وتولى الخطابة في جامع عدن الفقيه صالح بن صدّيق الأنصاري الخزرجي إلى أن غادر عدن سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، والتحق بالإمام المتوكل، وكانت وفاته في جبلة سنة ٩٧٥/ ١٥٦٧م[1].

ومنهم القاضي الفقيه عمر بن أحمد بن عبد الرحمن باشيخ الدوعني الحضرمي. وهكذا ظل هذا الجامع منارة للعلم والدين منذ العهد النبوي إلى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي عندما احتل عدن القبطان هينس الذي ضرب المسجد بالمدافع فهدّمه. ثم سمح لجنوده من الهنود السيخ والإنجليز بالسكن فيه وتلويثه. وتمّ تهديمه تهديماً تامًّا منذ ذلك العهد (أي عام ١٨٣٩م). وقد ذكر ولستد في مذكراته تلويث الجنود له. وقد سكن في منارة المسجد العديد من الضباط والمستشرقين الإنجليز لفترة محدودة منهم الباحث والضابط المعروف ولستد الذي زار عدن قبل الهجوم عليها ١٨٣٥، ثم استقرّ بها فترة بعد الاستيلاء عليها.

كما أن رامبو الأديب والشاعر الفرنسي سكن في البيت المواجه للمنارة وصعد المنارة إلى قمّتها، ولعله بقي فيها يوماً أو بعض يوم.

وقد أخبرني الدكتور فودري (وهو طبيب ومبشّر نصراني إنجليكاني، وأصحاب عدن يسمون المبشر المغوي الذي يغوي الناس عن دينهم) أنه صعد المنارة وبقي في الدور العلوي بها أياماً، وسجّل أذان الفجر من مسجد العيدروس بصوت المؤذن عبده عجينة الشجي، وأسمعني إياها عندما زرته في إنجلترا في بيته عام ١٩٧٠م، وكان التسجيل للترخيم والقرآن والدعاء قبل الأذان ثم الأذان.

---

(١) كما ينقله عنه المحيرز في كتابه «صيرة» وكتاب ولستيد بالعنوان التالي:

J.R. Wellested:
Travels to the city of caliphs along the shores of the Persian Gulf of the Mediterranean including a voyage to the coast of Arabia and a Tour of the Island of Socotra, 2 vols, London, 1940, pp 387 .

وفي بحث حديث قدمه ثابت سالم العزب ومعروف عقبة بعنوانه: منارة عدن التاريخية، في الندوة العلمية: عدن بوابة اليمن الحضارية تأكيد على أن منارة عدن هي لمسجد قديم وليست فناراً للسفن كما زعم بعض الباحثين. وهي منارة لجامع واسع الأرجاء من أضخم جوامع المدينة، كان يمتد على مساحات شاسعة تصل بين ميدان الحبيشي (ميدان كرة القدم ثم صار ميدان الكرة الطائرة) إلى ساحة البنوك (ويؤكد ذلك أيضاً د. أحمد صالح رابضة في بحثه: ومضات من تاريخ عدن.

ويقول عالم الآثار السوفيتي شيرنسكي أن المنارة شيدت في القرن الثامن الميلادي (الأول الهجري)، لكن قاعدتها المضلعة ربما كانت قائمة على أثر قديم لعله يعود إلى ما قبل الإسلام (نقلاً عن أحمد رابضة: ومضات من تاريخ عدن) وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله (نهاية القرن الهجري الأول وأواخر القرن السابع الميلادي).

ويقول ثابت العزب ومعروف عقبة: «تعدّ المنارة من أهم معالم عدن التاريخية في المجال المعماري، إذ تحمل دلالة روحية كبيرة بوصفها الأثر المتبقّي لجامع كبير في مدينة عدن، إذ كانت أروقته وأجنحته تمتد من البنك الأهلي (الغرفة التجارية لاحقاً) وحتى ميدان الحبيشي. ففي أثناء الحفريات في مواقع الميدان عُثر على أربعة تيجان أعمدة، ذات نمط إسلامي، وتنتشر حوله قطع من الآجر المحروق الموجود في جسم المنارة...

«ومن نتائج تقرير التربة لمختبر الأشغال في عدن عام ١٩٩٩م... أن التربة قد احتوت على مواد كربوناتية، وبها نسبة شظايا الأصداف والفحم والفخار المكسر» ويشير بعض المؤرخين اليمنيين إلى جامع في عدن، كان واسع الأرجاء.. وقد ذكره المقدسي البشاري المتوفى سنة ٣٨٠هـ والذي زار عدن

ووصف ما فيها في كتابه أحسن التقاسيم.

وتوضح الرسومات البرتغالية لمدينة عدن عام ١٥١٢م ثلاثة مساجد، أحدها جامع المنارة. ويقول هارولد ف. يعقوب (Jacob) إن المسجد كان قائماً على حافة البحر عند احتلال القبطان هينس لعدن. وذكر الكابتن هنتر في كتابه (تقرير عن مستعمرة عدن) عام ١٨٧٧م أن المنارة القائمة بقرب دار المحكمة والخزانة هي الأثر الوحيد الباقي من مسجد كبير متهدّم. وذكر كتاب هارولد جيكب (Harold Jacob)، الذي كان والياً على عدن، في كتابه (ملوك العرب) أن أحد سكان عدن القدماء أكّد له وجود مسجد ضخم في عدن وقت احتلال الإنجليز لعدن. وكان في مواجهة البحر... ثم رُدمت تلك البقعة الساحلية وبُنيت فوقها المعسكرات البريطانية.

وذكر المؤرخ أبو الفداء أنه كان يوجد جامع كبير بناه الخليفة عمر بن عبدالعزيز على ساحل البحر في عدن.. ويذكر الباحث حسن صالح شهاب وجود قطع كثيرة من الآجر التي كان تستعمل في البناء في اليمن حوالى المنارة وإلى مسافة منها. والآجر هو الطوب الطيني المحروق الذي كان يُستخدم في البناء. كما يقول الأستاذ حمزة لقمان في كتابه عدن وجنوب الجزيرة بوجود مشاهد لبعض القبور بالقرب من المنارة. ومن المعتاد في عدن وجود المقابر بالقرب من المساجد. ولا تزال مساجد عدن إلى اليوم تجد بالقرب منها مقابر ومن ذلك مقابر مسجد العيدروس ومسجد حسين الأهدل، ومسجد العراقي، ومسجد الشيخ عبد الله (العمودي) إلخ.

والمنارة كما يقول الباحثان العزب وعقبة مسنودة على قاعدة مربعة مكونة من أساس حجري ذات أبعاد **٦,٧٥ × ٦,٧٥** وبارتفاع **١,٥٠**، وتعلوها قبّة بيضاوية الشكل بقطر يصل إلى ثلاثة أمتار ويصل ارتفاعها إلى **٣,٢٠** متراً والمنارة مضلّعة متخذة شكلاً مخروطيًّا، ومقسّمة ببروزات عرضية إلى ستة

طوابق تتراوح ارتفاعاتها إلى **٢,٥٠** متراً ما عدا السفلى التي يصل ارتفاعها إلى **٤,٨٠** متراً. وللمنارة ثمانية أوجه، وتفصل بينها حروف رأسية، ولها سُلَّم حلزوني مكون من ٨٦ ارتفاعاً، بعرض **٠,٨٥** متراً وهو مكوّن من ألواح الخشب المنفصل الملبّس بمونة البناء القائم إلى موضع الأذان. وهناك تسع نوافذ لهذا السلم. ويصل ارتفاع المنارة إلى **٢١,٣** متراً ويصل ارتفاع جسم المنارة من فوق القاعدة إلى ١٦متراً.

وتقع المنارة حاليًّا في طرف حديقة صغيرة مغلقة بجوار مبنى البريد العام بكريتر- عدن من الجهة الشمالية الغربية، وموقع البنك اليمني للإنشاء والتعمير وميدان الحبيشي لكرة القدم من الجهة الجنوبية الشرقية. وتواجه المنارة شارع الملكة أروى الممتد إلى ساحة البنوك ومنه إلى مركز الشرطة المسلّحة (الليوي) ومسجد أبان.

ورغم تاريخ المنارة المجيد، إلا أنّ كثيراً ممن كتب عنها وصف تاريخها بالغموض. وشكّك الأستاذ عبد الله محيرز في كتابه «صيرة»: «بأن هذه المنارة تتبع مسجد عدن الجامع التاريخي». وقال: «ربما كانت فناراً لقربها من البحر، ولأن البحر كان يصل إلى قريب منها ثم انحسر، كما يحدث في كثير من البلدان الساحلية، وبفعل البناء الكثيف وردم البحر».

وقد أفرد الدكتور أحمد صالح رابضة عدة صفحات لمنارة عدن في كتابه القيّم «معالم عدن التاريخية»[1]، وقال: وبالجملة فقد أكّدت معظم الدلائل التي سوف نبسطها بعد قليل أن هذه المنارة هي الأثر الوحيد لجامع كبير كان قائماً في هذا الموضع، وقد تهدّم بفعل القدم، وبفعل الظواهر الطبيعية المختلفة التي

(١) الدكتور أحمد صالح الرابضة: معالم عدن التاريخية، مصدر سابق، ص ٤٦- ٥٣.

طرأت عليه»[(١)]. وذكر الكابتن هنتر (الضابط السياسي لعدن) أن المنارة القائمة بقرب دار المحكمة والخزينة هي الأثر الوحيد الباقي من مسجد كبير متهدم (١٨٧٧م) وأكّد حاكم عدن هارولد جيكب أن المسجد كان موجوداً إلى وقت الاحتلال البريطاني ثم تهدّم ولم يبقَ منه إلا المنارة»[(٢)].

موقع الجامع والمنارة

تقع المنارة بالقرب من الخليج الأمامي، وقد بُني بجانبها مكتب البريد العام لعدن، وبالقرب منها المكتبة العامة (التي كانت تُدعى مكتبة ليك ثم دُعيت مكتبة مسواط، ثم نُقلت المكتبة إلى المركز الثقافي، عبدالله باذيب).

وقد تحوّلت أرض المسجد إلى ملعب لكرة القدم (لم يكن له اسم أيام الإنجليز ثم صار ملعب الحبيشي) وأخيراً تحول لملعب الكرة الطائرة. ويقع أمام المنارة شارع الملكة أروى وهو أحد أكبر شوارع عدن، ويتصل بمنطقة البنوك والمتاجر، ويؤدي امتداده إلى مسجد أبان وإلى مركز قوات البوليس المسلّح (الليوي)، وبعدها إلى منطقة باب عدن وما جاورها من منطقة الخساف.

وأمام الجامع مباشرة يقع المبنى الذي سكنه الأديب والشاعر الفرنسي رامبو حيث جاء إلى عدن وعمل مع شركة ألبس كموظف مشرف على النساء الهنديات اللائي ينظّفن البُنّ ويفصلن القشر عن حبات البنّ. وقد اهتمت به فرنسا وأعادت ترميم المبنى بعد تنظيفه وإعادته إلى وضعه السابق بعد أكثر من

(١) سبق أن نقلنا عن عبد القادر المحضار أن الجامع تهدَّم بفعل الهجوم البريطاني على عدن عند احتلالها عام ١٨٣٩م، وكان الجامع موجوداً إلى ذلك التاريخ.. وذكر عدداً من أئمة الجامع وخطبائه وعلمائه حتى بداية القرن الثالث عشر الهجري. وذكر ولستد أيضاً ذلك.

(٢) حمزة لقمان: تاريخ عدن ص ٢٤١، ٢٤٢.

عامين من العمل الشاقّ في جو عدن الحار الخانق. وتم الافتتاح كما يقول جوزي ماري بل «Jose Marie Bel» في كتابه *Aden: The Mythical Port of Yemen*: عام ١٩٩٧م. (يعود البيت إلى ملكية كاوجي الهندي الفارسي)[1].

وذكر الأستاذ عبد الله محيرز في كتابه صيرة «جامع عدن»[2]، وقال إن موقع الجامع التي تحدثت عنه المصادر التراثية يشير إلى أنه أقرب إلى منطقة القطيع لأنه في طرف المدينة - كما قال ابن المجاور وابن القاضي العلامة ابن شكيل الذي وصف المسجد بالضخامة - حيث يبلغ طوله من الباب الشرقي إلى الباب الغربي مائة وخمسون ذراعاً وعرضه من الباب القبلي (الشمالي) إلى الباب الحقاتي (أي الجنوبي) مائة وسبعة أذرع».

وقال الأستاذ المحيرز أن الجامع بقي بمئذنته وأروقته وصحنه وبئره إلى القرن التاسع عشر الميلادي، واستشهد بما كتبه ولستد (الذي زار عدن قبل احتلالها عام ١٨٣٥م ثم جاء بعد الغزو البريطاني مباشرة والذي تم عام ١٨٣٩م) حيث قال إن عدداً من المساجد في عدن هي خراب الآن، وأحدها المسجد الجامع الذي ظلّ يستخدم حتى وقت قريب. وعلى الرغم من ارتفاع صوت المؤذن من أعلى المنارة، إلا أن صلاة المؤمنين تقام تحت سقيفة ضخمة بجوارها... وقال إن في صحن المسجد بئر يزوّد نافورة يتوضأ منها المصلون إلا أن كل ذلك قد زال عند زيارته لهذا المسجد وأصبحت هذه البقعة بلا سقف ولا أرضيّة ولا أبواب.

---

(١) سكن رامبو في هذا البيت من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٨٩١م، وقد توفي فيه وعمره ٣٧ عاماً فقط، المرجع، كتاب: Aden: *The Mythical Port of Yemen*, P. 42 , 43 .

(٢) عبد الله محيرز: صيرة ١٩٩٢م، جامعة عدن: ص ٣٥، ٣٦.

وينقل المحيرز عن (ليه) قوله: وإلى يسار البوابة الجنوبية (لسور الميناء في الخليج الأمامي) مسجد الجمعة (وهو الجامع). وقد سكنته القطعة الرابعة والعشرون من الفرقة المحلية، وعليه منارة، وبعيداً في الخلف يقع مسجد العيدروس».

ثم قال ولستد عن حال الجامع: «فإن ما حدث له بعد الاحتلال كان مؤسفاً وأليماً. فقد زاره (ليه) وصعد منارته وشاهد الجنود الهندوس والسيخ منتشرين بين أعمدته وفي أروقته يطبخون ويأكلون. ولعله انتهى إلى نفس المصير الذي لحق بمسجد آخر مجاور له، قال عنه (ليه) «إنه كان متهدِّماً. وقد حطّمت العساكر بعداوتهم المعهودة للإسلام كافة الأضرحة الخشبية واستعملوها مادة للوقود»[1].

وهذا يوضح الحقد الصليبي الذي جاء به القرصان هينس حيث هدم المسجد الجامع أولاً بمدافعه أثناء الاحتلال، ثم أجهز عليه جنوده ودنّسوه. وجعلوه سكناً لهم ولطبخ طعامهم ولم يراعوا حرمة القبور، بل اتخذوا ما عليها من أخشاب وقوداً لطبخ طعامهم.

ولا شكّ أنهم مزّقوا نسخ القرآن الكريم الموجودة، وربما داسوها بأقدامهم النجسة، وهو أمر يتكرر على مدى التاريخ منذ بداية الحروب الصليبية ودخولهم بيت المقدس إلى اليوم (وشواهده في الغزو الأمريكي للعراق).

ولم يكن المسجد الجامع هو الوحيد الذي عانى من التخريب والإهانة. بل كان كذلك المسجد القريب منه ويعرف بمسجد الحرّة - كما يقول الأستاذ عبدالله محيرز نقلاً عن ولستد -. والحُرّة هي بهجة أم علي أبو الغارات الزريعي

---

(١) نقل المحيرز عن ولستد Wellested ، ووجدت ذلك في كتاب ولستد:
Travels to the city of Caliphs, Travels in Arabia (1840) London, 2 vols , P. 387 .

(القرنان الرابع والخامس الهجريّان) حيث أقامت العديد من المساجد والمدارس في عدن.

وقال المحيرز رحمه الله: «وزالت في الثلث الأول للقرن التاسع عشر معظم المعالم التاريخية والدينية من هذا الجزء الملاحي والتجاري للمدينة. وانقلب إلى معسكر واختفى معلم ديني.. هذا الجامع المبارك الذي هيمن على تاريخ المدينة التاريخي والثقافي والروحي لأكثر من ألف عام».

وقد ذكر الدكتور أحمد رابضة أن الرسم البرتغالي لمدينة عدن أظهر عدة مساجد منها منارة المسجد الجامع. وأشار الأستاذ حمزة لقمان في كتابه «تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية» إلى وجود مشاهد قبور في تلك البقعة (أي بقعة المسجد الجامع). وهو ما أكَّده ولستد في كتابه عن عدن حيث ذكر أن الجنود الهندوس الذين جاء بهم القرصان هينس استخدموا الأخشاب على مشاهد القبور وقوداً لطبخ طعامهم. وقال الدكتور الرابضة أنه تمّ في الستينات من القرن العشرين بعد إجراء حفريات، العثور على أربعة تيجان أعمدة ذات نمط إسلامي في الموقع نفسه، وتدلّ زخرفتها على أنها بقايا أثر إسلامي كان قريباً من هذا الميدان». قلت: وهذا دليل آخر على أنها كانت من أعمدة المسجد الجامع.. وينقل الدكتور أحمد رابضة عن البحّاثة حسن صالح شهاب أن على جوانب المنارة تنتشر قطع من الآجر المستخدمة قديماً في البناء.. مما يدل على تهدّم المسجد.

ولا شك أن هذا المسجد الجامع كان قريباً من ساحل صيرة، حيث إن الساحل كان يمتد قبل انحساره إلى قريب من هذا الموضع. وينقل ذلك علي باطير الذي قال إن المسجد الجامع كان يقع على حافة البحر عند احتلال المستعمرين البريطانيين لعدن(١).

---

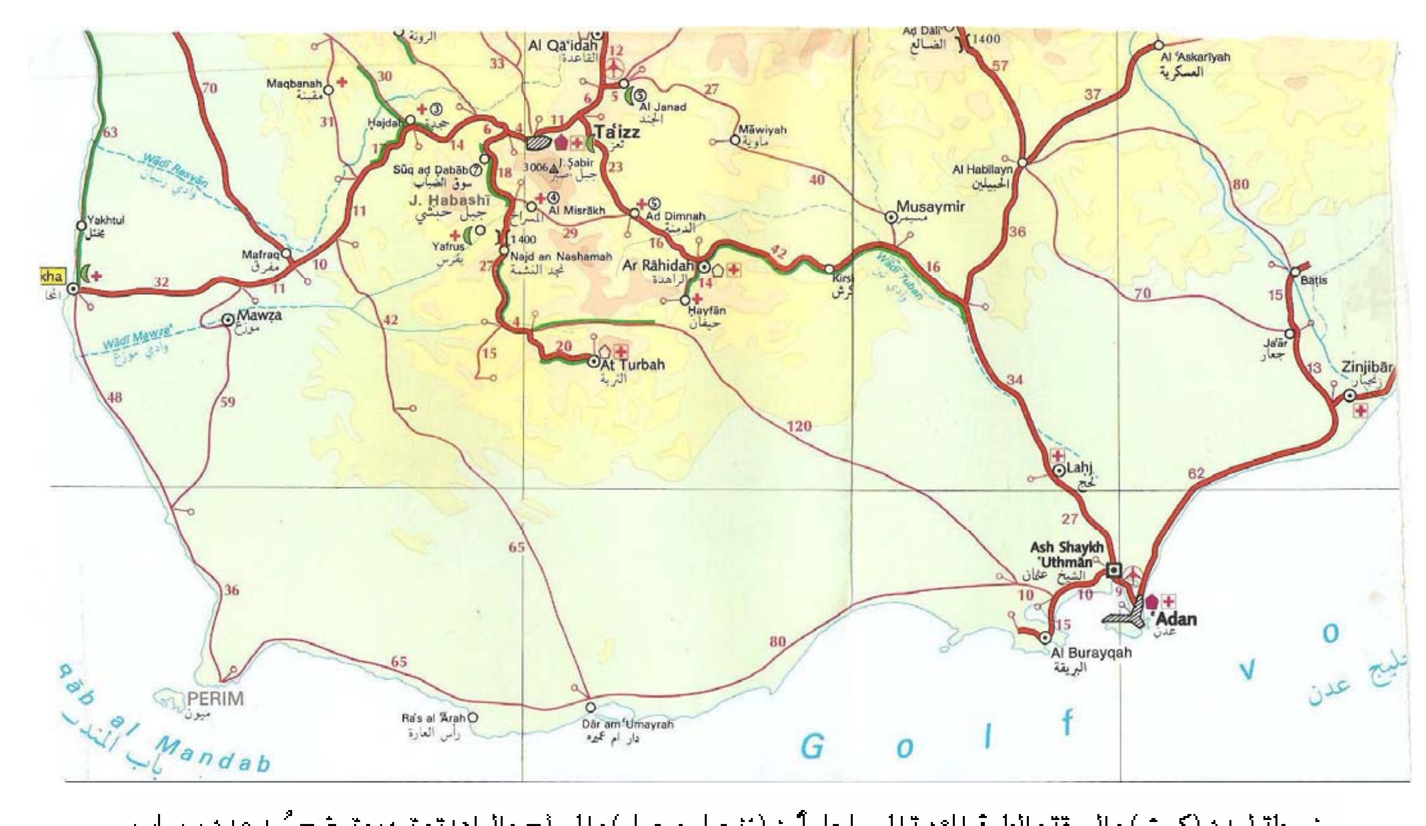
(١) د. أحمد رابضة: معالم عدن التاريخية، ص ٤٨. وقد نقل رواية علي باطير عن كتاب هارولد جيكوب (يعقوب).

والخلاصة أن هذه المنارة هي كل ما بقي من المسجد الجامع التاريخي لعدن والذي تمّ بناؤه لأول مرة في عهد الرسول محمد ﷺ. وأن الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه دخل عدن وخطب على منبره في زيارته الثانية لليمن (العام التاسع – العاشر للهجرة). (وهذه الرواية أكّدها ابن الديبع رغم أن المؤرخين الآخرين نفوا دخوله إلى عدن).

ثم تواترت الروايات على أن أول من بناه بناءً محكماً كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ثم جدّده الحسين بن سلامة، في عهد الدولة الزيادية، ثم تمّ تجديده على مدى القرون (الأمير عمران بن سبأ الزريعي، ثم السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري). وبقي الجامع إلى زمن الاحتلال البريطاني البغيض لعدن.

وشهد ولستد البريطاني، الذي زار عدن قبل الاحتلال عام ١٨٣٥ وبعده، وتولى مناصب هامة فيها، أن قوات القبطان (الواقع القرصان) هينس ضربته بالمدافع أثناء الاحتلال، ثم سمح لجنوده من الهندوس باحتلال ما بقي منه وتلويثه وتدنيسه والبقاء فيه. وهو شاهد على ظلم الاستعمار وحقده.

ولكن المنارة بقيت مرفوعة الرأس رغم أن الأذان قد توقف من مئذنتها، إلا أن عشرات المآذن بالقرب منها قامت واستمرّت في رفع صوت المؤذن: «الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إلٰه إلا الله أشهد أن لا إلٰه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله».. وبقيت عدن عربيّة يمنية مسلمة رغم كل الجهود الخبيثة والحثيثة التي بذلها القبطان هينس الذي تبيّن لحكومة الهند البريطانية أنه اختلس بعض الأموال من ميزانية عدن فعاقبته بالحبس. وعندما خرج من السجن كان محطّماً نفسيًّا وبدنيًّا فلم يلبث إلا وقتاً قصيراً حتى وافته المنيّة مرذولاً مهاناً، متهماً بالاختلاس.



خريطة لعدن (كريتر) والبريقة والطرق المؤدية إلى ساحل أبين (زنجبار وجعار) وإلى لحج والراهدة وتعز، وتوضح بُعد عدن من باب المندب وجزيرة بيرم وخطوط الطول والعرض



قلعة صيرة كريتر عدن



صورة لصيرة من فوق القلعة وتوضح خليج صيرة ومدينة عدن كريتر



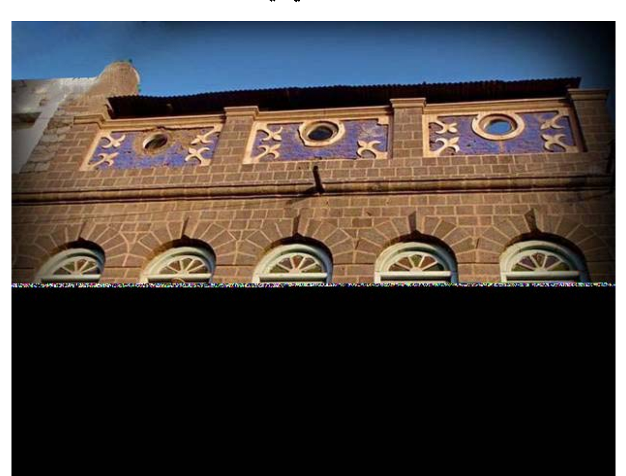
جزء من ساحل صيرة. وتظهر في الصورة مطعم بيتزا وخلفه قصر البراق (الشكر) الذي بناه سلطان لحج عام ١٩٣٧ وأممته الدولة الاشتراكية وتحول جزء منه إلى جامعة عدن ثم إلى مركز الأبحاث ومركز الآثار، وأعيد أخيراً إلى السلطان علي عبد الكريم آخر سلاطين لحج (ما عدا المركز الثقافي). ويظهر خلفه جزء من بنايات كريتر إلى جبل شمسان. وقد كان هذا الساحل منذ آلاف السنين ميناء عدن الأول. ولكن بعد عاديات الزمن وترسّب الطمي عليه، منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ضعف الميناء وخاصة في القرن التاسع عشر. واحتله الإنجليز عام ١٨٣٩ بعد معركة طاحنة. وجعلوا محل هذه المباني الحالية معسكراتهم والتي انتقلت فيما بعد إلى التواهي وإلى خورمكسر. ولم تصلح ميناء لرسو السفن الكبيرة فانتقل الميناء إلى التواهي، وهو ما أطلق عليه الإنجليز اسم (نقطة البواخر) Streamer Point.



جزء من منطقة ميناء صيرة القديم والذي لم يعد فيه إلا قوارب الصيادين. وخلفه مطاعم وملاهي ومباني لأهل عدن. وقريب من مكان هذه الصورة مدرسة لطفي جعفر أمان الثانوي (وكانت المدرسة المتوسطة في عدن وبجانبها كانت المحكمة). كما تم ردم الشاطئ لبناء مستشفى عدن الذي تبرعت ببنائه المملكة العربية السعودية



صورة لبيت تقليدي في كريتر عدن



صورة لبيت تقليدي في كريتر عدن



صورة لنوافذ في بيت عدني تقليدي



صهاريج عدن التاريخية



صورة من جهة الصهاريج توضح مدينة عدن



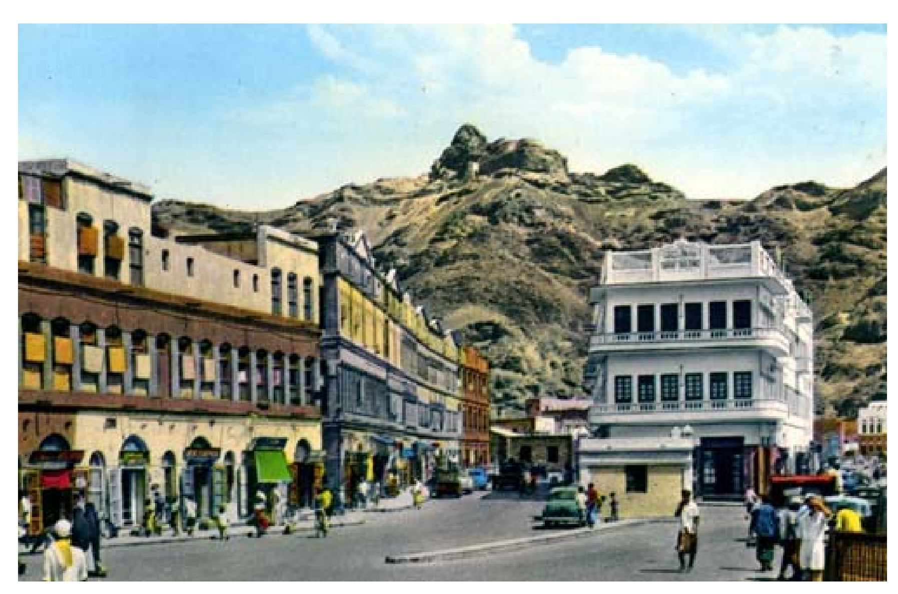
كنيسة القدّيسة ماريا في كريتر، والتي تحوّلت إلى المجلس التشريعي



مدخل مدينة عدن الغربي



امتداد شارع المعلّا



ميدان في كريتر

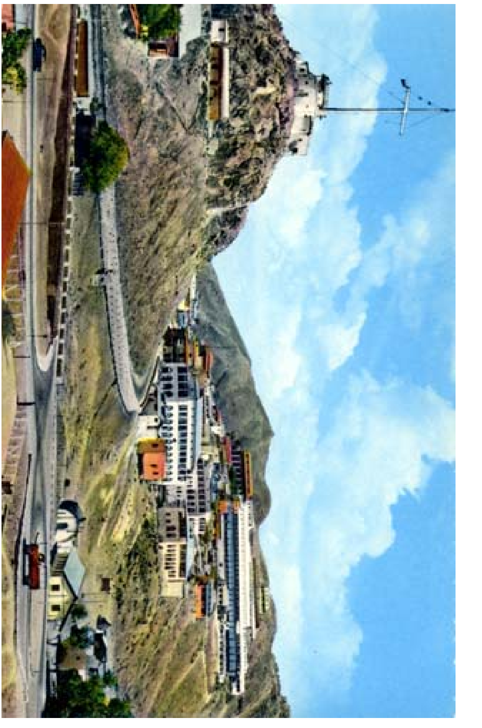


فندق عدن خورمكسر



فندق كريسنت وحدائق التواهي في بداية الخمسينات من القرن العشرين

صورة لجبل التواهي، حيث كان يسكن الحاكم الإنجليزي ثم بعد ذلك رئيس اليمن الجنوبي. وفي المنطقة المستشفى العسكري.



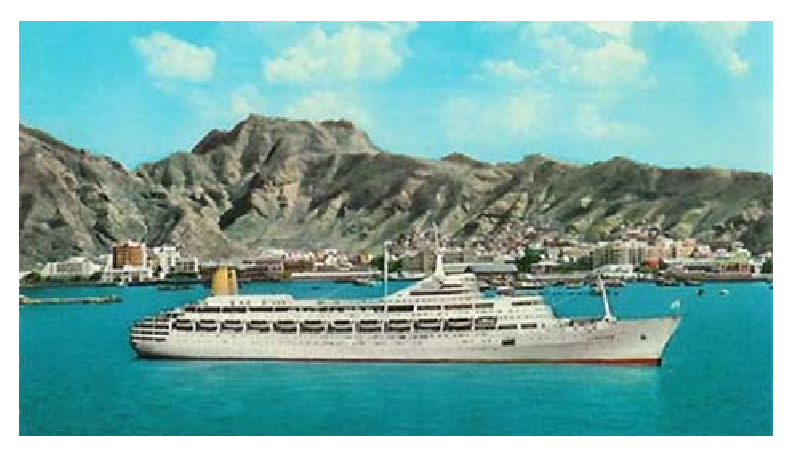


صورة للساحل الذهبي

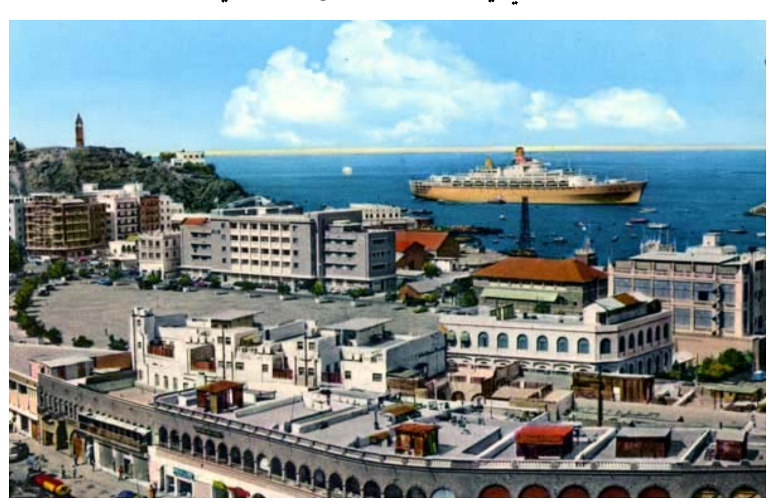


ميناء الحاويات





ميناء التواهي في عدن، ويبدو جبل شمسان في الخلف



صورة للتواهي توضح جانباً من الميناء



صورة للتواهي توضح جانباً آخر من الميناء



ساحل جولدمور (الساحل الذهبي) وأبناء عدن يتمتعون بمياهه الدافئة ورماله الناعمة



صورة توضح جزءاً من ساحل جولدمور (الساحل الذهبي) في التـواهي وعـلى الــساحل قــوارب الــصيادين الــصغيرة، والتــي تــستعمل أيــضاً للتنـــزه في خليج التواهي وجولدمور



الساحل الذهبي – صورة الفيل الصخري



جزء من الساحل الذهبي في التواهي



ساعة (بيج بن الصغرى) في التواهي



خروج الملكة إليزابيث من مدخل الميناء ١٩٥٤

ولم يكن كل حكام عدن من البريطانيين على شاكلته، بل كان كثير منهم يحترمون عقائد الحكام المحليِّين، ولا يتدخلون في الشؤون الدينية. واشتهرت عدن على مدى الأزمنة بتسامحها، حيث كانت فيها جميع الأديان والأجناس والأعراق منذ أن ظهرت عدن كأهمّ ميناء وفرضة في جزيرة العرب منذ ثلاثة آلاف عام أو تزيد... وقد انتقد ولستد بشدّة ما فعله القبطان هينس في المسجد الجامع المذكور. ولكن سياسة القبطان هينس في جعل سكان عدن من كافة الجنسيات مع التضييق على أبناء اليمن سواء أكانوا من لحج ويافع والعواذل وحضرموت أو من اليمن الزيدية (وأغلب من كان في عدن منهم من الشوافع سكان تعز وما حولها الذين كانوا يعرفون بالجبالية) استمرت لفترة طويلة حتى بداية الستينات من القرن العشرين عندما عملت بريطانيا على إقامة اتحاد الجنوب العربي وإلى تلك الفترة كان الهندوس يشكّلون نسبة كبيرة من السكان، ثم بدأ نزوحهم وهروبهم مع حرب الاستقلال.

تجديدات المسجد الجامع ومنارته

وهكذا فإن المنارة والمسجد الجامع شهدت تجديدات وتوسعات على مدى القرون وكان بناؤه بسيطاً في عهد الصحابة (أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل)، ثم قام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ببنائه (سنة ٨٦ - ٩٢هـ/ ٧٠٠ - ٧١١م) وجعل له منارة وهي هذه المنارة المشهورة.

ويبدو أن حكام سيراف وقيس في الخليج العربي (الفارسي) الذين احتلوا عدن في القرن الثالث الهجري أعادوا بناء المسجد - كما يقول ابن المجاور - بثمن عنبر وجدوه في سواحل عدن.

ثم جدّد بناءه الأمير الصالح حسين سلامة (مولى آل زياد) المتوفى سنة ٤٢٦هـ وقد شبهه معاصروه بعمر بن عبد العزيز ﷺ لعدله وإقامته لأمر الدين وبناء المساجد، والسابلة، وطريق الحج، والمدارس. وقد سبق ذكر ذلك.

ثم جدد بناء المسجد الأمير عمران بن محمد بن سبأ الزريعي المتوفى بعدن سنة ٥٦٠ ونصب منبراً جديداً وكتب اسمه على المنبر، وهو منبر له حلاوة في النفس، وطلاوة في العين، كما يقول الجندي في كتابه (السلوك في طبقات العلماء والملوك). ثم قام الملك المجاهد علي بن داود الرسولي بتجديد بناء المسجد والمنبر. وذكر ابن الديبع أن السلطان الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل أمر بعمل منارتين إحداهما عند باب عدن البحري (وهي تجديد للمسجد الجامع الذي كان بقرب باب عدن البحري) وأخرى بمدينة زبيد، وليس في اليمن نظير لهاتين المنارتين إلا بصنعاء، (ابن الديبع في كتابه: الفضل المزيد على بغية المستفيد).

ثم قام السلطان عامر بن عبد الوهاب في أواخر القرن التاسع الهجري بتجديد بناء هذا الجامع الهام.

وبقي الجامع - كما أسلفنا - حتى هدمه بمدافعه القبطان هينس عندما هجم على عدن، ثم أجهز عليه بجنوده السيخ الهنود، وبقيت المنارة. وبالإضافة إلى ترميمات الأوائل، ومن آخرهم عامر بن عبد الوهاب، فقد أُجريت ترميمات على المنارة في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين، ثم في عام ١٩٧٢م (بعد زيارة شيرنسكي السوفييتي لها). ثم قامت وزارة الإنشاءات والتركيبات الصناعية بمهمة ترقيم المنارة على وفق شروط التقرير في ١٩ مارس ١٩٨٣م وبلغت كلفة الترميم حوالى مائة ألف دولار أمريكي وتم استدعاء الخبير الباكستاني ميان عبد الحميد وغيره عام ١٩٨٤م. وفي عام ١٩٩٠م تمت ترميمات بسيطة أخرى. ولا تزال المنارة تحتاج إلى ترميمات هامة.

مسجد أبان

ينسب هذا المسجد لأبان بن عثمان بن عفان ﷺ ثالث الخلفاء الراشدين. وقد كان أبان من التابعين ومن العلماء ومن فقهاء المدينة، وأقام في عدن يعلم الناس أمور دينهم. ثم رجع إلى المدينة المنوّرة وتوفي بها سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م، وقد بنى مسجده هذا عند إقامته في عدن. وولد له الحكم بن أبان، وكان أيضاً من الفقهاء والعلماء. ثم ظهر ابنه إبراهيم بن الحكم بن أبان المعروف بالعدني، وهو الذي رحل إليه الإمام أحمد بن حنبل بعد أن ذهب إلى صنعاء ليأخذ من عبد الرزاق، فلما وصل إلى عدن وجد إبراهيم على غير ما كان يظن من العلم، فقال: لله ما أنفقناه من الدريهمات. وكانت زيارته لعدن عام ١٩٨هـ.



هذه الصورة لمسجد أبان، وهو المسجد المنسوب لأبان بن عثمان بن عفان ﷺ. ويقال إن أبان دخل عدن وبناه. وأما ابنه الحكم بن أبان فهو من علماء عدن الكبار، وقد رحل إليه الإمام أحمد بن حنبل ووجده قد مات، ولم يكن ابنه في علم أبيه.
وهذه الصورة للمسجد بعد إعادة بنائه في القرن الواحد والعشرين على نفقة مؤسسة هائل سعيد أنعم.

ترجمة **أبان بن عثمان بن عفان** عند الذهبي في سير أعلام النبلاء[1]:

أبان بن عثمان بن عفان، الإمام الفقيه، الأمير (أمير المدينة)، أبو سعد بن أمير المؤمنين (عثمان بن عفان) الأموي المدني، سمع أباه، وزيد بن ثابت، وحدَّث عنه عمرو بن دينار والزهري وأبو الزناد وجماعة.

روي عنه أنه قال: سمعتُ عثمان يقول: من قال: «بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، لم يضرّه ذلك اليوم شيء أو تلك الليلة». فلما أصاب أبان الفالج (الشلل النصفي) قال: والله إني نسيت هذا الدعاء هذه الليلة، ليمضي فيّ أمر الله». أخرجه الترمذي. وقال عنه الترمذي: حديث صحيح.

وقال الواقدي: تولى إمرة المدينة سبع سنين. وكانت فيه دعابة. وهو أول من كتب كتاباً في سيرة النبيّ محمد ﷺ وقدّم كتابه إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك عندما قدم للحج عام ٨٢هـ، فأضاعه سليمان. ولم تكن مع المؤلف نسخة أخرى، وبذلك فقد أول كتاب في السيرة النبوية.

وبعد أن أُصيب أبان بالفالج كان يؤتى به إلى المسجد النبوي لحضور الصلوات في محفّة.

ترجمة **الحكم بن أبان**

كان فقيهاً مشهوداً له بالعلم والفقه، أدرك ابن طاووس في الجند، فأخذ عنه عن أبيه عن عبد الله بن عباس. وعيّن قاضياً لعدن فاشتهر بالعدل والاستقامة والكرم.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٤، ٣٥١ – ٣٥٣.

وقد اشتهر المسجد باسم والده أبان. وهو أحد مساجد عدن التاريخية والمشهودة بالبركة ونشر العلم. وقد أقام فيه الإمام أحمد بن حنبل حين قدم عدن للأخذ عن إبراهيم بن الحكم بن أبان فلم يجده كما بلغه، فقال للمكثر بن أبان (عم إبراهيم): «في سبيل الله الدريهمات التي أنفقناها في قصد ابن أخيك».

وترجم الذهبي في التهذيب للحكم بن أبان فقال: «الحكم بن أبان العدني، أبو عيسى، أخذ عن طاووس وعكرمة ووهب (ابن منبه) وسالم بن عبد الله وجماعة. وعنه أخذ ابنه إبراهيم، ومعمّر، ومعتمر بن سليما ن وابن عُيينة وابن عُلَيّة وطائفة.. وثّقه ابن معين والنسائي.. وكان إذا هدأت العيون وقف في البحر إلى ركبتيه (في صيرة) يذكر الله تعالى حين يصبح. قال عنه يوسف بن يعقوب: «الحكم بن أبان سيّد أهل اليمن (أي في عصره)». وقال المديني عن ابن عُيينة: «أتيتُ عدن فلم أرَ مثل الحكم بن أبان». ومات الحكم سنة ١٥٤هـ.

وهكذا نجد أن عدن قد دخلها بعض أعلام الصحابة، ثم بعض التابعين، ثم بعض أعلام علماء الأمة مثل الإمام أحمد بن حنبل وابن عُيينة وغيرهم.

إبراهيم بن الحكم بن أبان

ضعَّفه أهل الحديث. وهو الذي جاء إليه الإمام أحمد بن حنبل فلم يجده كما كان يظن، ولكنه كان فقيهاً جيّداً.

مسجد أبان: ويعدّ مسجد أبان من المعالم الإسلامية في مدينة عدن، وتم تجديده وتوسيعه مرات عديدة آخرها عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م على نفقة هائل سعيد أنعم. ورغم أن البناء فخم وواسع ومؤثث تأثيثاً جيداً إلا أنه انتقد لأنه أفقد المعلم التاريخي كثيراً من خصائصه (جزاه الله خيراً على اهتمامه بالمساجد وإعادة بنائها وتوسيعها).

وقد تم بناء المسجد لأول مرة في عهد أبان بن عثمان بن عفان في نهاية القرن الأول للهجرة. ثم تمّ تجديده وتوسعته عام ١٨٠هـ. وتجدد على مدى القرون. وممن جدده التاجر سالم باشنفر عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م ثم رُمّم عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م ثم عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ثم هدم المسجد عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ليتم بناؤه من جديد. وانتهى البناء وتم الافتتاح عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م على نفقة مؤسسة هائل سعيد أنعم، وانتقد كثير من المهندسين بناء المسجد الجديد لأنه أفقده خاصيته.

ومن العلماء المتأخرين الذين تولوا الإمامة والتدريس في هذا المسجد: السيد مطهر بن مهدي الغرباني الحسني المتوفى سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. وهذه ترجمة مختصرة للسيد مطهر نقلاً عن الشيخ أمين سعيد باوزير في كتابه (من أبرز أعلام الدعوة والتنوير في عدن، ص ١٦٤- ١٦٦).

السيد مطهر الغرباني (وفاته ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م): هو السيد مطهر بن مهدي الغرباني الحسني السحولي العدني. ولد في منطقة السحول من محافظة إب الجبلية الجميلة في بداية القرن العشرين (سنة بضع عشرة وثلاثمائة للهجرة). وآل الغرباني ينتسبون إلى هجرة غُربان الواقعة شمال غرب صنعاء. لذا يقال الغرباني (نسبة إلى غربان) والسحولي (نسبة إلى سحول) والعدني (نسبة إلى عدن) التي توطنها.

وقد أخذ العلم عن العلامة محمد بن حسان اليماني المتوفى سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، وعمه العلامة إسماعيل بن حميد بن محسن الغرباني المتوفى ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.

عاش سني شبابه في تعز وتعلم اللغة التركية، ودرس بالمدرسة الأحمدية. وفي عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م زجّت به السلطات في السجن مع مجموعة كبيرة

من العلماء والضباط والأعيان الذين اتهموا بالمؤامرة في قتل الإمام يحيى حميد الدين أو شجعوا عليها. ولكن لم تثبت عليه أي تهمة، فأُفرج عنه، فتوجه مباشرة إلى عدن التي استوطنها.

وفي عدن عمل مدرساً في مدرسة بازرعة الخيرية الإسلامية، كما عقد حلقات العلم في أقدم مساجد عدن وأشهرها وهو مسجد أبان (أبان بن عثمان ابن عفان) وعمل فيه إماماً وخطيباً وواعظاً ومدرساً. وتخرّج على يديه مجموعة كبيرة، منهم: الشيخ السيد محمد بن عبد الله الهدار (الذي توطن البيضاء وأقام بها معهداً دينيًّا مشهوراً). والأستاذ محمد سعيد عبد الله الصائغ. والشيخ أحمد ابن علي الدندراوي شيخ الطريقة الأحمدية في الشيخ عثمان. والشيخ السيد محمد ابن علي باحسن آل جمل الليل. وخطيب المسجد المشهور حسين الأهدل. والشيخ محمد عبد الرب جابر (أحد الأعضاء المؤسسين والبارزين في المركز الثقافي الإسلامي بعدن، وإمام مسجد الشوذري بشارع الزعفران وصاحب المواقف الشجاعة ضد النظام الماركسي). والشيخ أحمد بن أحمد مهيوب، إمام وخطيب مسجد الشيخ عبد الله العمودي. والشيخ السيد محمد بن علوي المالكي المكي (لست أدري متى وكيف أخذ عنه، وهل كان ذلك عند سفر الغرباني للحج وإقامته في مكة المكرمة؟). والشيخ عبد الرحمن غالب الشميري إمام وخطيب مسجد. والأستاذ الشيخ أنور محمد حسن إمام وخطيب مسجد أبان. وغيرهم كثير.

مؤلفاته: (١) كشف القناع في أحكام الرضاع. (٢) شرح القصيدة الجامعة لمعاني التوحيد والعقيدة. (٣) ثمرات الجنة في خلاصة عقائد أهل السنة. (٤) رسالة صغيرة في الكحول والكولونيا، اعتبرها طاهرة العين وليست نجسة مع حرمة شربها.

وفاته: توفي في عدن في ٣ من ذي الحجة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) ودفن في مقبرة العيدروس. ولقد عرفت العلامة السيد مطهر الغرباني، وقد كان متعاطفاً مع نشاط المركز الثقافي الإسلامي بعدن، وكان يرسل ابنه منوّر ليحضر أنشطته.

وللسيد مطهر الغرباني أخ هو السيد إسماعيل مؤلف كتاب «نفس الرحمٰن فيما لأحباب الله من علو الشأن» وفاته بعدن عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

وتولى بعده الخطابة والإمامة الأستاذ أنور بن محمد بن حسن الرفاعي الذي أقام حلقات لتحفيظ القرآن، ولقراءة صحيح ا لبخاري (الذي يقرأ في مدارس عدن في شهري رجب وشعبان ليتفرغ الناس للقرآن في شهر رمضان).

وآخر من تولى الخطابة والإمامة الشيخ محسن بن محمد بن عبد الله. وهو الإمام الحالي. وممن تولى التدريس متطوعاً في مسجد إبان الشيخ علي بن محمد باحميش، وسيأتي ذكره عند الحديث عن مسجد العيدروس.

مسجد الشيخ جوهر(1): هذا المسجد قديم منذ القرن الخامس أو السادس الهجري، وكان يُعرف باسم رباط الشيخ سعد الحداد. ثم أقام فيه الشيخ جوهر المتوفى سنة ٦٢٦هـ واشتهر باسم مسجد الشيخ جوهر الذي عاش في عهد الملك سعود آخر ملوك الأيوبيين في اليمن. وكان عبداً عتيقاً يشتغل بتجارة القماش، واشتهر بالصدق والأمانة وحسن المعاملة.. ولم يعرف بالفقه والعلوم، وإن كان كثير الحضور لدروس العلم، والإحسان إلى الفقراء وصفه الطيب بامخرمة في كتابه تاريخ ثغر عدن بقوله:

---

(١) هذه المادة منقولة من كتاب السيد عبد القادر المحضار: التذكير بأخبار العباد والبلاد، باختصار وتصرف وإضافة يسيرة. وترجمة جوهر من الطيب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج٢، ٣٩ - ٤١.

«أبو البهاء، جوهر بن عبد الله العدني الصوفي الجندي، الشيخ الكبير الصالح المشهور.. قال الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي (المكي صاحب روض الرياحين): «كان عبداً عتيقاً أميناً متسبباً في السوق بعدن، وأظنه كان بزازاً في الخان، فإنّ به دُكّاناً مشهوراً على ألسنة العوام أن الشيخ جوهر كان يتّجر فيه. قال الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي: وكان يحبُّ الفقراء حُبًّا شديداً، ويجالسهم كثيراً ويعتقدهم، فلما حضرت الشيخ العارف بالله أبا حمران الوفاة قال له أصحابه: من يكون الشيخ بعدك؟ قال: الذي يقع على رأسه الطير الأخضر في اليوم الثالث من موتي. وقعدوا ينتظرون ما يكون من وعد الشيخ.. وإذا بالطائر الموصوف قد أقبل وحطّ في طاقة المسجد.. ثم حط على رأس الشيخ جوهر. فقام إليه الفقراء ليزفّوه ويقعدوه في منصب الشيخ فبكى وقال: أين أنا من هذا؟ أنا رجل جاهل لا أصلح لهذا، ولا أعرف الطريق. فقالوا له: ما أقامك الحقُّ في هذا المقام إلا وأنت أهل له، وسيعلّمك (الله) ما تجهل ويؤتيك التوفيق...» فكان كاسمه جوهراً.. وظهرت عليه الأخلاق العالية والكرامات.

وكتب إليه أحد الشيوخ كتاباً يشتمه ويحتقره، فكتب له الشيخ جوهر هذه الأبيات:

إذا سعدوا أحبابنا وشقينا ... صبرنا على حكم القضاء ورضينا
وإن جيَّش الأحباب جيشاً من الجفا ... بنينا من الصبر الجميل حصونا
وإن بعثوا خيل الصدود مغيرةً ... بعثنا لهم خيل الوصال كمينا
وإن شهروا أسيافهم لقتالنا ... أتيناهم بالذُّلّ مدَّرعينا
أحبّاءَنا جوروا وإن شئتمُ اعدلوا ... صبرنا على حكم القضاء ورضينا

فلما وصل جواب جوهر إلى الشيخ استغفر الله وسافر من بلاده للقاء الشيخ جوهر والاعتذار له.

ويُحكى أن للشيخ جوهر هرة يُحبّها، وكان إذا أتى الضيفان لبيته تذهب الهرة إلى أهله بعدد أفراد الضيفان، فيقوم أهله بإحضار الطعام على عددهم. وذات مرة جاءه عدد من الضيوف (يقال إنهم اثنا عشر) فذهبت الهرة عشر مرات فقط، فأحضروا الطعام لعشرة فقط. فلما أراد النقيب أن يعطيهما شيئاً من الخبز منعته الهرة بحركتها وصياحها. فلما عرف الشيخ جوهر ذلك دعاهما واستخبرهما عن حقيقة أمرهما، فأقرّا بأنهما نصرانيّان، فعفا عنهما، وأحسن وفادتهما. فأسلما وحَسُن إسلامهما.

وقام أحد أبناء عدن بملاحقة امرأة جميلة متجهة إلى ضريح الشيخ جوهر لزيارته، فتبعها ثم مدّ يده إليها، فما أحسّ إلا بضربة قوية على ظهره، ولم يكن أحد موجوداً بجانب القبر، ففرّ خوفاً وهلعاً. ثم أصابته الحمى، ثم تاب، فشفاه الله تعالى.

وكان القاضي ابن كَبّن يزور قبر الشيخ جوهر، فضاعت منه سبحة كانت بيده، فشقّ عليه ضياعها، فدخل التربة ثم أدخل يده في فتحة التابوت فما أخرج يده من التابوت إلا وهي ملتوية بيده. (هذه من الكرامات المروية، فمن شاء صدّق ومن شاء لم يصدّق).

وكانت وفاة الشيخ جوهر في شهر رجب من سنة ٦٢٦هـ، وذلك مكتوب على تابوت قبره. ودفن في تربة الشيخ جوهر العديد من العلماء والصلحاء ومنهم الفقيه أحمد بن حسن بن شينا[1]، (مولده سنة ٧٣٢هـ في عدن). وكان وحيد عصره في العلم، كثير العبادة والصوم. توفي سنة ٨١٦هـ، ودفن في مقبرة

---

(١) يدل اسمه أنه كان من أهل الصين، وربما كان من التجار الذين يذهبون إلى الصين فلُقِّب بذلك.

الشيخ جوهر. وقد تولى الإمامة والتدريس فيه ووصفه البويهي بأنه مما يحار الأديب فيه، ويأتي بما لم يأتِ به المبصرون (طبقات صلحاء اليمن).

ومنهم العلامة القاضي محمد بن سعيد بن علي الطبري المولود بعدن سنة ٧٧٦هـ، درس الفقه وعلوم الشرع واللغة بمدينة زبيد، وتولى قضاء عدن نحو أربعين سنة، وكانت وفاته سنة ٨٤٢هـ، ودفن بمقبرة الشيخ جوهر.. وله عدة مصنفات منها: «أربعون حديثاً في فضل العلم».

ومنهم القاضي الفقيه العلّامة محمد بن مسعود بن سعد أبو شكيل (باشكيل) الأنصاري المولود بغيل باوزير سنة ٨٠٤هـ، والذي دخل عدن سنة ٨٢٤هـ، فتلقّاه القاضي العلامة محمد بن سعيد بن كبّن الطبري، وجعله أخصّ تلاميذه، فلما توفي القاضي الشهير ابن كبّن حلّ محله العلامة محمد بن مسعود باشكيل. وله مؤلفات عدة، منها: كتاب في شرح المنهاج، وله فتاوى مجموعة. وكانت وفاته سنة ٨٧١هـ، وهكذا نجد العلامة الفقيه القاضي ابن كبَّن وبجواره تلميذه محمد بن مسعود باشكيل في مقبرة جوهر.

ومنهم حفيد باشكيل المذكور الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود باشكيل المتوفى سنة ٩٠٢هـ والمقبور بجوار جدِّه.

ومنهم مفتي عدن العلّامة عبد الله بن أحمد بامخرمة (ولادته في الهجرين في دوعن سنة ٨٣٣هـ ووفاته بعدن سنة ٩٠٣هـ) بمقبرة جوهر بجوار قبر شيخه محمد ابن مسعود باشكيل.

ومن آل بامخرمة: الفقيه أحمد بن الشيخ عبد الله المتقدم ذكره، ووفاته سنة ٩١١هـ. وكان بارعاً في الفقه. كما أن منهم عبد الله الطيب ابن الفقيه عبد الله بامخرمة وأخ الشيخ أحمد. وكانت وفاة الطيب بامخرمة سنة ٩٤٧هـ ودفن في قبر جدِّه لأمه القاضي محمد بن مسعود باشكيل وبالقرب من قبر والده وأخيه.

وقد اشتهر الطيب بامخرمة بكتبه ومنها: «تاريخ ثغر عدن»، و«قلادة النحر» في ثلاثة مجلدات.

ولا يمكن تعداد من بهذه المقبرة من العلماء والصلحاء، فعددهم بالمئات. وهي مقبرة حوت كثيراً من أعلام الأمة في عدن..

وقد نبّه السيد عبد القادر المحضار في كتابه «التذكير بأخبار العباد وآثار البلاد» إلى الإهمال الذين تعاني منه المقبرة وإلى الاعتداء عليها بجعلها طريقاً يمرّ فيه الناس.. ولا بدّ من إغلاق الممرات حتى تبقى للقبور حرمتها.

وقد استمرت حلقات العلم وحفظ القرآن الكريم وقراءة كتب الحديث النبوي مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم... إلخ. منذ زمن الشيخ جوهر إلى يومنا هذا بفضل الله وكرمه. وذكر السيد عبد القادر المحضار عدداً من العلماء الذين درّسوا في هذا المسجد المبارك على مدى العصور. كما ذكر الدكتور أحمد رابضة أن ممّن درّس في هذا المسجد المبارك الفقهاء الكبار عبد الله بامخرمة، ومحمد بن سعيد بن كبّن، ومحمد بن مسعود باشكيل، وعبد الله بن أحمد بامخرمة. وأما المشهد (الضريح) القريب من مسجد جوهر فهو للشيخ ريحان بن عبد الله العدني.

الإمام العيدروس العدني[1] ومسجده

يعتبر مسجد العيدروس في حي العيدروس بمنطقة كريتر من معالم عدن البارزة. وقد أسسه وبناه العلامة الوليّ المشهور أبو بكر بن عبد الله العيدروس. والذي كان له دور اجتماعي وسياسي في عدن واليمن لمناصرته عامر بن عبد الوهاب الطاهري. وترجع عمارة مسجد العيدروس إلى عام ٨٩٠هـ بعدما دخل الإمام العيدروس عدن، وهو أول عمل قام به العيدروس.

نبذة عن الإمام أبي بكر العيدروس العدني

هو السيد أبو بكر بن عبد الله الملقّب بالعيدروس (وهو تحريف للفظ العتروس أو العيتروس الذي قيل إنه من أسماء الأسد)، ابن أبي بكر (الملقب بالسكران والمقصود بذلك من حبّ الله، وهو من قومٍ لم يروا الخمر في حياتهم) ابن عبد الرحمن السقاف. وهي سلسلة ذهبية من رجالات العلم والعبادة والخشية والجود والكرم والشجاعة، أخذوها كابراً عن كابر وقدماً على إثر قدم إلى رسول الله ﷺ.

وقد ترجم له العديد من المؤلفين وعلى رأسهم تلميذه العلامة محمد بن عمر بحرق في كتابه «مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس». وترجم له تلميذه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن باوزير وجمع ديوانه. وترجم له

(١) وُلِد سنة ٨٥١هـ، وكانت وفاته سنة ٩١٤هـ.

الطيب بامخرمة في «قلادة النحر»، كما ترجم له الشلّي في المشرع الروي. وترجم له العلامة السيد عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس في كتابه «النور السافر عن أخبار القرن العاشر». والسيد عبد القادر هو ابن أخ السيد أبي بكر العيدروس، وترجمته لعمه عن معرفة وثيقة. وأخيراً ترجم له السيد أبو بكر المشهور بكتاب عنوانه «جلاء الهم والحزن بذكر ترجمة صاحب عدن».

ولد السيد أبو بكر في مدينة تريم سنة ٨٥١هـ. ونشأ في حجر والده العلامة الوليّ الكبير عبد الله العيدروس. وحفظ القرآن الكريم على السيد محمد ابن علي باجحدب والمعلم سالم بن نميري.

وأخذ التصوف والعلم والعلوم عن أبيه وعن عمّيه السيد علي بن أبي بكر والسيد أحمد بن أبي بكر. وتفقّه على يد الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بلحاج بافضل، والعلامة السيد محمد بن عبدالرحمن بلفقيه... وكان شغوفاً بقراءة كتب العلم منذ نعومة أظفاره، وخاصة كتاب الإمام الغزالي «إحياء علوم الدين»، وكذلك كان والده الإمام عبد الله العيدروس. وقد زجره والده عن قراءة كتاب الفتوحات المكية لابن عربي.. وأجازه والده في التدريس والإقراء والتحكيم والإلباس في رجب سنة ٨٦٥ وعمره أربعة عشر عاماً، وتوفي والده بعد ذلك بشهر واحد فقط.

وكانت له رياضات عظيمة ومجاهدات جسيمة، ويقرأ كل ليلة عشرة أجزاء من القرآن الكريم ثم يرجع قبل الفجر. وكان قليل النوم، كثير المجاهدة والعبادة وقراءة القرآن وطلب العلم. ولم ينم في اليوم والليلة أكثر من ثلاث ساعات لمدة ثلاثين سنة، ورحل إلى الحرمين الشريفين، ودخل عدن فأخذ عن العلامة عبد الله بن أحمد بامخرمة (والد الطيب بامخرمة) والعلامة محمد بن أحمد بافضل. ودخل مدينة زبيد فأخذ عن شيخ الإسلام أحمد بن عمر المزجد وعن

الإمام يحيى بن أبي بكر العامري صاحب بهجة المحافل. وأجازه وأذن له في الإلباس والإقراء ومن جميع مؤلفاته ومسموعاته في ١٢ رمضان سنة ٨٨٠هـ. وقد حصل على إجازات كثيرة من علماء عصره من حضرموت وعدن واليمن والحجاز ومن وفد على مكة والمدينة من علماء الآفاق والشام ومصر وغيرها. وحج سنة ٨٨٠هـ ، وزار المسجد النبوي وسلّم على جده الحبيب المصطفى ﷺ في ذلك الموسم. وأخذ عن الإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي في تلك السنة وأجازه إجازة عامة وخاصة.

ولما رجع إلى تريم جلس للتدريس، فأقبل الناس عليه لما رأوا من علمه وحكمته. وأخذ عنه خلق لا يحصرون، منهم أخوه حسين، وابن أخيه السيد عبد الله بن شيخ، والعلامة عبد الله بن محمد باقشير صاحب كتاب «القلائد»، وغيرهم من آل بافضل وآل الخطيب وآل باعباد وآل باحرمي.. وكلهم أهل فضل وبيوت علم. ولما دخل عدن للمرة الثانية سنة (٨٨٩م) وأقام بها، أخذ عنه خلق كثير، منهم العلامة المحدث الولي المعروف حسين بن صديق الأهدل، والشيخ العلامة محمد بن أحمد باجرفيل، والشيخ العلامة المتفنّن في كافة العلوم في عصره محمد بن عمر بحرق، وتلميذه الشيخ عبد اللطيف باوزير.

وكان، رغم انشغاله بالعلم والتعليم والعبادة والمجاهدات، حَسَن العِشرة يحبُّ المداعبة والمفاكهة مع من يستحقون ذلك.

وكان آية في الكرم والجود، شديد الشفقة على الفقراء والأرامل والأيتام، وكان يكفل العديد منهم، بل وكانت نفقة كثير من الأسر الفقيرة في عدن هو المتكفّل بها. ويقبل الهدية ويكافئ بأحسن منها.

وحجّ للمرة الثانية سنة ٨٨٨هـ وعاد عن طريق زيلع (في الصومال = بلاد

بونت)، وأكرمه حاكمها محمد بن عتيق الذي كانت صلته بأهل العلم والفضل وطيدة. ورأى من العيدروس من العلوم والكرامات ما أذهله. (ومن علماء زيلع المشهورين: الشيخ عبد الله بن يوسف الزيلعي صاحب كتاب «نصب الراية لأحاديث الهداية» و«أدلة الأحكام في الفقه الحنفي».. المتوفى سنة ٧٦٢هـ .

ودخل عدن سنة ٨٨٩هـ بعد أن وصل تعز ووصله نبأ وفاة السيد عمر بن عبد الرحمن صاحب الحمراء (في لحج)، فأرسل إليه أهل عدن أنهم سيأتون إليه للتعزية في قريبه، فأخبرهم بأنه سيقدم إلى عدن، فذهب إلى لحج (الحمراء) أولاً، وقام بواجب التعزية في قريبه، ثم دخل عدن في يوم ١٣ ربيع الثاني عام ٨٨٩هـ. وقد استقبله أهل عدن استقبالاً حافلاً، ولا يزالون يحتفلون بهذا التاريخ من كل عام (١٣ ربيع الثاني) ويجعلونه يوم زيارة لمسجد العيدروس وذكرى دخوله عدن، ويعتبرونه من أيام سرورهم، وتنشد فيه القصائد، وتذكر سيرة العيدروس ويعظ العلماء الناس.

وقد بنى مسجده المشهور بعد دخوله عدن، وتم بناؤه عام ٨٩٠هـ. وكانت أخشاب المنبر والأبواب والسقف قد جُلبت من الهند وبعضها من الخشب ذي الرائحة الذكية، وكلها أخشاب من الساج.. وقيل إن ذلك كله حدث بعد عهد العيدروس عندما أُعيد بناء المسجد.

ورغم اختلاطه بالناس وحدبه عليهم كان يحب العزلة، ويقول: «ليتنا ما عرفنا أحداً ولا أحد عرفنا، ليتنا لم نكن، أو ليتنا ما ولدنا».

كان من أجلّ أهل زمانه قدراً وأعزّهم فضلاً، صدوقاً في مقالاته، متحرِّياً في رواياته، قد جمع الله له علم الحقيقة والشريعة - كما يقول صاحب المشرع الروي.

وكان متواضعاً مع جلالة قدره، وقد جعل الله له الهيبة عند الملوك والأكابر، ولذا كانوا يخضعون بين يديه ويبادرون لما ينصحهم به من أوامر ونواهٍ... وكان هو يبدي لهؤلاء الحكام الصالحين المحبّة والتوقير وخاصة عامر ابن عبد الوهاب الطاهري حاكم عدن (والطاهريون كما يقول مؤرخهم ابن الديبع: ينتسبون إلى عمر بن عبد العزيز الأموي ﷺ. وقال آخرون إنهم من أهل اليمن من حِمْيَر ولا علاقة لهم بعمر بن عبد العزيز. وكانت جهود عامر بن عبد الوهاب موفقة في إقامة المبرّات والمدارس والمساجد والآبار والسدود والصهاريج.. وكان العيدروس يمدحه لذلك بقصائده الكثيرة حتى يستمر في عمل الخير ويزداد النفع للفقراء والمحتاجين وكل سكان اليمن.

وكان العيدروس بليغاً مؤثراً في كلامه وخطابه ونظمه ودرسه... وكان كثير التفقّد لطلبته ومريديه، ويتألفهم، ويعفو عن سيئاتهم، ويقضي حوائجهم. ويظن كل واحدٍ منهم أن له عنده المنزلة العظمى لما يراه من إقباله وبشاشته.

وكان ينفق على طلبته وعلى كثير من الأسر الفقيرة.. وكان يستدين المبالغ الكبيرة حتى بلغت مائتي ألف دينار ذهباً. وكان يغضب عندما يلومونه على هذا الكرم الفائض ويقول: وعدني ربي أن لا أخرج من الدنيا إلا وقد أدّى عني ديْني، فكان كما قال وقضى دينه الأخير الأمير ناصر الدين بن عبد الله باحلوان أمير زيلع. وكان العيدروس قد أرسل ابنه أحمد إليه، فأكرمه وأرسل للعيدروس مائتي ألف دينار فقضى دينه.

وكان عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي امتدت دولته حتى شملت اليمن بأكمله، ووصلت إلى حضرموت وظفار، يحب العيدروس ويستمع لنصائحه ويقبل شفاعته، ويبذل له الأموال الكبيرة التي ينفقها العيدروس على الفقراء والمساكين وطلبة العلم.

وكان ﷺ إذا وقع أحد أصحابه في هفوة لم يعنّفه، بل يلاطفه ويستنقذه من الشيطان، ويفتح لهم باب الرجاء ويكثر من الترغيب، وما كان يستخدم الترهيب إلا عند الحاجة لذلك. وكان يقول: «إن القلوب إذا استحكم عليها الهوى، لم يزدها التخويف إلا نفوراً، واستجلاب القلوب، بفتح باب الرجاء، أقرب إلى سماع الموعظة».

وكان يقول: «إذا رأيتُ المؤمن قد وفَّقه الله لأداء الفرائض واجتناب الكبائر، أرحتُ خاطري منه، لأنه قد صار مع الركب يمشي على قدميه، وإنما أصرف همّتي في خلاص من رأيته منهمكاً في العصيان، واقعاً في حبائل الشيطان».

وكان يوصي بحُسن الظن ويقول: «حُسن الظن دليل على السعادة، ويُرجى لصاحبه حسن الخاتمة عند الموت، وما يخسر صاحب الظن وإن أخطأ».

ومن كلامه: «لا يعرف الجوهر إلا الجوهري، ولا الوليّ إلا الولي، وكيف نعرف ولاية شخص وهو يغضب كما نغضب، ويأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب».

ويقول: «عليكم في جميع أحوالكم وأفعالكم باتباع كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ».

وقد مدحه العلماء والأدباء والشعراء، ومنهم العلامة السيد عمر بن عبد الرحمن صاحب الحمراء، والعارف بالله عبد الرحمن بن الشيخ علي، والشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم العلوي، والعلامة محمد بن عمر بحرق وهو أحد أشهر تلاميذه، وشيخ الإسلام أحمد بن عمر المزجد، وغيرهم كثير.

وله كرامات كثيرة دوّن بعضها تلميذه محمد بن عمر بحرق في كتابه: «مواهب القدوس في مناقب العيدروس»، والسيد أبو بكر الشلي في «المشرع الروي في مناقب السادة آل أبي علوي»، والطيب عبد الله بامخرمة في كتابه «قلائد النحر»، والسيد عبد القادر بن شيخ العيدروس في «تاريخ النور السافر».

وكانت وفاة السيد أبي بكر بن عبد الله (العيدروس) في عدن في شهر شوال ٩١٤هـ، ودفن خارج مسجده مباشرة، وبنى السلطان عامر بن عبد الوهاب على قبره قبّة عظيمة، كما يقول السيد محمد الطيب بن عمر البافقيه[1]. وبنى الأمير مرجان الظافري (وهو مولى للطاهريين حكم عدن) رباطاً كبيراً ملحقاً بالمسجد لطلبة العلم وداراً كبيرة لسكنى الشيخ القائم بالتربة والمسجد. ثم بنى الشيخ محمد بن عبد الملك ثلاثة أروقة محيطة بالقبّة.

وللإمام العيدروس العدني ديوان جمعه تلميذه عبد اللطيف باوزير، ورسالة في الخرقة وتاريخها وما ورد فيها. وذكر أن الأحاديث التي رويت فيها لا تصح. وأنها حدثت بعد العهد النبوي.. وقد طبع «بالجزء اللطيف في التحكيم الشريف» مع الديوان. ومقدمة ضافية من تلميذه الشيخ عبد اللطيف باوزير. واعتبر الخرقة وإلباسها بدعة حسنة، ووضع فصلاً طويلاً في تعريف البدع والبدع الحسنة والبدع السيئة وأتى بالأدلة الشرعية لذلك.

مناقب وصفات السيد أبي بكر العيدروس العدني

كما ذكرها تلميذه وجامع ديوانه وكلامه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن باوزير

يعتبر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن باوزير من خواص الآخذين عن السيد أبي بكر العيدروس العدني، فقد صحبه سنيناً طويلة ولازم مجالسه العامة والخاصة. وجمع أشعار العيدروس العدني: «محجة السالك وحجة الناسك»، وصدّره بمقدمة مسهبة عن مناقب العدني وعلومه وكراماته. وقد طبع الديوان مع كتاب الجزء اللطيف في التحكيم الشريف (طبعه البابي الحلبي بمصر طبعتين آخرهما سنة ١٩٣٦م).

---

(١) تاريخ الشحر، ص٨٦.

وقد ذكر الشيخ عبد اللطيف باوزير في مقدمته صفات العيدروس العدني الخُلُقية والخَلْقيَّة (البدنية) وقال: «وشيخنا ﵁ أعلم أهل زمانه بالسنة وأقومهم عليها، وآمرهم باتباع الملّة وأحبّهم فيها، ولقد رأيت علماء الحديث والأصول والفروع وغيرهم يأتون إليه، فيملي على كلٍّ في فنِّه حتى يفحمهم؟ سمعته ﵁، ينقل إليهم: قال فلان في كتاب كذا، وقال فلان في كتاب كذا، كأن جميع الكتب من الحديث والأصول والفروع والدقائق على طرف لسانه، نقل مسطرة. ومع هذا أنه يذكر في الرجاء حتى يتحقّق أنه أرجى خلق الله، وإذا وعظ يتحقّق أنه أخوف خلق الله، يحبّ من الأمور ما تيسّر، ويكره ما تعسّر، لأن النبيّ ﷺ ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما»...

وقال ﵁: «عليكم بتقوى الله فإن الله تعالى يقول: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧). وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال ﵁: «عليكم بحسن الظنّ في الله ﷻ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧)، قال: والإيمان: هو حسن الظنّ والتصديق. وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: ٥٤)..

وقال في حديث الأعرابي لما سأله عن الساعة؟ فقال له: ما أعددت لها؟ قال: حبُّ الله ورسوله، فقال ﷺ: أنت مع من أحببت». وحسن الظن دليل على السعادة ويرجى لصاحبه حسن الخاتمة...

وقال في بعض قصائده:

ربِّي بك أحسنتُ ظنِّي فإنــه خــير ملــزمْ
وإنــه الكنــزُ الأكــبرُ وإنــه الاســم الأعظـمْ

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء». وأكثر ما يوصي في حسن الظن، وقال: «هو أوفى عمل يقرّب إلى الله تعالى، لأن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، وقال أيضاً: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم، ولكن إلى قلوبكم». وقال أيضاً: «فكر ساعة أفضل من عبادة سنة». احذروا سوء الظن فإنه دليل على الشقاوة، ويُخشى على صاحبه سوء الخاتمة، والعياذ بالله.

وقال: ما أفلح صاحب سوء الظن وإن أصاب... وقال الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ ﴾ (البقرة: ٢١٦)، وقال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وقال: «دَع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

وقال: لا تأتي البركة من عالم الغيب إلا بواسطة حركة من عالم الشهادة، وعليه الدليل بقوله تعالى جلّ وعلا لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ (مريم: ٢٥) الآية، ولموسى عليه السلام: ﴿ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَ ﴾ (الأعراف: ١٦٠)،﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَ ﴾ (البقرة: ٦٠)، فجعل الهزّ (من مريم) وحركة العصا (من موسى) من عالم الشهادة سبباً للبركة النازلة من عالم الغيب، على غالب مقدوراته في العادة، وعلى الجملة فله المستحيلات ممكنات، لا حصر لعطائه ولا رادّ لقضائه». وهذا هو الأخذ بالأسباب مع التوكّل الكامل على الله سبحانه وتعالى. وهو المذهب الحق.

وكان ينهى أشد النهي عن الغيبة والنميمة، ولا يسمح لأحد أن يذكر أحداً بسوء في مجلسه، ويكرر عليهم الآيات والأحاديث في التنفير منهما، ومن الكبر والحسد والعجب وأمراض النفوس.

وكان يدعو بهذه الدعوات: «اللّٰهمّ أجرنا من غير ضرر، وأغنِنا من غير بطر، اللّٰهمّ أجرنا من غير ابتلاء، وأغنِنا من غير امتلاء»، وغالب دعائه: «اللّٰهمّ ارزقنا من العقول أوفرها، ومن الأذهان أصفاها، ومن الأعمال أزكاها، ومن الأخلاق أطيبها، ومن الأرزاق أجزلها، ومن العافية أكملها، ومن الدنيا خيرها، ومن الآخرة نعيمها، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم»[1].

وقد وضع الشيخ عبد اللطيف باوزير فصلاً في كراماته العديدة، ومنها: «أنه يحبّه طوائف الفقهاء والصالحين[2]، وتخضع لهيبته الجبابرة والسلاطين، تكاد تنفطر القلوب لهيبته مع الانبساط، وتكاد محبته تسلب النفوس من حسن الأخلاق».

ومنها: «أنه ﷺ يخاطب كلًّا مِنّا بما في ضميره ويخبره بما جرى له في غيبته عنه.. وأتى إليه رجل من يافع يُسمّى سعداً وهو فزع على زوجته، وهي تتمخض بالولادة، فقال له الشيخ: لا تشجن (من الشجَن)، امرأتك تسلمْ والولد يموت، ويأتيك بعده ولد آخر يسلم ويكون مباركاً إن شاء الله تعالى. فكان كما قال.

---

(١) قال الحبيب جعفر بن أحمد العيدروس عن العلّامة علوي بن طاهر الحدّاد أنه لا يوجد دعاء من أدعية السلف الصالح أنفع وأجمع من هذا الدعاء.

(٢) ومن كرامة المؤمن أن يضع الله له المحبّة في القلوب، فإذا أحبّه الله أحبّته الملائكة، وإذا أحبّته الملائكة أحبّه الناس.

وذكر له كثيراً من الكرامات، ومنها: «أنه مرّ على ساحل الطوالقة ومعه خلق عند توجهه إلى بيت الله الحرام سنة ٨٨٠هـ ، فأرادوا أن ينهبوا قافلته فمنعهم. فقالوا: نترك جملك ومالك ونأخذ الآخرين. قال: لا. فقالوا للشيخ: إن اشترطت لنا ثلاث خصال نترك الجميع. فقال: وما خصالكم؟ قالوا: نريد الصلح مع الدولة (الطاهرية)، ولنا عادة في أرض أبْين يردّونها لنا، والثالثة نريد الغيث. فقال الشيخ: تمّ ذلك إن شاء الله تعالى. فأصلح بينهم وبين الدولة، وردّوا لهم أرضهم، ووقع لهم الغيث من الله تعالى. **وهذه كرامة من جهة، وعمل إصلاحي اجتماعي من جهة أخرى.**

ومن كراماته ما جرى بينه وبين صديقه السلطان عامر بن عبد الوهاب حيث كان يبشّره بالمواليد قبل أن تلدهم أمهاتهم ويسميهم له.

وبشّره بفتح بلدان كثيرة مثل يافع ودثينة وجبن وغيرها. ولمّا تجهز السلطان عامر بن عبد الوهاب لغزو صنعاء، أشار عليه بالترك، فلم يفعل. فانهزم، وقال لمن تحدث عن الهزيمة:

إن الحروب سجال في أمر القضا ... لا بُدّ أن يُلقى عليك سجالها
صبراً قليلاً أن دولتكم لنا ... قد آذن الرحمٰن بزوالها

ثم بعد سنتين أشار الشيخ على السلطان بالطلوع إليها، وأنه يأخذها في رمضان تلك السنة بإذن الله، فكان كما قال.

وهذا يوضح دور العيدروس السياسي وعلاقته الوطيدة مع عامر بن عبدالوهاب الطاهري المنسوب إلى عمر بن عبد العزيز الأموي القرشي خامس الخلفاء الراشدين[1].

(١) ذكر ذلك ابن الديبع، والطيب بامخرمة، والطيب محمد بن عمر بافقيه، والعيدروس العدني، وغيرهم.

وعندما توفى والد عامر بن عبد الوهاب السلطان عبد الوهاب بن داود، تكاثر الأعداء على عامر، فوقف الشيخ معه موقفاً مؤيداً. وكان خال عامر بن عبد الوهاب خالفه، وهو عبد الله بن عامر، وانضم إليه خلق كثير، فقام العيدروس بجهوده الجبارة في الصلح بينهم، وأخذ عليهم المواثيق والعهود بذلك، فنكث عبد الله بن عامر فأنشأ العيدروس قصيدة جاء فيها:

قولوا لمن نقضَ العهـودْ يكون عذرك عليك لا لكْ
لا بـدّ تهزمـك الجنـودْ ولا يفـي يـا ذاك أمَلُـكْ
فـسوف توثقـك القيـودْ وينقضي بعد ذلك أجَلُـكْ

فكان كما قال: هزمته الجنود، ووُثِّق بالقيود، وانقضى، من بعد، أجله. لهذا كانت مكانة العيدروس عند عامر بن عبد الوهاب كبيرة جداً.

ولا شك أن العيدروس قد لعب دوراً هامًّا في هذه الأحداث السياسية الخطيرة... وكان عامر بن عبد الوهاب يحترم العيدروس ويعتقد ولايته، كما كان ينصاع لنصائحه في معظم الأحيان. وأما المال فقد كان يغدقه عليه لأنه يعرف أن العيدروس ينفقه في الفقراء والمساكين وفي طلبة العلم وفي بيته المفتوح للضيفان ليلاً نهاراً.

وهذا عمل اجتماعيّ هامّ يقوم به العيدروس وتتمكن به دعائم الدولة، ويزداد حبّ الناس لهذا السلطان العادل الذي أقام العديد من المآثر، ومن تلك المآثر إسهامه الكبير في دعم العيدروس ماليًّا.

وإذ أعلن العيدروس محبّته للسلطان، فقد كسب السلطان محبّة الرعيّة، وهو أمر يقدّره الحكّام وولاة الأمر، وهو ما يوازي في عصرنا أهمية أجهزة الإعلام. فقد كانت قصائد العيدروس ومدائحه في عامر بن عبد الوهاب تتلى وتُحفظ

ويرددها الناس، فكان ذلك أبلغ دعاية للسلطان عامر بن عبد الوهاب، وأهم ركيزة من ركائز حكمه وبقاء سلطانه[1].

إذن للعيدروس العدني عدة وظائف اجتماعية هامة هي:

(١) تعليم الدين (الفقه، الحديث وعلوم اللغة... إلخ.) لطلبته خاصة، ولأهل عدن عامة.

(٢) المواعظ والدروس العامة.

(٣) تهذيب الأخلاق لطلبته خاصة، ولمن يلوذون به عامة.

(٤) الكرم الفائض ومساعدة الفقراء والأرامل والمحتاجين والأيتام والإنفاق المستمر على كثيرٍ منهم. وفتح داره للضيفان ولمن أراد أن يأكل من الفقراء وخاصة في شهر رمضان، حيث كان يذبح كل ليلة أكثر من ثلاثين رأساً من الغنم.

(٥) المساعدة في حل مشاكل الناس سواء أكانت مشاكل أسرية أو اجتماعية.

(٦) الدور السياسي الهام جداً في توجيه الحكم، والصلح بين القبائل المتحاربة، أو المجموعات الخارجة عن السلطان (عامر بن عبد الوهاب).. ومحاولة الصلح بين أفراد الأسرة الحاكمة من آل طاهر عند اختلافهم، وأخذ العهود منهم.

---

(١) سوف نخصّص في الجزء الثاني، فصلاً للحديث عن مآثر الطاهريين، وخاصة عامر ابن عبد الوهاب، فقد أقاموا العديد من المساجد والمدارس وحفروا الآبار، وبنوا الصهاريج، وأصلحوا الطرق، ووطّدوا الأمن، وفتحوا الباب للتجارة وخاصة في عدن، وأصلحوا القيسارات (الأسواق) والخانات، ووسّعوا أرصفة الميناء في صيرة، وبنوا الأسوار لحماية المدينة، وجدّدوا ما تهدّم منها... إلخ.

وكان للعيدروس العدني دور هام في تثبيت الأمن والإصلاح بين القبائل والدولة، فإذا نقضت إحدى هذه القبائل العهود، انقلب ضدها وأفتى الدولة بمحاربتها، بل وشجَّعها على ذلك شعراً ونثراً عندما تقوم تلك القبيلة بالحرابة وقطع الطريق وقتل الآمنين وترويعهم.

وقد كانت للطاهريين مآثر كثيرة، مثل: بناء المدارس والمساجد والسدود والصهاريج والآبار، والاهتمام بنشر العدل والأمن في البلاد. وكادوا يوحّدون اليمن كلها إلى ظفار. وخالفوا ما كان يفعله كثير من حكام المسلمين من المصادرة عند وفاة غني، وأخذ معظم أمواله وترك القليل منها للورثة، وقد لا يتركون لهم إلا الفتات. كما تورعوا عن الاستيلاء على أموال الأوقاف الإسلامية، وهي كثيرة جدًّا. وكان كثير من الحكام لا يتورّعون عن ذلك.

وللأسف فإن عامر بن عبد الوهاب عندما احتاج للأموال في حربه سطا على أموال الأوقاف. وعارضه الفقهاء ونبّهوه على عدم جواز ذلك. وكان أشدّهم في ذلك صديقه الإمام أبا بكر بن عبد الله العيدروس العدني. وأنكر عليه ذلك علناً في بعض قصائده. ولم يلبث بعدها إلا قليلاً جداً حتى تكالبت عليه المِحَن وقُتل وانتهى ملكه، وتزعزع حكم آل طاهر (سنذكر ذلك عند الحديث عن الدولة الطاهرية في فصل خاص). وسبب نقص الأموال: دخول البرتغال إلى الهند وبحر العرب ومهاجمتها لموانئ الخليج والشحر وعدن، ومهاجمتها للسفن التجارية وقتل من فيها واستيلاؤهم على البضائع، فركدت التجارة وقلّ الدخل.

العيدروس شاعراً

لقد كان العيدروس العدني ذا مواهب متعددة، فهو عَلَمٌ في الفقه والحديث والتفسير والتصوّف وعلوم اللغة العربية. وهو أيضاً شاعر رقيق العبارة، وتغلُب على شعره الأشواق الروحية والاتجاهات الصوفية والدعوات الربانية.

ومن ذلك قوله:

نـادِ القلـوب لعلّهـا	أن تـستفيق لعلّهـا
فقلوبنـا قـد أُسـقيتْ	نهـل الـذنوب وعلَّهـا[1]
تحيَـا بوبـل غيـوثكم	إن لم يكـن فبطلّهـا[2]
إن لم تُـداوى مـنكم	يا أهل الشفاء، فمـن لهـا
منّـوا عليهـا بـالرضى	وبفـتح مُغلـق قُفلهـا
بطلوع شـمس رضـاكم	سـيزول غيهـب جهلهـا
لما بدت شـمس الرسـل	نـارَ الوجـود لأهلهـا[3]
فبـصائر أهـل الاقتـدا	والاهتـدا يُكـشف لهـا
عنهـا فتنظـر نورهـا	وبهاءهـا وجمالهـا
وغدت خفافيش الهـوى	لا يهتـدون محلّهـا
ويكـذّبوا مـن يخـبروا	عنهـا وينفـوا فـضلها
حُكْـما ووقفـت حيـثما	وُقفـتْ هنـاك عقولهـا

---

(١) النهل: هو الشرب الأول والعلّ هو الشرب الثاني. يقول العيدروس إن قلوبنا قد سُقيت من الذنوب أولاً وآخراً، فقد آن لها أن تستفيق من هذه الذنوب وترجع إلى بارئها.

(٢) الوبل: المطر الغزير، والطلّ: المطر الخفيف، يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

(٣) نارَ الوجود، أي أنار الوجود.

في العـــالم الحـــسي غـــا يـــة علمهـــا ونقولهـــا
لم تـدرِ مـا علـم اليقـين ولا يمـــــــرُّ ببالهـــــا
إنّ القلــوبَ إذا انجــلى بالــذكر ريــن ضــلالهِا
وتقدَّســـتْ وتطهَّـــرتْ عـــن خُبثهـــا أو غِلّهـــا
عَلِمتْ حقيقة مـا عليهـا في الكتـــاب ومـــا لهـــا
ورقـــتْ مـــن التقليـــد إلى تحقيق صدق رسـولها
لو انكشف عنهـا الغطـا مـا زادهـا صـدقاً لهـا
يـــا ربِّ إن قلوبنـــــا صدئت كثيراً فاجْلِهـا[1]
وانقادهـــا وسواســـها وأوهامهـــا وخيالهـــا[2]
فغـدت تـصدّق كاذبًـا مـــن مـــستحيل آمالهـــا
وظهورنـــا بأوزارنـــا كـــادت تـــئطُّ لثقلهـــا
ولكـــم تناهـــت أزمـــة ونـــسيمُ لطفـــك حلّهـــا
ولكمْ بدت من معـضلا ت، فيض فـضلك زالهـا
ولكـمْ قلـوبٌ أبـصرتْ وقلوبنـــا أنّـــى لهـــا
نرجـــو بحـــقِّ محمّـــدٍ يُـــصْلِحْ قبـــيحَ فعالهـــا
صـــلّى عليـــه ربُّنـــا ما عيس[3] جدّ رحيلهـا

---

(١) فاجْلِها: من الجلاء والوضوح، وكل ما يصدأ يحتاج إلى الجـلاء، وكـذلك القلـوب إذا صَدِئت.

(٢) أي وانقادت إلى وساوس الـشيطان والهـوى والأوهـام والخيـالات حتـى غـدت تصدّق الكاذب من آمالها.

(٣) العيس هي النوق والجمال تسافر في الصحراء. وهو يتحدث عن هذه العيس ومـن عليها الذين ذهبوا شوقاً إلى رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة (يثرب) التي فخرت على جميع بقاع الأرض بدفن رسول الله ﷺ فيها. قال العلماء: إن موضع القـبر الـشريف أفضل من الكعبة ذاتها لوجود جسد محمّد ﷺ فيه.

إلى ضريـح قـد زهـت بـه يثـربٌ وأهيلهـا
فخـرتْ بجـسم محمّـد طـوبى لهـا طـوبى لهـا
فيـا لهـا مـن بقعـة حـوت السيادة! يـا لهـا
فخـرت جميـع بقاعهـا مـن وعرهـا وسـهالها
واخـتم سـلاماً دائـماً بعـد الـصلاة وقبلهـا
وارجـع لقولـك أولاً نـادِ القلـوب لعلّهـا

هي قصيدة تدعو القلوب أن تستفيق من غفلتها وذنوبها، وأن تؤوب إلى الله سبحانه وتعالى، والهداية منه سبحانه وتعالى، لعل الله أن ينزل عليها وابلاً صيّباً من رحمته، فإن لم يكن وابل، فطلّ.

ويسأل الله سبحانه وتعالى أن يبسط عليها رضاه ورحمته حتى ينجلي عنها الران، وتستنير بأنوار الرسل الكرام، وتهتدي بما نزل من القرآن والسنّة. وأن لا يكتفوا بالعالم الحسيّ، بل عليهم أن يلجوا إلى العالم النوراني الروحي، وذلك لا يتم إلا بالمداومة على الذكر واتباع الشرع وإخلاص النيّة والاعتراف بالذنب وبالتقصير.

وعندما سُئل عن الحقيقة والشريعة أجاب بجواب طويل، ثم قال:

«وعلى الجملة! إن الشريعة اتّباعك أوامره، وهو الإسلام والإيمان. والحقيقة هي إقامتك بأمره كأنك تراه وكأنه يراك، وهو مقام الإحسان.

وإن شئت قُلتَ الشريعة علم، ومعلومها الطريقة، وهي العمل، وثمرتها الوصول إلى الله، وهو الحقيقة. وليس الوصول بسعي الأقدام، ولا بقُرب المسافة وبُعدها، وإنما سعيك إليه بتوفيقه، وسعيه إليك برحمته، علم ذلك من

علمه، وجهله من جهله. وتحت هذا علم وفيّ، وسرٌّ خفيّ، والناس في أضغاث أحلام. اللّهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[١].

وقال ﷺ في التوحيد:

لاحت شموس المشاهده ... وزال إشـكالها الـشهودْ
وأبـدت يقينـاً محقّقـاً ... مـن غـير ريـبٍ ولا جحـودْ
بأنـه الواحـد الأحـد ... مـن قبـل أن يوجـد الوجـودْ
مظـاهر الآخـر الأبـد ... الأول الأزلي يعـودْ
فقفْ وقـل لا سـواه قـط ... في كـل مـا يمنـع أو يجـودْ
وكـن لـه عبـداً مطلقـاً ... إن العلـل كلهـا قيـودْ
يـا حبّـذا منهـل الرضـا ... في مـصدري وفي الـورودْ[٢]
ومـن رقـا رتبـة الرضـا ... فقـد رقـى غايـة الـصعودْ
لا هـمَّ لا غـمَّ يعتريـه ... غـير المـسرّات والـسعودْ
فهـو بجنّـاتِ أُنـسهِ ... وبعـدها جنّـة الخلـودْ

إلى أن قال:

بـل عـاد فـضله وجـوده ... فجـودهُ أصـل كـلّ جـودْ
اسـتغفر الله دائـماً ... مـع قيـامٍ ومـعْ قعـودْ
تمّـتْ وصـلّوا عـلى النبـيّ ... ما جلجلت في السحبِ رعودْ

---

(١) الجزء اللطيف في التحكيم الشريف، ويليه ديوان محجّة السالك وحجّة الناسك، للإمام أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر المشهور بالعيدروس العدني، ط٢، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٦م، ص٦٧.

(٢) مقام الرضا هو من أعلى المقامات عند أهل الله، وهو مرحلة بعد مقام الصبر (رضي الله عنهم وأرضاهم). والإصدار: الذهاب، والورود: العودة، أي في كل أمر من أمور حياته.

وقال أيضاً:

هبَّــتْ نــسيم المواصــلة بــلا اتــصال ولا انفــصالْ
بمقتــضى مطلــع خفــيّ ولــيس للعلــم بــه مجــالْ
لأنــــه ثمـــرة اليقـــين ومرتقـــى رتبـــة الكـــمالْ
فالاقتــداء ثــم الاهتــداء والاصطفاء حال فـوق حـالْ
فمـــن لـــزم مـــا أُمـــر بـــه مـــن العمـــل واليقـــين نـــالْ
حلـــول جنّـــات أنـــسه ويجتنـــي ثمـــرةَ الوصـــالْ
هـــذه علـــوم محقَّقـــة رجالهـــا نعـــمَ الرجـــالْ
قــد اقتــدوا ثــم جاهــدوا وشــاهدوا فــانتفى المحــالْ

قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وقال الإمام عبد الله الحداد:

جاهد تشاهد واغنم الوعد بالهدى هُــدى نــصَّه في العنكبــوت بآيــةِ
حافظ على المفروض من كل طاعةٍ وأكثــرْ مــن النفــل المفيــد لقربــةِ
بكنــتُ لــه ســمعاً إلى آخــر النبــا عــن الله في نــصِّ الرســول المثبَّــتِ

ولا شك أن من أخلص العبادة لله فتح الله له من المعارف والأسرار ما لا يخطر ببال. وهؤلاء القوم في سعادة، فقد بلغوا مقام الرضا، فرضي الله عنهم وأرضاهم. وفي الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري: «لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني

لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه».. أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق في باب التواضع.

ولهذا قال العيدروس:

قد اقتدوا ثم جاهـدوا وشاهدوا فانتفى المحال
علـم اليقـين ثـم عينـه بل حقّه ما بقي احتمال
فنوا عن الكـون جملـة لمـا بـدا طـالع الجـلال
وأحياهم بعـد مـوتهم بالجمع في مشهد الجمال
حتـى صـفا إبريـزهم فلا يساويه قـطّ مـال[1]

وله قصيدة يردُّ فيها على من لامه وعذله في كرمه الفائض حتى استدان، فقال:

وآمرةٌ بالبخل قلتُ لها اقـصري فإحـسانُ ربّ العـالمين جزيـلُ
فإني وإن ساءت ظنون عشيرتي عـليّ فظنِّـي في الإلٰـه جميـلُ
ولم أستطع أن أُهن عزَّ منـصبي وأجمـع مـالاً لـست منـه أُنيـلُ
وإني امرؤ مـا أجمـع المـال نيّتـي لذخرٍ وما عندي لـذاك سـبيلُ
ولكنني أنفقتُ في الأجر والعُلا أيـسمعُ فيَّ ذا قـاصرٌ وبخيـلُ
فكم مـن قليـل كثَّـر الله فيـه لي كثـيراً وبالـضدِّ الكثـيرُ قليـلُ
أأجمـع مـالاً للرجـال تحـوزه وإثمـي بـه حمـلا عـليَّ ثقيـلُ

(١) انظر الرسالة القشيرية وغيرها من كتب القوم في ذكر المقامات والفناء وأنواعه، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. وقد نقلت من أقوال القوم وأقوال ابن تيمية ما يكفي في كتابي: الأخلاق أصولها الدينية وجذورها الفلسفية، الجزء الثاني.

سأبني به حصناً من المجد عالياً   وأكسبْ به أجراً فنعمَ بديلُ
فما هذه الدنيا بدار إقامةٍ   كأني بها قد أزعجتكَ رحيلُ
فذي ساعة ما المال فيها بنافعٍ   ولا ينفعنّك صاحبٌ وخليلُ
سوى كلِّ ما قدَّمته من محاسنٍ   فكن محسناً يُحسنْ إليك جليلُ
توكّل عليه وأحسن الظن راجياً   لأفضاله فاللَّه نِعمَ كفيلُ
فمن عزّ بالخلّاق فهو معظّمٌ   ومن عزّ بالمخلوقِ فهو ذليلُ
فإنَّ على المولى كفالةَ عبدهِ   فكن واثقاً بالله نعم كفيلُ
وأفضل ختْمِ القولِ ذكرُ محمَّدٍ   فصلّوا على المختار نِعمَ رسولُ

وله قصيدة في الشوق إلى عدن التي استوطنها وأحبَّها فأحبّته، يقول فيها:

هزَّني الشوق إلى عدنْ   شُدّ يا حادي الركابْ
شوقنا ازداد والوسنْ   عن جفوني نزح وغابْ
خاطري قطّ ما سكنْ   مذ جاء منهم كتابْ
هل درى وردي الوجنْ   ما بقلبي من اضطرابْ
لونه[1] يمسّك حين فاح   ما يماثله قطّ طيبْ
أو كما البارد القراح   أو كما المندل الرطيبْ
لا غِنى لي ولا سراح   عنك والله يا حبيبْ
وجهك الباقي الحسنْ   شمس ما دونها حجابْ

والديوان مليء بالقصائد من هذا القبيل.

وفيه أيضاً مدائح **لعامر بن عبدالوهاب** لما كان بينهما من الوشائج. وكان عامر بن عبد الوهاب من خيرة الحكام في عصره، وقد مدحه بقصائد كثيرة

(١) المفروض أن يقول ريحه، لأن المسك له الرائحة الزكية.

وذكر أنه مقيمٌ لشرع الله، حافظٌ له، ناشرٌ للعدل. ومن ذلك قوله يبشّره بالنصر على الأعداء (سنة ٩٠٧هـ):

عنايـــاتٌ وتيـــسيرٌ بيُـــسْرٍ ... ولطــفٌ شـــاملٌ ودوامُ نـــصرِ
وتأييـــدٌ مـــن المـــولى تعـــالى ... وحفــظٌ مـــانعٌ مـــن كـــل ضرٍّ
وفــتحٌ عــن قريــبٍ في عـــلاءٍ ... وعافيـــةٍ مؤيـــدةٍ وســـترِ
بتوفيـــقٍ وتـــسديدٍ وعـــزٍّ ... وقهـــرٍ للعـــداءِ وطـــولِ عمـــرِ
لمولانـــا الإمـــامِ ومـــن ترقّـــى ... عـــلى كـــلِّ الملـــوكِ بكـــلِّ فخْـــرِ
بحمــد الله مــا لــكَ مــن نظــيرٍ ... ولا مـــشبّهْكَ في بـــرٍّ وبحْـــرِ
ولا مـــشبّهْكَ في ديـــنٍ وعقـــلٍ ... ولا مـــشبّهكَ في عـــدلٍ وبِـــرِّ
فأنت عـلى الـشريعةِ لا خـلافٌ ... لمـــــا قلنـــــاهُ في سرٍّ وجهـــــرِ

إلى آخر تلك القصيدة.

وفي عام ٩١٠هـ أنشأ العيدروس قصيدة يمدحه فيها وخاصة بعد أخذ صنعاء، وكان العيدروس قد بشّره بذلك من قبل. قال:

يـــا عـــامراً لمكـــارم ومـــآثرٍ ... وفــضائلٍ ومناقــبٍ ومفــاخرِ
يــا راقيــاً أوجَ العــلاءِ ونــاصراً ... دينَ الإلٰهِ أكـرمْ بـه مـن نـاصرِ
يا كاشفاً كلّ الكـروبِ وشـافياً ... بالثـــأرِ كـــمْ داءٍ قـــديمٍ داثـــرِ

إلى آخر القصيدة الرنانة.

وامتدح سلطان زيلع (وكانت دولة قوية وحاكمها محافظ على الشريعة. وزيلع شبه مهدّمة الآن، وهي في الصومال البريطاني سابقاً وتدعى بلاد بونت) واسمه **ناصر الدين بن عبد الله باحلوان**:

ألا يـا نـاصر الـدين المـسمّى　　بنـصرِ الـدينِ أُكفيـتَ الهمـومُ
نُصِرْتَ على الجميعِ بنـصرِ ربِّي　　وأعطـاكَ المهـيمِنُ مـا تـرومُ
ولا زالـتْ لـك الأيّـامُ سـعدٌ　　وأيـامُ الـذي يـشناكَ شـومُ
فطِبْ نفساً بما قـد قلـتُ حقًّـا　　بهذا القولِ قد حكَـمَ الحكـيمُ

وللعيدروس شعر غزلي على طريقة الصوفية، وليس مقصودهم امرأة بعينها ولكن مقصودهم المقامات العليّة، وكذلك ذكر المُدام والكؤوس والطلى... وكلها لا علاقة لها بالخمر الأثيمة. وله شعر باللهجة الدارجة (الحميني) ممزوجاً بالفصحى وهو كثير ويخاطب به العامة.

العيدروس والغزو البرتغالي

لم يكتفِ العيدروس العدني بكونه إماماً وداعية، وشيخاً للفقهاء وطلبة العلم، ومصلحاً اجتماعيًّا وكريماً جواداً يساهم في محاربة الفقر والعوز، وينشر المحبة والوئام بين فئات المجتمع، ولكنه لعب دوراً سياسيًّا هامًّا - كما أسلفنا في الصفحات السابقة - وهيّأ المجتمع لمقاومة الغزو البرتغالي الذي حدث لعدن والشحر بعد وفاته. وقد سمع محاولات البرتغال واعتداءاتهم على سواحل شرق إفريقيا وعلى الهند (وكانت تحكم من قِبل المسلمين في زمنه). وقد غزا البرتغاليون هرمز وعمان واحتلّوا مناطق منها، كما احتلّوا سقطرى عام ٩١٢هـ / ١٥٠٧م. وسمع العيدروس بذلك كله فهيّأ النفوس للمقاومة والاستعداد لمحاربتهم.

وتوفى العيدروس سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٩م وكان غزو البرتغال لعدن عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م لأول مرة بعد وفاة العيدروس بخمس سنوات، وتمكَّن أهل عدن من صدِّهم وقتالهم من الشوارع، ووقف حاكم عدن مرجان الظافري (وهو مولى لآل طاهر) من محاربتهم وهزيمتهم موقفاً شجاعاً وقويًّا. ثم قاموا بحملة ثانية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وانهزموا فيها أيضاً. فاندفع البرتغاليون إلى الشحر يريدون الاستيلاء عليها فقاومهم الأهالي مقاومة باسلة وكان للعلماء الأجلَّاء الدور الأول والأهمّ في المقاومة بالسلاح الأبيض، ولم يكونوا يعرفون البنادق، واضطر البرتغاليون للانسحاب بعد أن تكبّدوا خسائر في الأرواح، ولكنهم قتلوا العديد من أبناء الشحر الأبطال وعلى رأسهم الشهداء السبعة.

ثم جاء البرتغاليون بقوة أكبر عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م محاولين الانتقام، فوجدوا السلطان بدر أبو طويرة الكثيري قد استعدّ لهم.. وانتصر عليهم.

وسنفرد فصلاً خاصًّا للبرتغال واعتداءاتهم على عدن والشحر وسقطرى

وسنشير إلى اعتداءاتهم في الخليج (العربي) وما جاورها (في الجزء الثاني من هذا الكتاب).

وقد ذكر كتاب أولياء الله الصالحين (دراسة أنثروبولوجية حول العيدروس) للباحثين ممدوح ناصر فدعق، ونورا محمد الشامي، وراقية علي السفاري وماجدة، عبد المجيد، وإياد علي الدبج (ص٣٦): «ويجدر بالذكر بأن عند غزو البرتغال لليمن قد استشهد أخوه حسين بن عبد الله العيدروس ضمن الشهداء السبعة بمدينة الشحر بحضرموت». وهذا القول غير صحيح لأن الغزو البرتغالي للشحر أول مرة كان عام ٩٢٣هـ. وكان الحسين بن عبد الله العيدروس قد توفى عام ٩١٧هـ ودُفن في تريم.

وبمراجعة كتاب الأستاذ محمد عبد القادر بامطرّف «الشهداء السبعة»[1] وهو الكتاب المرجع في هذه الواقعة لأنه ينقل عن شاهد عيان هو الربان باسبّاع الذي كتب الأحداث كاملة باللهجة الدارجة، ونقلها البامطرف بكل أمانة إلى اللغة العربية الفصحى مع بعض الجمل الخاصة للربان باسبّاع.

«ولمّا وصلت سفن البرتغاليين إلى ميناء الشحر، نزل ثلاثة جنود يحملون رسالة من القائد لويز دي منزيس إلى السلطان بدر أبي طويرق (الذي كان غائباً عن الشحر في جولة تفقدية في الداخل)، وقابلوا نائبه الأمير مطران وسلّموه رسالة قائدهم. ومضمون الرسالة أن تاجراً برتغاليًّا اسمه ألفونسو دي فيجا (Alfonso de Veiga) مات في الشحر منذ خمسة أشهر، وأن السلطان بدر استولى على أمواله، وأن قائد الأسطول يطلب تسليم الأموال بدون تأخير.

---

(١) محمد عبد القادر بامطرف: الشهداء السبعة، وزارة الثقافة والسياحة باليمن الديمقراطية بالتعاون مع الحكومة العراقية، بغداد ١٩٤٧م، ص ٦٥- ٨١. وقد تكرّم الأستاذ محمد باغميان فأعارني نسخته الخاصة، لأنني لم أجد الكتاب في المكتبات.

وردّ الأمير مطران أنه لا يعلم شيئاً عن تلك القصة، وأنّ السلطان بدر سيأتي خلال أيام وسوف يبذل كل اهتمام بهذه القضية، وأرسل مع الجنود هدية للقائد.

وكان الأمير مطران قد بلغه ما فعله البرتغاليون بمدينة الحامي من أضرار بالسفن الراسية بها والمزارع الساحلية، فأراد أن يلاطفهم حتى يأتي السلطان بدر.

ودعا الأمير مطران أعيان المدينة للاجتماع لتدارس الأمر (لعدم وجود بنادق معهم وهو سلاح البرتغاليين الفتاك)، وتقرر ترحيل النساء والأطفال والممتلكات الثمينة إلى قرية تبالة الداخلية والمجاورة للشحر والتي عرفت بمياهها المعدنيّة الحارّة التي يُستشفى بها.

وتبيّن عزم القائد البرتغالي على الهجوم عندما ردّ الهدية بكل جفوة، واتخذ قصة البرتغالي الذي مات في الشحر المزعومة، حجة للهجوم على الشحر، ولذا عزم الأمير مطران على المقاومة الأهلية وطلب الاجتماع بالآتية أسماءهم:

١- الفقيه الشيخ أحمد بن عبد الله بالحاج بافضل، مدير مدرسة بافضل في الشحر (وهو من تريم أصلاً).

٢- السيد حسين بن عبد الله العيدروس وكان يعمل بالتجارة. وهو - دون ريب - ليس السيد حسين بن عبد الله العيدروس أخا أبي بكر العيدروس العدني، لأنه قد توفى سنة ٩١٧هـ ودفن في مدينة تريم. ولعله حسين بن عبد الله بن شيخ العيدروس، أو أحد أقارب العيدروس العدني. وهذا يوضح سبب الالتباس الذي وقع فيه أصحاب كتاب «أولياء الله الصالحين ، دراسة أنثروبولوجية حول العيدروس»[1].

---

(١) ممدوح ناصر فدعق، ونورا محمد الشامي، وراقية علي السفاري، وماجدة عبدالمجيد وإياد علي الدبج: «أولياء الله الصالحين، دراسة أنثروبولوجية حول العيدروس»، بحث جامعي (جامعة عدن)، غير مطبوع.

٣- الشيخ سالم بن صالح باعوين المهري التاجر.
٤- الفقيه العلامة الشيخ يعقوب بن صالح الحريضي (نسبة إلى حريضة في دوعن) مدير مدرسة باهارون.
٥- الشيخ أحمد بن رضوان بافضل- تاجر.
٦- الفقيه الشيخ فضل بن رضوان بافضل، مدير مدرسة بابهير، وهو أخُ الشيخ أحمد بن رضوان بافضل - التاجر.

وقد اتفقوا جميعاً على الآتي:

١- الإسراع بنقل النساء والأطفال إلى القرى المجاورة.
٢- تكوين قيادات من رؤساء الحارات وأعوانهم للمقاومة.
٣- تخصيص فرق لمكافحة الحرائق وإغاثة الجرحى ودفن القتلى.
٤- حثّ الناس على اجتناب السرقات والنهب والسطو على أفراد الجاليات الأجنبية المقيمين في المدينة، وعدم التعرض لممتلكاتهم بأي شكل (وهو موقف إنساني وإسلامي نبيل).
٥- أن يحثّ الشيخ أحمد بن عبد الله بلحاج بافضل المصلين اليوم التالي (يوم الجمعة) في المسجد الجامع على المقاومة والدفاع عن وطنهم وأعراضهم وأموالهم وعن فضل الجهاد.
٦- إرسال رسالة مستعجلة إلى الأمير عطيف بن علي دحدح، قائم مقام السلطان، في منطقة المشقاص لإرسال النجدة العاجلة.
٧- الدخول في حوار مطوّل لكسب الوقت مع القائد البرتغالي.
٨- إرسال تقرير عاجل إلى السلطان بدر أبو طويرق، واستعجال عودته إلى الشحر.

وقد قام كل واحد من هؤلاء بالمهمة خير قيام ووزعوا السلاح الأبيض (خناجر وسيوف ورماح وفؤوس) وللرماة أقواس وأسهم، وحجارة كبيرة

لترمى من أسطح المنازل على البرتغاليين عند دخولهم الحارات. وهكذا هبّت المدينة الصغيرة بسلاحها الأبيض وكل ما تملك لمقاومة الغازي المجرم الذي لا يتورع عن أي شيء (قتل النساء والأطفال وسبيهم – إن أمكن – وسرقة ونهب الأموال، وقتل كل من يجدونه من الرجال).

ومع بزوغ فجر الجمعة العاشر من شهر ربيع الثاني ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م نزل البرتغاليون في قواربهم الصغيرة على دفعات، وكان عددهم أربعمائة مسلحين بالبنادق النارية ومعدات الحريق، وكميات من النفط والبارود. وأول شيء فعلوه أنهم أضرموا النار في مستودعات الأخشاب، وفي أحواض بناء السفن الشراعية الممتدة على الساحل. ثم توغلوا في أزقة حارة «القرية» القريبة من الساحل، وهم يطلقون النار على كل من صادفهم من الأهالي. وبدأت معركة غير متكافئة مع الأهالي بسيوفهم وخناجرهم وفؤوسهم ورماحهم بل وعصيّهم ضد البرتغاليين المدجّجين بالبنادق النارية والأسلحة الحديثة (في ذلك الزمن).

وكم فعل البرتغاليون من الأفاعيل من حرق وقتل وإطلاق الخيل والنفط والحرائق والنهب، ومع ذلك تمكن الأهالي من قتل ٣٧ برتغالياً وقتل في المقابل ثمانون من أهل الشحر بينهم سبعة من الهندوس المقيمين في المدينة والذين قاتلوا مع الأهالي. وقُتل الستة الذين جمعهم الأمير مطران ليلة الغزو واستشارهم فهبّوا كلهم للقتال ولتحريض الناس عليه، وهم:

- الفقيه يعقوب بن صالح الحريضي.
- الفقيه أحمد بن عبد الله بلحاج بافضل.
- الفقيه فضل بن رضوان بافضل.
- التاجر سالم بن صالح باعوين المهري.
- التاجر حسين عبد الله العيدروس.
- التاجر أحمد بن رضوا ن بافضل.

واستمرت المعركة ثلاثة أيام وقتل في آخر أيامها الأمير مطران. وبعد أن تكبّد البرتغاليون خسائر فادحة، انسحبوا إلى سفنهم وشاهدوا النجدة قادمة لأهل الشحر من مشقاص (شرق الشحر)، فما كان منهم إلا أن أقلعت سفنهم.

وكان عدد البرتغاليين ١٤ سفينة محمّلة بالجنود فخذلهم الله بفضله، ثم بثبات الأمير والعلماء والتجار في المقاومة البطولية الخارقة.

ولكن، للأسف، بعد استشهاد الأمير وانفلات الأمر قام بعض الغوغائيين، وبعض من سلم من أفراد الحامية، بنهب ما تبقّى من حوانيت. ولكن دخول النجدة من جنود الأمير عطيف بن علي دحدح مدينة الشحر أعادت الأمن وألقت القبض على العابثين وأعادت المنهوبات إلى أهلها، واستتبَّ بذلك الأمن مرة أخرى.

وهكذا كان الأمير مطران قائداً للمقاومة الباسلة وأحد الشهداء السبعة، الذين تصدّوا للبرتغاليين، ونظموا المقاومة الشعبية أحسن تنظيم، واستطاعوا بوسائلهم البدائية أن يدحروا البرتغاليين ويكبّدونهم العديد من القتلى (٣٧ قتيلاً) وعشرات الجرحى حتى اضطروا للعودة إلى سفنهم، فلما رأوا النجدة التي وصلت في آخر اليوم الثالث من القتال وعلى رأسها الأمير عطيف بن علي دحدح، أطلقوا لسفنهم العنان تمخر البحر عائدين إلى قواعدهم في الهند.

وقد أورد الطيب محمد بن عمر بافقيه في كتابه «تاريخ الشحر»[1]، عن حوادث عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م ما يلي:

«وفي أوائل ربيع الثاني وصل غراب (وهو مركب كبير) من الإفرنج مأن متوه يحرر حويا (جملة غير مفهومة)، ونهب في الطريق جماعة، ثم وصل إلى

(١) الطيب محمد بن عمر بافقيه: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٢٣٠، ٢٣١.

الشحر فعلم بخبر المهرة وقتلهم الإفرنج المذكورين فأسهرا[١] من الشحر بجماعة من الإفرنج، وسار ليقطع طريق المشقاص من السواحل وغيره، ثم بعد يومين أو ثلاثة وصل الخبر أنه عند وصوله إلى بندر قشن (ميناء المهرة)، وجد جماعة كان يحشدهم السيد الشريف عبد الله بن شيخ العيدروس إلى عدن للشيخ عامر بن داود، قد تحصَّل أكثرهم في المراكب، فحصل بينه وبينهم محاذفة (أي بينهم وبين الإفرنج)، ثم إنه ضربهم بالمدافع والبنادق، ولما ضايقوه وضايقهم، رمى عليهم برم باروت فاحترق بعضهم، وغرق منهم كثير، نحو الخمسين، وغالبهم بدو ومهرة، ثم رجع الغراب (سفينة الإفرنج) إلى الشحر ومعه مركب واحد شاحن بز[٢] لجماعة من آل بادقلا يريدون جدّة، فوصل به إلى بندر الشحر، واشتراه السلطان (بدر أبو طويرق الكثيري) من الإفرنج بثلاثة آلاف أشرفي (جنيهات ذهب تم سكّها في عهد الدولة الرسولية)، ولم يمكّن أهله منه إلا بسبعة آلاف أشرفي وزيادة للوسائط نحو الثلاثمائة».

وهذا موقف مشين من السلطان الكثيري، حيث أنه اشترى بضائع منهوبة من أعداء الإسلام والمسلمين وأعدائه، وهذا يشجعهم على هذه الأفعال الإجرامية وأعمال القرصنة. ثم لم يكتفِ بذلك، بل أخذ من هؤلاء التجار الحضارم ثمن هذه البضائع مضاعفاً. وهذا أحد أسباب هزائم المسلمين، حيث يتعاونون مع عدوّهم ويشجّعونه على نهب أموال إخوانهم. ويقوم بعضهم بالقتال معه.. وقد حدث هذا كثيراً في إسبانيا وفي الشام أثناء الحروب الصليبية، وفي عهود الاستعمار الأوربي كلها، وإلى يومنا هذا.

---

(١) هكذا في الأصل، والمقصود أن الإفرنج توجهوا إلى المهرة وبالذات بندر قشن.

(٢) كان البرتغال قراصنة يستولون على السفن وينهبون ما فيها من بضائع ويبيعونها في الموانئ القريبة.

شيوخ العيدروس العدني

سبقت الإشارة إلى بعض شيوخه، ولكن أهمهم في التأثير عليه وتوجيهه هو والده **الإمام عبد الله العيدروس بن أبي بكر السكران بن عبد الرحمن السقاف** المنتهي نسبه إلى الفقيه المقدم محمد بن علي إلى الإمام أحمد بن عيسى المهاجر بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن شهيد كربلاء الإمام السبط الحسين ابن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت خير البريَّة محمد ﷺ.

مولده بمدينة تريم عام ٨١١هـ وحفظ القرآن الكريم وحلّ عليه نظر جده الإمام عبد الرحمن السقاف الذي مات والعيدروس ابن ثمان سنين، ثم مات أبوه وهو ابن عشر سنين، وتولى تربيته وكفالته عمه عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف ثم زوّجه ابنته الشريفة عائشة. وتفقّه على جماعة، منهم: الفقيه سعد بن عبد الله باعبيد، والعلامة عبد الله باهراوة، والعلامة إبراهيم بن محمد باهرمز، والشيخ عبد الله باغشير. وسمع الحديث من خلائق لا يحصون بحضرموت واليمن والحجاز، وكان له اعتناء بكتب الإمام الشيرازي وخاصة التنبيه، وقرأ الخلاصة والمنهاج مرات عديدة، وأخذ التصوف من أعمامه ومن السيد محمد بن حسن جمل الليل. وبرع في علوم الشريعة والتفسير والفقه والحديث، وفي النحو واللغة والهيئة (الفلك). وكان كثير المجاهدات والعبادات، ومكث سبع سنين يصوم ويفطر على سبع تمرات وماء لا يأكل غيرها. وهجر النوم عشرين سنة (ينام فيها إغفاءات قصيرة).. واختاره السادة آل أبي علوي نقيباً لهم بعد وفاة عمه عمر المحضار وسنّه خمسة عشر عاماً فقط مع وجود الأكابر فيهم. وجلس للإقراء والتدريس في هذه السن الغضّة. وانبهر الناس بعلومه ووعظه، وتخرّج به كثير من الأعيان.

وكان يُحبّ كتب الغزالي وخاصة كتاب «إحياء علوم الدين» حتى كاد يحفظه.. **وكان يقول لأصحابه وتلامذته: «عليكم بالكتاب والسنّة أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، واعتباراً واعتقاداً، وشرح الكتاب والسنّة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين»**. وكتب حفيده العلامة عبد القادر بن شيخ العيدروس كتاب «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» جمع فيها كثيراً من كلام جدّه. وكثير من الطبعات تضيف هذا التعريف في آخر الكتاب.

وكان العيدروس ينهى تلاميذه وأولاده عن قراءة كتب ابن عربي وخاصة الفتوحات المكية وكتاب الفصوص، لما فيها من العبارات الغامضة والتي يُساء فهمها.

وللإمام العيدروس كتاب «**الكبريت الأحمر**». وله شرح على قصيدة العارف بالله الشيخ سعيد بالحاف. وله رسائل في علوم كثيرة، وفي مناقب شيخه سعد بن علي مذحج[1]. واشتهر الإمام عبد الله العيدروس بكرمه الفائض، ومات وهو مديون بثلاثين ألف دينار، حتى قال ابنه أبو بكر العيدروس العدني الذي ورث من أبيه الكرم الفائض عندما لاموه على ذلك:

أما ترى أنني قضيت دين أبي وكان ذلك ثلاثين ألف دينارِ

وكان يحذّر أصحابه من قرب الولاة والسلاطين.. ومع ذلك كان سلاطين حضرموت يهابونه، وهو يداريهم ويليّن الكلام لهم قاصداً قضاء حوائج المسلمين، وإصلاح ذات البين، وهو منهج ستراه واضحاً عند ابنه أبو بكر بن عبد الله العيدروس العدني.

---

(١) قال السيد سالم بن عبد الله الشاطري بأن هذه الرسالة للإمام عليّ بن أبي السكران أخو الإمام عبد الله العيدروس.

وكان يقول: خصلتان نفعلهما ونحذّر أتباعنا منهما: «السماع (للأناشيد والأغاني الصوفية) ومخالطة الولاة. وكان يخاف على أتباعه من ذلك، وليس كلهم لديه القوة لمواجهة السلاطين والحكام حين ينحرفون، وقد يداهنوهم ويوافقوهم على باطلهم. وكذلك السماع قد يشغلهم عن العبادات وقيام الليل.

وقبل وفاته، ألبس ولده أبا بكر العدني وحكّمه، وأجلسه مجلسه، ونصّبه شيخاً وعمره آنذاك خمس عشرة سنة. وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ٨٦٥هـ.

وقد كان العيدروس حريصاً على تربية ابنه أبي بكر وتعليمه وجعله يحفظ القرآن الكريم صغيراً وعوّده مجالس العلم والاهتمام بها، وكتب السلوك، وأدخله في المجاهدات وقيام الليل، وكان والده ينهاه عن كتب ابن عربي ويأمره بكتب الغزالي، وخاصة إحياء علوم الدين.

ومن مشايخه عمه **الشيخ علي بن أبي بكر (السكران)** (٨١٨- ٨٦٥هـ). حفظ القرآن الكريم، وحقق علوم القراءات، وحفظ الحاوي الصغير للقزويني في الفقه. ورحل إلى عدن وأخذ عن قاضيها وفقيهها في زمنه الشيخ محمد بن مسعود باشكيل (المتوفى ٨٧١هـ). ورحل إلى الحرمين الشريفين وأخذ العلم عن أكابر الشيوخ. وله مصنفات عديدة منها: «معراج الهداية»، و«البرقة المشيقة في أسانيد الطريقة»، و«الدر المدهش في مناقب الشيخ سعد بن علي». وكتب في الفقه والنحو والعقائد، وديوان شعر. وكان من أعظم شيوخ أبي بكر العدني تأثيراً عليه. وقد قرأ عليه جملة من كتب الفقه والتصوف وغيرها. وأجازه وألبسه وأذن له بالتدريس والإلباس والتحكيم، ومدح ابن أخيه بقصيدة رنانة أوردها بكاملها السيد أبو بكر المشهور في كتابه «جلاء الهم والحزن بذكر ترجمة صاحب عدن»، ومطلعها:

سلام كنشر المسك بل هـو أفخـرُ وأبهرُ من شمس الضحى حين تظهرُ

ورحمتــــه والزاكيـــات غـــوامرٌ مــضاعفةٌ تغلــو وتعلــو وتُــشهرُ
على فخـر ديـن الله نجـل عفيفـه أبي بكـــر المفــضال سرٌّ ومظهـــرُ

إلى آخر القصيدة الطويلة.

ومن مشايخه أيضاً عمه الفقيه أحمد بن أبي بكر السكران، الذي حفظ القرآن كآل بيته، واشتهر بالفقه وعلومه، مع زهد وعبادة وكثرة المداومة على أعمال البر وكثرة البكاء من خشية الله. وقد أخذ السيد أبو بكر العدني عن عمه كثيراً من العلوم في الفقه والنحو ومختصرات العلوم وحصل منه على الإجازة والإلباس مراراً وكان آخرها بتريم سنة ٨٦٧هـ.

ومن مشايخ العيدروس العدني الكبار **الشيخ سعد بن علي مذحج** واشتهر بالفقه والمجاهدات والزهد. وكان الشيخ سعد بن علي مذحج أكثر الشيوخ أثراً على أبي بكر العدني في صباه، حتى قال: «ما كنت أحسب أن أبي إلا الشيخ سعد لكثرة عنايته بي وملازمته لي في صباي (طفولتي) حتى إذا بكيت أمروا الخادمة أن تذهب بي إلى المسجد الذي هو فيه معتكف فأسكن إليه».

ثم لما بلغ سن التمييز أخذ عنه بدايات العلوم لأن الشيخ سعد توفى سنة ٨٥٧هـ والعيدروس العدني لم يجاوز السابعة من عمره.

ومن مشايخ العيدروس العدني السيد **محمد بن علي مولى عيديد** (وهي شعب سكنه في غرب تريم) وكان عالماً بعلوم الشريعة والحقيقة، بل وعلوم الطب والتشريح. وكان الطلبة يترددون عليه في منزله. وكانت وفاته سنة ٨٦٢هـ وكان العيدروس العدني في العاشرة من عمره عند وفاته.

ومنهم **الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بلحاح بافضل** وقد أخذ عنه العيدروس العدني علوم الفقه والحديث. وكانت وفاة الشيخ عبد الله بافضل سنة ٩١٨هـ (أي بعد وفاة تلميذه العيدروس العدني بأربع سنوات).

وشيوخه كثيرون، منهم: **الشيخ محمد بن أحمد بافضل** وكان من كبار العلماء في عدن بعد أن أخذ العلم في تريم والشحر وغيل باوزير، وأخيراً في عدن على يد القاضي العلامة محمد بن مسعود باشكيل الأنصاري.

وله مؤلفات منها «شرح تراجم البخاري»، و«مختصر لقواعد الزركشي» المعروف بالمنثور في أصول الفقه، ثم شرح هذا المختصر. وكتاب «العدة والسلاح لمتولي عقود النكاح». وشرح لألفيّة البرماوي وهي ألفية في أصول الفقه وضعها الإمام محمد بن عبد الدائم البرماوي نسبة إلى بورما[1] (ما أعجب هذا الدين الذي أخرج أئمة من كل بلاد العالم). وقد توفى البرماوي سنة ٩٣١هـ.

ومن شيوخ العيدروس العدني العلامة عبد الله بن أحمد بامخرمة الفقيه القاضي الذي توطن عدن وهو والد الطيب عبد الله بامخرمة الفقيه والمؤرخ المشهور.

ومن شيوخ العيدروس **شيخ الإسلام أحمد بن عمر المزجد القاضي ابن القاضي والفقيه ابن الفقيه الذي ينتهي نسبه إلى سيف بن ذي يزن المذحجي المرادي، الزبيدي المتوفى سنة ٩٣٠هـ**، وهو من أقران العيدروس. وقد أجاز كلٌّ منهما صاحبه، ويسمّى هذا عندهم التدبيج.

---

(١) تسمى بورما الآن: ميانمار. وتقع شرق بنجلاديش وغرب ماليزيا. وفي السعودية لجأ عشرات الآلاف من البرماويين المسلمين عندما واجهوا الاضطهاد، وتكاثروا في مكّة المكرّمة حتى صاروا أكثر من مائة ألف.

تلاميذ العيدروس العدني

وأما تلاميذ الإمام أبي بكر بن عبد الله العيدروس فعددهم كبير جدًّا، ولكن نذكر أشهرهم كالتالي:

(١) الشيخ أحمد (المساوي) بن أبي بكر العيدروس (٨٨٢- ٩٢٢هـ) وهو ابنه الوحيد.

وُلِد بتريم سنة ٨٨٢هـ ونشأ بها، وأخذ عن شيوخها. ثم انتقل إلى عدن، فأخذ عن أبيه الأخذ التام حتى برع في العلوم الشرعية وعلوم اللغة والتصوف. وأرسله والده إلى زيلع مجاوراً لسلطانها بعد طلبه لذلك فنشر العلم بها، وقام بأمر الدعوة إلى الله. وكان السلطان آنذاك ناصر الدين الحلواني ممن لهم مشاركة في العلم والأدب، وله اعتقاد قوي جدًّا في السيد أبي بكر العيدروس العدني. وكان العيدروس يكاتبه ويدعو له.

وقد مدح العيدروس العدني ابنه أحمد بقصيدة طويلة أورد أبياتاً منها السيد أبو بكر المشهور في ترجمته للعيدروس العدني. وفيها يقول:

وخُصَّ لنا شهاب الدين حقًّا ... فـنِعْمَ القِـرْمُ إن ذُكِـرَ القـرومُ
سـلاماً دائـماً في كـل حـين ... لعـلَّ بحقِّـهِ يومـاً نقـومُ
إمـامٌ سـيِّدٌ حَـبْرٌ فريـدٌ ... وعند الغـيظ ذو عفـوٍ كظـومُ
كريم الأصل من سلفي مُعَـدٌّ ... جزيل الحلمِ إن ضاعت حلومُ
لـه القـدحُ المعَـلَّى في المعـالي ... وبحـرٌ مـا لَـهُ أحـدٌ يعـومُ
يجيب دعاءَه ذو العرش حقًّـا ... ومـن نفثاتـهِ تُـشفى الكُلُـومُ

إلى آخر القصيدة العجيبة.

وبقي الشيخ أحمد (المساوي) بزيلع حتى توفى والده الإمام العدني. فلما بلغه الخبر عاد إلى عدن وقام مقام والده في الدعوة والإصلاح والتعليم والكرم

السابغ. وتوفي الشيخ أحمد بعدن في آخر شهر المحرّم سنة ٩٢٢هـ ودفن بجوار والده الإمام العيدروس العدني من جهة اليمين وعمره آنذاك ستة وأربعون عاماً. وكان له ولدان توفيا قبله وانقطع بذلك نسله. وبقي نسل العيدروس العدني من ابنته مزنة التي تزوجت من السيد عبد الله بن علوي بن عبد الله العيدروس. فلما توفي السيد أحمد المساوي تولى مقام العدني السيد محمد بن عبد الله العيدروس ابن الشريفة مزنة بنت أبي بكر العيدروس، ثم تولى أخوه عمر بن عبد الله العيدروس المقام بعد وفاة السيد محمد بن عبد الله في مكة سنة ٩٧٨هـ . وتوفى السيد عمر بن عبد الله سنة ألف من الهجرة في شهر المحرم، ثم استمر عدد من السادة والعلماء يقومون بالخطابة والتدريس في هذا المسجد العامر إلى يومنا هذا. واستمر آل العيدروس في المقام. وفي وقتنا هذا صار المنصب السيد مصطفى بن زين العيدروس.

ومن تلاميذ الإمام العيدروس العدني أخوه الفقيه العالم العابد **شيخ بن عبد الله العيدروس**، وفاته سنة ٩١٩هـ بتريم. واشتهر ابنه عبد القادر بن شيخ العيدروس بمؤلفاته العديدة، منها كتابه «تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر» مطبوع، وكتاب «غاية القرب في شرح نهاية الطلب». ثم هناك حفيد السيد شيخ وهو السيد عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس، وله كتاب «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» مطبوع مع كتاب إحياء علوم الدين. ثم هناك حفيد آخر هو محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس، وله كتاب «إيضاح أسرار علوم المقربين». وحفيد آخر هو شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس، له كتاب «الطراز المعلم والسر الملهم» السلسلة القدوسية.

ومنهم أخوه الفقيه **الحسين بن عبد الله العيدروس** (٨٦١- ٩١٧هـ).

وكان قد حفظ القرآن وتدرّج في أخذ العلوم الشرعية واللغوية، ورحل إلى مكة المكرمة وجاور بها سنتين يأخذ عن علمائها. وكان كريماً سخيًّا جواداً كبقية أخوته وأبيه. وذكروا أن السيد حسين استشهد في مواجهة البرتغاليين في الشحر وهو من الفقهاء السبعة الذين استشهدوا[1] وهو لا يصح.

ومنهم السيد **عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس**، وهو ابن أخيه شيخ (٨٨٧- ٩٤٤هـ)، وأخذ عن مشايخ عصره، وارتقى في الطاعات والعبادات والمجاهدات. وطلبه عمه الإمام أبو بكر العدني فارتحل إلى عدن من تريم وبقي عنده عامين كاملين. وكانت سن السيد عبد الله بن شيخ حين طلوعه إلى عدن ٢٤ عاماً.

ثم رحل إلى عدن مرة أخرى عندما طلبه ابن عمه أحمد مساوي بن أبي بكر العدني وذلك سنة ٩١٧هـ ، ثم عاد إلى تريم ومنها إلى الهند حيث أكرمه السلطان مظهر بن محمود، وعاد إلى تريم ومنها إلى عدن للمرة الثالثة في عهد الأمير مرجان الظاهري فتولى أمر التعليم والإرشاد.. وصار يتردد بين تريم وعدن. ورجع إلى عدن للمرة الرابعة عام ٩٢٧هـ في عهد الشيخ عبد الملك بن طاهر، ومكث بها في الإرشاد والتعليم والدعوة إلى عام ٩٣٣هـ. وذهب للحج عام ٩٣٨هـ ومكث بالحرمين الشريفين عامين، ثم عاد إلى عدن ومكث بها حتى سنة ٩٤٣هـ ، وغادرها إلى تريم التي توفي بها سنة ٩٤٤هـ .

ومن خواص تلاميذ السيد أبي بكر العدني العلامة الفقيه الشيخ محمد بن عمر

---

(١) انظر كتاب «أولياء الله الصالحين، دراسة أنثروبولوجية حول العيدروس» تأليف ممدوح محمد فدعق وزملاؤه، ولكن هذا الأمر غير صحيح، لأن الغزو البرتغالي للشحر كان سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م. والسيد الحسين توفي سنة ٩١٧هـ . وقد أوضحنا أن المتوفى في الغزو البرتغالي هو قريب آخر للسيد أبي بكر العيدروس.

بحرق (٨٦٩ - ٩٣٠هـ) المولود بحضرموت سنة **٨٦٩هـ**، وحفظ القرآن وأخذ عن كبار المشايخ في عصره مثل الفقيه محمد بن أحمد باجرفيل، وفي عدن لازم الشيخ عبد الله بامخرمة والفقيه محمد بن أحمد بافضل، ثم صحب الشيخ أبا بكر العدني لسنوات طويلة وكتب عنه كتاباً حافلاً سمّاه «مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس». وأخذ بحرق عن الإمام السخاوي وعن السيد الحسين بن عبد الرحمن الأهدل وعن عدد كبير من العلماء.

وتولى قضاء الشحر، ثم عزل نفسه ورجع إلى عدن، وتولى التدريس ولقي بها قبولاً، وخاصة عند أميرها مرجان الظاهري. فلما مات مرجان الظاهري ذهب بحرق إلى الهند فظهرت علومه وأكرمه السلطان مظفر بن محمود بايقرا (الكجراتي)، فقرّبه السلطان وصار من خاصته، فحسدته الحاشية فسمّوه، كما قال صاحب «النور السافر»، وللشيخ محمد بن بحرق عشرات المؤلفات في الفقه والسيرة والطب والفلك وفي الرياضيات. وله شعر رائق. ومدح شيخه أبا بكر العدني بقصائد عدة منها قصيدة بالعامية (الحميني) يتغني بها المغنون، وفيها يقول:

شـــــأبيح بـــــالغرام   كـــم ذا تـــستّر بعــشقي
وارفــــع ذا اللثــــــام   أو خذ نصيبي ورزقــي

وأهل اليمن يستعملون الشين بدلاً من السين. وقد بدأها كما هو معتاد بالغزل ثم دلف إلى مدح العيدروس.

وله قصيدة بالفصحى سمّاها «العروة الوثيقة في الجمع بين الشريعة والحقيقة». وشرحها بنفسه في كتاب سماه «الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة».

وتوفي الشيخ محمد بن عمر بحرق في أحمد أباد في شهر شعبان سنة ٩٣٠هـ، وكتبه كثيرة منها:

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبيّ المختار، المسمّى «تبصرة الشاهية الأحمدية بسيرة الحضرة الأحمدية» وقد طبع مؤخراً من دار المنهاج، وقدّم له السيد عبد الله بن محمد الحبشي (جدة ١٩٨٨م).
(٢) أرجوزة في علم الحساب .
(٣) أرجوزة في علم الطب مع شرح لها.
(٤) كتاب مختصر في الطب.
(٥) البهجة في تقويم اللهجة.
(٦) الأسرار النبوية في اختصار الأذكار النبوية.
(٧) ترتيب السلوك إلى ملك الملوك.
(٨) الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة.
(٩) الحسام المسلول على منتقصي أصحاب الرسول.
(١٠) تحفة الأحباب في شرح ملحة الأعراب.
(١١) رسالة في علم الميقات.
(١٢) رسالة في الفلك.
(١٣) مختصر نهاية الناشري في علم القراءات.

وله في كل علم وفن كتاب أو رسالة، ومجموع كتبه ثلاثون كتاباً. قال عنه السيد عبدالقادر بن شيخ العيدروس في «النور السافر عن أخبار القرن العاشر»: «ما رأيت أحداً من علماء حضرموت أحسن ولا أوجز عبارة منه، وله نظم حسن، وهو أحد من جمع بين ديباجتي النظم والنثر».

وكانت وفاته في كجرات في **الهند سنة ٩٣٠هـ**، وشيّعه خلق كثير، ودفن في مدينة أحمد أباد، تغمّده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنانه، فقد كان آية في العلم واللغة والعلوم الأخرى مثل الفلك والهيئة والحساب والطب، ولم يترك من العلوم المعروفة في عصره إلا وشارك فيها. وله شعر جميل ونظم رائق بالفصحى وباللغة الحضرمية الدارجة (الحميني) وهو إلى الفصيح أقرب.

ومن شعر الشيخ محمد عمر بحرق في رثاء أحمد (المساوي) ابن الحبيب أبي بكر العيدروس العدني قصيدة تدل على قوة شعره وجزالته، وفيها يقول:

لمن تبنى مشيّدات القصورِ وأيام الحياة إلى قصورِ
وفيم الحرص من جمعٍ ومنعٍ وما تُغني القناطير من نقيرِ
وحتّام التهالك والتفاني على الخدّاعة الدنيا الغرورِ
فما يغترُّ بالدنيا لبيبٌ ولو أبدت له وجه السرورِ
فغاية صفوها كدرٌ وأقصى حلاوتها إلى الكأس المريرِ
ألم ترَ كيف هدّت رُكنَ مجدٍ وغاضت بحر مكرمةٍ زخورِ
وروّعت الأنام بفقد شخصٍ رزيّتهُ على بشرٍ كثيرِ
شهابٌ ثاقبٌ من نور بدرٍ تبقّى من شموس من بدورِ
نماه العيدروس وكل قطبٍ غياثٍ للورى فردٍ شهيرِ
تناثر عقدهم نجماً فنجماً يُغيَّب تحت أطباق الصخورِ
فأظلم بعدهم دستُ المعالي وأكسف قطرهم بعد الزهورِ
فواأسفاً على أطواد حلمٍ إذا استكلمت ملمّات الأمورِ
وواحزناً على تيار جودٍ يمدُّ بصيِّبِ الغيثِ الغزيرِ
ويا لهفاً على أخلاق لطفٍ يفوق الزهر في الروضِ النضيرِ
لئن ذهبوا فقد أبقوا فخاراً يضيق بحصرهِ صدر السطورِ
ففاقوا الناس أحياءً وفاقت ضرائحهم على أهل القبورِ
فلا يأتي الزمان لهم بمثلٍ وهل للشمس، ويحك، من نظيرِ
على تلك الوجوه سلامُ ربٍّ رحيمٍ غافرٍ برٍّ شكورِ
إلٰهي كن لنا خلفاً وذخراً فإنّك جابر العظم الكسيرِ
وصلِّ على أجلِّ الخلق قدراً محمدٍ البشيرِ لنا النذيرِ
ومن والاه من آلٍ وصحبٍ على مرّ الأصائلِ والبكورِ

ولقد رثى الشيخ محمد عمر بحرق قبل ذلك الإمام العيدروس العدني بقصيدة مطلعها:

كلّ نفسٍ إلى فناءٍ تؤولُ ... ما لحيٍّ إلى البقاءِ سبيلُ
إنّ في الموتِ عِبرةٌ هي تكفي ... كيف؟ والموتُ في سواه قليلُ
كيف يلتذُّ بالمعيشةِ مرؤٌ[1] ... وإلى اللهو بعد هذا يميلُ
يا لها غفلة تمادتْ فضلَّتْ ... عن سواءِ السبيلِ فيها عقولُ
لعبتْ بالعقولِ دُنيا غرورٌ ... لم يفِقْ من خمارها إلا القليلُ
كأبي بكرٍ الذي صار فرداً ... قلَّ، بل عزَّ في علاه المثيلُ
رمقت عينه العواقبَ فيها ... فشراها[2] لما اشتراها الجهولُ
شادَ جُوداً فسادَ مجداً فأضحى ... في ذُرى العزّ حين ذلَّ البخيلُ
فهو السيِّدُ الشريفُ الذي قد ... سلسلتْ فُروعُهُ والأصولُ
وجديرٌ بالمجدِ والفخرِ غُصْنٌ ... أصلُهُ دوحةٌ نمتها البتولُ[3]
قل لمن رامَ شأوه أقصِرْ ... دركُ الفخرِ بالمنى مستحيلُ
ولقبرٍ ثوى به كيف أضحى ... ولبدر الكمال فيه أقولُ
حُرمتْ حضرموتُ فخراً حوتْهُ ... عَدْنٌ لم تحُزه تلك الطلولُ[4]

---

(١) الصواب امرؤٌ، ولكن للوزن الشعري تكتب مرؤٌ.

(٢) شراها: أي باعها، وهي قد تستخدم بالضد.

(٣) البتول: هي فاطمة الزهراء عليها السلام.

(٤) لقد سمى الشيخ محمد عمر بحرق عَدَنْ (عَدْن) وهي جنات عَدْن التي لا يحول نعيمها ولا يزول. وعَدَن وعَدْن من العدون وهي الإقامة. وقد بشَّر الشيخ بحرق أهلها بالأمان والسلام والخير العميم لأنها موطن الفحول من السادة الكرام، ولأنها اشتهرت بطيبة أهلها ومودّتهم للغريب، حتى يشعر أنه بين أهله وخلّانه.

صار ذاك اسمُها كما كان فيها ... ساكناً فدامَ النزولُ
فبها العُرْبُ والجهاتُ جميعاً ... عمّها النور والبها والقبولُ
فابشِروا أيها النزول بعدْنٍ ... وسلامٌ من ربِّكُمْ لا يزولُ[٣]
لا يخَفْ من يحومُ حول حِماها ... كيف يخشى وقد حمتها الفحولُ
كلُّ من رامها بسوءٍ وإن ظـ ... ـنَّ نجاحاً فإنه المخذولُ
نسأل الله أن يديم علينا ... نعماً لا يشوبها تحويلُ
ويقيمُ الولاةُ بالعدلِ فينا ... ولأهل الفساد عنّا يزيلُ
وصلاةٌ مع السلام على من ... شقَّ بالحِجْرِ صدره جبريلُ[١]
أحمدُ الحامدُ البشيرُ النذيرُ الفا ... تحُ الخاتمُ النبيُّ الرسولُ[٢]

الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن باوزير:

من خواص تلاميذ العيدروس (العدني)، وجمع أشعار العيدروس ونشرها بعنوان: «محجّة السالك وحجّة الناسك» وصدّره بمقدمة طويلة عن العيدروس وقد تقدّم.

السيد الحسين الصديق الأهدل (٨٥٠- ٩٠٣) ومسجده

هو السيد حسين بن صديق بن حسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن أبي بكر بن الشيخ الكبير علي الأهدل الحسيني الشافعي اليمني. وقد جاء

---

(١) شقّ جبريل صدر النبيّ ﷺ مرتين وقيل ثلاثاً: (الأولى) في طفولته في بادية بني سعد، (قبل الطائف) عندما كان رضيعاً عند حليمة السعدية. و(الثانية) عند البعثة، و(الثالثة) في الحجر في الكعبة قبيل الإسراء والمعراج مباشرة.

(٢) مواهب القدوس لبحرق ص ٢٢، نقلاً عن أبي بكر المشهور «جلاء الهم والحزن بذكر ترجمة صاحب عدن» ص ١٣٢، ١٣٣.

جدهم السيد محمد بن سليمان من العراق مع قريبه (يتصلون في الأجداد) السيد أحمد بن عيسى المهاجر وهو جد السادة العلويين، ومعهم جد السادة آل القديمي. وقد خرجوا من العراق بعد فتنة الزنج وخروج القرامطة سنة ٣١٧هـ ووصلوا إلى مكة المكرمة ومنها إلى المدينة المنوّرة أيام فتنة أبي سعيد القرمطي في مكة وانتزاعه للحجر الأسود. ثم بعد سنتين انتقلوا إلى اليمن، فسكن جدّ الأهادلة السيد محمد بن سليمان في ناحية وادي سهام (أحد أودية منطقة زبيد) وسكن جد آل القديمي في سردد في تهامة قريباً منها. وأما السيد أحمد بن عيسى المهاجر فقد توطن حضرموت ونزل أولاً في الهجرين ثم الحُسَّيِّسة ومن نسله السادة آل أبي علوي. وكان وصوله إلى حضرموت سنة ٣٢٠هـ.

ولد السيد الحسين بن صديق الأهدل بأبيات حسين في شهر ربيع الثاني عام ٨٥٠هـ (كما حققها العلامة المحدث المؤرخ السخاوي وهو شيخ السيد الحسين ويعرفه معرفة تامة. وقد ترجم له في كتابه الضوء اللامع). وزعم الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمّري (العراقي) الذي درّس في جامعة عدن، في كتابه «زهور السوسن في تاريخ عدن – اليمن[1] أن مولده هو ٨٠٥ وأن ما ذكره السخاوي خطأ. والواقع أن ما ذكره السخاوي وغيره هو الصواب.

وقد نشأ السيد حسين في بيت علم وحفظ القرآن الكريم، وأخذ عن الفقيهين أبي بكر ابن معيض وأبي القاسم بن عمر بن مطيره. وأخذ عن العلامة الشيخ يحيى العامري في زبيد، وجاور بمكة وأخذ عن الإمام السخاوي وترجم له السخاوي في الضوء اللامع، وتبادلا المدائح وعظَّم كُلًّا منهما الآخر. وإن

(١) د. محمد كريم إبراهيم الشمري: زهور السوسن في تاريخ عدن– اليمن، جامعة عدن ٢٠٠٤، ص ٣٣٢.

كان السيد حسين هو التلميذ والسخاوي هو الأستاذ، ولكنهما متقاربان في العلم والسن والفضل.

ودرس الفقه والعلوم الشرعية وغيرها في أماكن متعدّدة من اليمن (المراوعة وبيت الفقيه ابن عجيل، وزبيد) ومكة والمدينة، وأخيراً ألقى عصا الترحال في عدن وبها كانت وفاته.

ومن شيوخه في زبيد الشيخ عمر الفتي في الفقه، والشيخ علي الشرجي في الأدب واللغة. وكانت إقامته في زبيد أربع سنوات من عام ٨٦٨ إلى عام ٨٧٢هـ. ثم انتقل إلى مكة المكرمة عام ٨٧٢ ومكث بها عامين بعد أن زار المدينة، وكان أخصّ شيوخه بها الإمام المحدث المؤرخ السخاوي، كما أخذ عن القاضي البرهان والقاضي المحيوي، وأخذ منهما الإجازة والإذن بالتدريس والرواية عنهما، كما أذنا له بالتصدر والفتوى(1).

وعندما زار قبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنوّرة، أنشد قصيدة جاء فيها:

إن قيل زرتم بما رجِعْتُمْ   يا سيّد الرسل ما نقولُ؟

فسمع الجواب حسب هذه الرواية من الحجرة الشريفة:

قولوا رجِعْنا بكلِّ فضلٍ   واجتمع الفرعُ والأصولُ

ولعله سمع هاتفاً يقول له ذلك، والشاعر قد يسمع بعض الهواتف، تتم له بيتاً أو بعض أبيات. والرسول ﷺ لا يقول الشعر:

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس: ٦٩).

(١) عبد القادر بن شيخ العيدروس: تاريخ النور السافر، ص ٣٠.

وذكر الإمام السخاوي في الضوء اللامع[١] أنه عاد مرة أخرى إلى مكة بعد الرحلة الأولى وأنه قرأ عليه من تصانيفه وأجازه السخاوي، وقال ما نصّه: «ثم عاد (أي من اليمن) ولازمني في المجاورة الثالثة بمكة فقرأ عليّ أشياء من تصانيفي بعد أن كتبها بخطّه. وكذا سمع من لفظي، وعليّ أشياء، وهو فاضل بارع في فنون، ناظم، مفيد، حسن القراءة والضبط، لطيف العشرة، متودّد قانع عفيف، أقرأ الطلبة بناحيته. وقرأ الحديث على العامة، سيما القول البديع ونحوه. مدحني بقصيدة أنشدنيها بحضرة الجماعة، وكتبت له إجازة حافلة. ورأيت النجم بن فهد كتب عنه من نظمه كثيراً وترجمه». ثم قام السخاوي نفسه بمدح تلميذه السيد حسين بن صديق الأهدل.

والده: وقد ترجم السخاوي أيضاً لوالده **صديق بن حسين الأهدل**[٢]، وذكر نسبه وأنه أخذ عن أبيه كثيراً. وفاته سنة ٨٨٧هـ في شهر رمضان، وقد تجاوز السبعين. ومن نظمه قوله:

قد كان في سُنَّةِ خير الورى ... صلّى عليه الله طول الزمنِ
أن لا يُرَدَّ الطيبَ ولا المتكّا ... والتمر واللحم.. كذاك اللبن[٣]

ومنه قوله:

لا أعتب الدهر ولا أهلهِ ... في حظِّ مقدارٍ ولا منزلهْ
«نحن قسمنا بينهم» قاله ... إلٰهنا، والفضل والعدل لهْ
الحمد والشكر لمن قد جرت ... أحكامه بالقسمة العادلهْ

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع ج ٣، ١٤٥ - ١٤٧.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٠.
(٣) قيل إن هذين البيتين لحسين بن صديق وإنها ليست لوالده. (النور السافر، ص٢٤٨)، وهو نظم فقيه.

وقيل إنها لابن السيد حسين بن صديق، وليست لأبيه (النور السافر، ص ٢٤٩).

ولده: عبد الرحمن حسين بن صديق الأهدل، ولد سنة ٨٩١هـ . ونشأ بمدينة زبيد في بيت علم وفقه وتواضع وزهد. وقد نُصِّب شيخاً وهو ابن ثلاثة عشر سنة، لوفور عقله وشدة ذكائه. وكان دأبه الإنفاق على الفقراء والمساكين، مُحبًّا للعلم وأهله، مشاركاً في كثير من العلوم. وكان صاحب كرامات خارقة وأحوال صادقة. وانتفع به الناس انتفاعاً عامًّا. **وكانت وفاته سنة ٩٧١هـ**. وقد ترجم له السيد عبد القادر بن شيخ العيدروس في النور السافر وآخرون. ثم ترجم العيدروس أيضاً لحفيده **محمد الطاهر بن الحسين بن عبدالرحمن ابن الصديق الأهدل (٩١٤- ٩٩٨هـ)** ووصفه بقوله: «الولي السعيد الشريف العلامة ذو الولاية والإمامة، الحافظ الضابط، مسند الدنيا، مالك أزمة الشرف العليا، محدّث الديار اليمنية وفقيهها بإجماع البريّة، بركة المسلمين، مفيد الطالبين»[1].

إذن نحن أمام شخصية علمية فذة، من أسرة أنجبت العلماء الفقهاء الصلحاء جيلاً بعد جيل منذ زمن جدهم الأكبر علي الأهدل إلى أحفاد أحفاده إلى اليوم في القرن الواحد والعشرين[1].

الحسين بن صديق الأهدل وعلاقته بالعيدروس العدني

بعد أن عرفنا نبذة عن السيد حسين بن صديق الأهدل وأسرته وشيوخه

(١) نرجو أن يقدم أحد علماء بني الأهدل المعاصرين مثل الدكتور حسن مقبولي الأهدل أو الدكتور السيد عبد الله القادري الأهدل بكتابة مجلد أو مجلدات عن سيرة علماء أهل الأهدل على مدى العصور، وما قدّموه لأمة الإسلام من خدمات جليلة وعلوم غزيرة، ونبذ يسيرة عن كتبهم ومؤلفاتهم وحياتهم.

وكيف أثنى عليه شيوخه وأهل زمانه، وكان مثالاً على الزهد والتواضع حتى أنه حمل الزنبيل ودار في الأسواق وبين البيوت في اليمن وفي المدينة المنورة، كسراً للنفس، وتأديباً لها. والأهادلة (آل الأهدل) مثل بقية صلحاء اليمن والعالم الإسلامي يعرفون التصوف الحقّ الذي يسعى لتهذيب النفس وترويضها، وحملها على الأخلاق الزكية والتواضع والإخبات وعدم رؤية النفس. فيجعل الله لهم مزيداً من المحبّة في القلوب، ورفعة في النفوس، فمن تواضع لله رفعه الله.

ولما دخل السيد أبو بكر العيدروس عدن التقى به السيد حسين بن صديق، الذي سبقه إلى عدن وكان يلقي الدروس في جامعها المشهور (لم يبق منه إلا المئذنة المشهورة). وقد سبق ذكرها وشرح ما جرى للجامع وتاريخه) ثم كان يلقيه في داره.

وانطوى السيد حسين بن صديق الأهدل في العيدروس العدني. وذلك لشدّة تواضعه مع أنه أكبر منه سنًّا، وربما لا يقل عنه علماً وفضلاً. وقد ذكر العلامة محمد بن عمر بحرق في كتابه «مواهب القدّوس في مناقب ابن العيدروس» أنه تعجب من بعض أحوال العيدروس فقال للسيد حسين بن صديق (زميله): «إنِّي قلت مرة له أن أحوال سيدي الشيخ أبي بكر أشكلت علينا، فقال (السيد حسين الأهدل): دعها تحت حجابها مستورة بسحابها، فلو أشرقت شمسه لأحرقت الوجود كله. أما ترانا نقف على أبوابه ونكتفي بتقبيل أعتابه». ثم قال الشيخ محمد بن عمر بحرق «وهكذا كان يقبِّل العتبة وينصرف. ورأيته (أي السيد حسين) كأنه ورد عليه حال فأخذ بيدي وهو كالذاهب فقال لي: «تريد أن أريك القطب؟ فقلت: نعم. فمشى حتى أتينا إلى سيدي الشيخ أبي بكر (العيدروس) فقال: هذا هو القطب، وانصرف. ولم يلبث أن امتدح سيدي الشيخ بالقصيدة التي أولها:

مــن الحــسان الخُــرَّدِ   قــد صــادني غرِّيــرُ   يرمي بقوسٍ حاجـبِ

وأنشده إياها فلما بلغ المنشد قوله:

يا عيدروس الأوليـاء   يــا حــايز الكــمالِ   القطبُ أنـتَ الأكمـلُ

كان الشريف الحسين (بن صديق الأهدل) ينظر إليّ، ثم يشير إلى سيدي الشيخ (أبي بكر العيدروس) ويكررها [1].

ومن نظم السيد الحسين بن صديق الأهدل:

يــا ســيدي يــا إلٰهــي   إن لم تكــن لي فمــن لي

أنــت العلــيمُ بحــالي   فــارحم بعــزّك ذُلّي

ومن نظمه:

أمـا لهـذا الهـمّ مـن منتهـي   أمـا لهـذا الحـزن مـن آخـرِ

أمـا لهـذا الـضيق مـن فـارجٍ   أما لنابِ الخطـبِ مـن كـاسرِ

أمـا لهـذا العـسر مـن دافـعٍ   باليسر عن هذا الشجيّ العـاثرِ

بـلى بـلى مهـلاً فكـن واثقـاً   بالواحد الفـرد العـليّ القـادرِ

وللسيد حسين بن صديق الأهدل قصائد في مدح النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم، وقصائد في الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى، وفي غيرها من مواضيع التصوف والإنابة إلى الله. وله ديوان كما ذكر ذلك الشحري صاحب «تاريخ حوادث السنين».

وقد وصفه السيد عبد القادر بن شيخ العيدروس في تاريخ النور السافر

---

(١) د. محمد كريم الشمري: زهور السوسن، ص ٣٣٩، وهو ينقلها عن بحرق في كتابه «مواهب القدوس في مناقب العيدروس» مخطوط. وراجع أيضاً: محمد بن عمر الطيب بافقيه: تاريخ الشحر (ط) ، ص ٣٢.

بقوله: «السيد الشريف، الفقيه، الصوفي، الأديب، الحافظ، المحدّث، البارع في أشتات العلوم».

مصنفاته

- له كتاب «ارتياح الأرواح في ذكر الله الكريم».
- وكتاب في قصة المولد النبوي بعنوان: «مولد لطيف مشتمل على كل معنى ظريف، شرحه الشيخ عبد الرحمن بن زياد المتوفى سنة ٩٧٥هـ (ولا يزال مخطوطاً).
- مختصر الدُّرَّة.
- مختصر قمع النفوس للمحصني.
- مختصر سفر السعادة للفيروزآبادي.
- مختصر تحفة الزمن في تاريخ اليمن لجده الحسين بن عبد الرحمن الأهدل المتوفى سنة ٨٥٥هـ.
- مختصر كتاب الجوهر الفريد في تاريخ زبيد، لجده الحسين بن عبد الرحمن.

انتقاله إلى عدن

لا يُعرف بالضبط متى انتقل إلى عدن، ولكن يبدو، كما يقول الدكتور محمد الشمّري في كتابه «زهور السوسن في تاريخ عدن»، أنه دخل عدن بعد أن امتلأ علماً في موطنه وفي الحرمين الشريفين. وكان له دور في الإصلاح ما بين الدولة الطاهرية والعرب (الأعراب) الذين كانوا يثورون عليها. وهذا الدور من العلماء، وخاصة منهم السادة الصوفية. متكرر ومستمر في تاريخ اليمن بأكمله على مدى مئات السنين، وخاصة في حضرموت وفي أماكن البادية.

ولما دخل عدن تزوج من أسرة عرفت بالكتابة (الكُتَّاب من بني إسحاق). والكاتب مقصود به كاتب الدولة، وهو الذي يكتب مراسلات السلطان ويردُّ

على المراسلات الآتية إليه والصادرة منه، بأمره وتوجيهه.

وكان يدرّس الناس في المسجد الجامع الموجودة منارته إلى اليوم، والتي تعتبر من عالم عدن التاريخية (سبق أن كتبنا عنها فصلاً في هذا الكتاب).

ثم انتقل إلى داره التي فتحها للناس في حافة حسين، وفي مسجده الذي تمّ بناؤه قريباً من داره وهو من رباط الشاذلية في عدن.

وكان من تلاميذه عدد كبير من علماء وأدباء عدن منهم الطيب بامخرمة، صاحب «قلادة النحر» في ثلاثة مجلدات و«تاريخ ثغر عدن» وغيرها من الكتب المرجعية.

وفاته

توفى السيد حسين بن صديق الأهدل ليلة الإثنين الثالث عشر من شهر ذي القعدة عام ٩٠٣هـ ، كما يذكر ذلك المؤرخ والمحدث ابن الديبع في كتابه «الفصل المزيد على بغية المستفيد»، (ص ٢٤٣). وقد أجمع المؤرخون على ذكر السنة، ولم يذكر بعضهم اليوم ولا الشهر. وقد دفن في تربة الشاذلية في رباط مدفون فيه بعض أهله في حافة حسين. وأصبح المسجد والرباط ملتصقين خارج المسجد إلى اليوم، رغم توسع المسجد. وهو في حافة حسين في عدن كريتر.

وهذا المسجد من المساجد العامرة بالمصلين وبالدروس في كافة العلوم وخاصة دراسة القرآن وحفظه، ودراسة الأحاديث النبوية والمواعظ.

والسيد حسين بن صديق الأهدل ليس أول من توطّن عدن من آل الأهدل الفضلاء، بل سبقه عم أبيه السيد حسن بن عبد الرحمن الأهدل المتوفى بعدن سنة ٨٥٥هـ ، ودفن في مقبرة الشاذلية من رباطهم المعروف بمدينة عدن.

مسجد الإمام حسين بن صديق الأهدل

يقول السيد عبد القادر بن عبد الله المحضار في كتابه «التذكير بأخبار العباد وآثار البلاد» أن المسجد قد بُني قبل زمن السيد حسين بن صديق، حيث بناه الشيخ علي بن عمر الشاذلي (طريقة لا نسباً) سنة ٨١٩هـ ، والمتوفى بمدينة المخا سنة ٨٢٨هـ ، وكان يُسمى رباط الشاذلي. وكان جد السيد حسين بن صديق الأهدل وهو السيد العلامة الحسين بن عبد الرحمن الأهدل قد تولى الإشراف عليه والتدريس طوال مدة إقامته بعدن لمدة اثني عشر عاماً. وكانت وفاته سنة ٨٣١هـ .

وبعد وفاة السيد حسين بن عبد الرحمن الأهدل كان القائم بالرباط وبالمسجد الشيخ أحمد بن أبي بكر الحضرمي الهاشمي، ويساعده السيد أبو القاسم بن عبد الرحمن الأهدل. وكانت وفاة الشيخ أحمد بن أبي بكر الحضرمي سنة ٨٤٨هـ .ثم دخل عدن السيد حسين ابن صديق الأهدل في أواخر القرن التاسع الهجري قبل دخول العيدروس عدن سنة ٨٨٩ (لا يعرف تاريخ دخوله). وتولى التدريس والإشراف على رباط الشاذلية ومسجدهم. وكان كما أسلفنا يدرّس في المسجد الجامع (القريب من ساحل صيرة والذي لم تبق منه إلا المئذنة)، ثم انتقل إلى الدروس في منزله وفي رباط الشاذلية.

واستمر المسجد في دوره التعليمي والديني. وممن تولى الخطابة والإمامة فيه في العهد القريب الفقيه محمد بن أحمد باحلوان الحضرمي (وفاته بعدن سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م).

وقد تم تجديد بناء المسجد عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م، واستمرت الدروس وتحفيظ القرآن وقراءة صحيح البخاري. وكان ممن تولى التعليم فيه الشيخ

العلامة محمد عوض باوزير[1] (١٣٣٠- ١٣٩٣هـ). وغادر عدن إلى الحجاز عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م وأقام فيه إلى حين وفاته ١٩٧٣م.

ثم تولى الإمامة والخطابة الشيخ ثابت بن عبد الله اليماني.

وتولى بعده السيد محمد بن علي باحسن جمل الليل. واستمر إماماً وخطيباً لمسجد حسين الأهدل لمدة عشرين سنة، ثم غادرها إلى الحجاز وأقام في المدينة المنوّرة.

وتولى بعده الإمامة والخطابة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن سالم الوالي. وهو المشرف على حلقات تحفيظ القرآن وحلق العلم.

---

(١) الشيخ العلامة محمد عوض باوزير (١٣٣٠هـ/ ١٩١٥م- ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) : ولد في غيل باوزير، وتتلمذ على يد الشيخ أحمد باغوزة وغيره حتى تولى منصب رئيس محكمة الاستئناف في الدولة القعيطية. وترك منصبه لأسباب سياسية إلى الصومال (بربرة) ثم عدن. واشتغل بالتجارة مع آل عبد الله بامطرف ثم استقلّ بعمله التجاري. ولم يشغله عمله التجاري عن مواصلة طلب العلم ونشره وعن عمله الاجتماعي، فقد شارك في تأسيس الجمعية الإسلامية بعدن، ثم شارك في تأسيس المعهد العلمي، وانتخب سكرتيراً لهيئة علماء الجنوب، وكان عضواً في جمعية مكافحة السل الذي كانت منتشراً في عدن والجنوب، وشارك في بناء مسجد النور بالشيخ عثمان وكان عضواً في اللجنة المشرفة على المسجد وأوقافه، وكان رئيساً للجنة المشرفة على مدرسة بازرعة الخيرية الإسلامية. وتولى التدريس في مسجد الحسين وفي غيره من المساجد سنة ١٩٥٨ واستمر سنوات طويلة يخطب ويدرِّس فيه. وجدّد بناء المسجد وبنى فوقه طابقاً للنساء وساعده في ذلك كثير من أهل الخير في عدن. وفي شهر رجب يُقرأ صحيح البخاري وتتم قراءته في آخر شعبان. وهو أمر منتشر في مساجد عدن. واضطر الشيخ محمد عوض باوزير للهجرة من عدن بعد تفاقم الفتن عام ١٩٦٧ واشتعال الحرب الأهلية، فتوجه إلى الحجاز واستقرّ فيه إلى حين وفاته (نقلاً عن أمين سعيد باوزير: مساجد عدن) .

من أصدقاء وزملاء وتلاميذ العيدروس العدني الشيخ عبد الرحمن بن علي ابن أبي بكر السكران[(١)]

وهو ابن عم السيد أبو بكر العيدروس العدني. ولد بمدينة تريم سنة ٨٥٠هـ وحفظ القرآن الكريم. وكان يخرج في صباه مع ابن عمِّه أبو بكر العيدروس كل ليلة يصلِّيان في بعض شعاب تريم ويقرآن في صلاتهما عشرة أجزاء ثم يعودان إلى المسجد قبيل صلاة الفجر فيصلِّيان مع الجماعة. وقرأ الشيخ عبد الرحمن على والده وعلى غالب مشايخ عصره في تريم وزبيد والحجاز. وأغلبهم كانوا أيضاً مشايخ لأبي بكر العيدروس.

ولما استقر الإمام أبو بكر بعدن استمرت المكاتبات وتبادل القصائد بينهما. وكانا على المودّة والمحبة التامة والمشرب الواحد..

الشيخ أحمد بن علي الحلبي[(٢)]: كان من التجار الكبار، ودخل عدن واستقرّ بها، ثم انطوى في العيدروس العدني انطواءً تامًّا وتتلمذ عليه لمدة عشرين سنة، ثم أمره شيخه أن يتوجه إلى الهند للدعوة ونشر العلم فانتفع به خلق كثير. وكانت وفاته في حيدرأباد سنة ٩٥١هـ.

الشيخ محمد بن أحمد باجرفيل الدوعني: مولده عام ١٨٢٠ في دوعن. حفظ القرآن، وأخذ عن مشايخ بلده، وكان زاهداً عابداً وصحب الشيخ علي بن أبي بكر السكران (عمّ العيدروس العدني) في تريم أربعة أشهر، وأوصاه بأن يذهب إلى ابن أخيه أبي بكر العيدروس العدني فذهب إليه، وانطوى فيه. وعاش الشيخ باجرفيل باذلاً وقته للعلم والتدريس، واستقرَّ في أخريات حياته في غيل باوزير من أعمال الشحر في ساحل حضرموت. وكانت وفاته سنة ٩٠٣هـ.

---

(١) أبو بكر المشهور: جلاء الهم والحزن، بذكر ترجمة صاحب عدن، ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٦.

الشيخ جار الله بن فهد الهاشمي المكي: ولد بمكة المكرمة سنة ٨٩١هـ. وحفظ القرآن الكريم وطلب العلم الشرعي من أهله، وسمع من الحافظ السخاوي، ومن المحبّ الطبري، وحصل على الإجازة من جماعة من العلماء، منهم الشيخ عبد الغني النابلسي. وذهب إلى المدينة المنوَّرة، وسمع من والده تجاه الحجرة الشريفة كتب السنة، وكتاب الشفاء للقاضي عياض، وسمع على السيد السمهودي كتابه «وفاء الوفاء»، وكتبه الأخرى. ثم عاد إلى مكة المكرمة ورحل إلى مصر والشام وبيت المقدس حتى وصل إلى بلاد الروم (تركيا) وتزوج بها، ورزق الأولاد. والتقى بالعيدروس العدني خلال تردده إلى اليمن واستجازه وأخذ عنه. وتصدر للتدريس في الحرم المكي الشريف. وكانت وفاته سنة ٩٥٤هـ.

شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي (٨٤٦؟- بعد ٩٠٦هـ): من تلاميذ الإمام أبي بكر عبد الله العيدروس، ونادراً ما يذكر، لأنه لم يأخذ عنه إلا بعض الأدعية، وحزب البحر الذي وضعه الصوفي الكبير الإمام الشاذلي وهو أشهر ملاحي العرب على مدى التاريخ **شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي** (نسبة إلى سعد بن قيس بن غيلان، القبيلة العدنانية المشهورة).

وقال ابن ماجد في قصيدة «عدة الأشهر الرومية»:

فخذ حِكماً من ماجد ابـن ماجـد يؤول إلى سعد بن قيس بن غيلان

وتاريخ مولده كما يقول السيد حسن صالح شهاب في تحقيقه النونية الكبرى مع ست قصائد أخرى لابن ماجد (إصدار وزارة الثقافة بعمان) غير معروف، ولكنه صرّح بأنه نظم أرجوزته «الحاوية» في **أول الشباب**، وفرغ من نظمها في شهر ذي الحجة من عام ٨٦٦هـ (فلعل ميلاده يكون سنة ٨٤٦هـ)، وفيها يقول:

تمت بشهر الحج في جلفار أوطان أسد البحر في الأقطار
يوم الغـدير أبـركُ الأيّـامِ إذ خُصّ بالإحسان والصيام
وكان في الهجرة يا مولايه ســت وســتون وثــمان مايــه

وصرّح هنا أن وطنه مدينة جلفار وهي رأس الخيمة في دولة الإمارات حاليًّا. وأنها تمّت يوم الغدير. وهو اليوم الذي أعلن فيه الرسول ﷺ ولاية الإمام عليّ على كل مسلم. فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت ﵁ قال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بماء يُدعى خمًّا بين مكة والمدينة (وذلك بعد عودته من حجة الوداع في آخر السنة العاشرة من الهجرة) فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه. ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

وحديث الثقلين قد ورد في سنن الترمذي عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: أني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أثقل من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض كيف تخلفوني فيهما». وأورده الحاكم النيسابوري وفي آخره: إن الله ﷻ مولاي، وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد عليّ ﵁ فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه» فقال عمر بن الخطاب ﵁ لعليّ: أصبحت مولاي ومولى كل مسلم. وحديث الثقلين وإعلان عليّ وليًّا للمؤمنين أقرّه أهل علم الحديث من أعلام السنة.

ورغم أن ابن ماجد يعتبر من أهل السنة، إلا أنه على عكس ما يفعله كثير منهم، لم يتجاهل حديث غدير خم (حديث الثقلين والولاية)، بل أشاد به

واعتبره من أبرك الأيام. وقد كان ذلك في أواخر شهر الحجة بعد قفول النبيﷺ.. واعتبره ابن ماجد يوم مبارك خُصَّ بالإحسان والصيام. فللَّه در ابن ماجد الذي عرف قدر آل البيت ومكانة الإمام عليّ كرّم الله وجهه، ولا يتأتى ذلك إلا أنه درس وتتلمذ على أحد رجالات آل البيت الكرام وامتلأ قلبه من محبّتهم. وقد عُرف أنه زار العيدروس العدني وأخذ منه كثيراً من الأدعية وحزب البحر للشاذلي.

وتاريخ وفاة ابن ماجد أيضاً مجهول، كما يقول البحاثة السيد حسن صالح شهاب، ولكنه نظم قصيدته (السفالية) بعد عام ٩٠٦هـ وعمره قد جاوز الستين.. وبعد هذا التاريخ لم تظهر له قصيدة.

و«**جُلَّفار**» **وطنه**، هي - كما جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي - «بلد بعُمان، عامر كثير الغنم والجبن والسمن، يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان».

وقال الربّان منصور بن الحاج إبراهيم وهو يقدم مختصراً في علم البحار من كلام أحمد ابن ماجد: «فهذا مختصر في علم البحار من كلام الشيخ الأولي عارف البلدان، الموسوم بمعلّم البحرين والبرّين، المعلم الشيخ أحمد بن مايد[1] (ماجد) بن محمد بن عمرو بن يوسف بن فضل بن حسن بن حسين بن دويك السعدي ابن أبي الركائب النقدي (النجدي وينطقون بالقاف الجافة مثل أهل حضرموت ومناطق كثيرة من السعودية وصعيد مصر أقرب إلى الجيم بدون

---

(١) مايد أي ماجد، وبعض قبائل العرب تحول الجيم إلى ياء. وقد قال الرسول ﷺ عن الشبرم (مادة لإسهال البطن) حار يار أي جار على طريقة لهجات بعض العرب. وهي موجودة إلى اليوم في الإمارات العربية المتحدة والكويت وحضرموت وبعض مناطق أبها وعسير في المملكة العربية السعودية.

تعطيش) ساكن جلفار وهي طلع من رأس الخيمة». وقد كانت رأس الخيمة تابعة لعمان (الإمامة).. ولهذا يحتفل أهل عمان بتراث أحمد بن ماجد السعدي ويجمعونه وينشرونه. جزاهم الله كلّ خير.

نشأة ابن ماجد

كان جدّه محمد بن عمرو السعدي ماهراً في الملاحة في البحر الأحمر. وكان خبيراً بالأماكن الخطرة على السفن فيه، ثم صار والده كذلك وزاد عليه علماً وخبرة، قال ابن ماجد: «فلما جاء زماننا جرّبنا هذا وكرّرنا أربعين سنة. وقد حرّرنا وقرّرنا علم الرجلين النادرين، وأرّخناه، وفهمنا جميع دروبه» (أي دروب البحر الأحمر الذي كان يسمى القُلزم). وقال إن ربابنة البحر الأحمر كانت تسمّي والده «ربان البرَّين» أي الساحلين العربي والإفريقي للبحر الأحمر. وقد قام ابن ماجد بنظم الأرجوزة الحجازية، في أكثر من ألف بيت، لم يدع فيها جزيرة ولا شعباً (بحريًّا) إلا ذكره. ومع ذلك فقد ختم أرجوزته بقوله:

قــد فــرغ القرطــاس والمــداد وما بلغت العشر من أعـدادي[1]

وقد عاش أحمد بن ماجد ووالده وجدّه معظم حياتهم في البحر، بعيداً عن الأوطان، وكانت الزوجات والأسرة تعاني من بُعْدِهم. ووصف ابن ماجة فراقه لزوجته المكية العامرية وفراقها له، ولوعتها عليه، ولوعته عليها في قصيدته المكية قائلاً:

ومن لم يكن في الركـب نـاه وآمـرِ يفـارق مـن يهـوى بجـزِّ الحنـاجرِ

(١) حسن صالح شهاب: النونية الكبرى مع ست قصائد أخرى، نظم شهاب الدين أحمد بن ماجد، شرح وتحقيق حسن صالح شهاب، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣، ص ١٣.

فقضّيت ما قـضّيت منهـا معجّـلاً	سـقى الله أهليهـا ثقيفـاً وعـامرِ
ففارقتهـا دمعـاً يفـيض كأنـه	... [١] عـلى جيرانهـا والعـشائرِ
وَسرتُ بقلبٍ كـاد يقـضي تأسـفاً	وزوّدت من سكان مكـة بنـاظري
ولا برح التذكار عندي وشـوقهم	يجـاذبني مهـما خطـين الأبـاعرِ
إلى أن نظـرت عنـد جـدة بحرهـا	به راسيات الفُلـك فـوق الأنـاجرِ
ركبتُ على اسم الله بحري سفينتي	وعجّلـت فيهـا بالـصلاة مبـادرِ

وابن ماجد رجل تقي، كثير الأوراد، حريص على إقامة الصلوات في أول أوقاتها، مبادر لها، شغوف بها.

ركب أحمد بن ماجد البحر منذ صباه، وتعلم الحساب العربي والهندي المتعلق بالقياسات والمسافات البحرية، قال:

وكـم نظـرت في الحـساب العـربي	وحسبة الهندي منذ كنـت صـبي[٢]

وتلقى دروسه في علم الملاحة على يد والده وملاح آخر يدعى ابن هيثم وشيوخ في الملاحة ذكرهم على الإجمال في أرجوزته الميميّة:

ألا ليت شعري هل تراه شـيوخنا	فتحمـده أو والـدي وابـن هيـثم

ولم يكتفِ بذلك بل كان واسع الاطلاع كثير القراءة لكتب الملاحة خاصة، وكتب الأدب عامة. وعن هذه الكتب نقل كثيراً من المعلومات البحرية إلى أرجوزته الحاوية[٣].

وذكر ابن ماجد ما يدور من مناظرات بين شيوخ علم البحر في المسائل

(١) كلمة ممحوة من المخطوط.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

(٣) المصدر السابق.

العويصة حين يجتمعون في أحد المواني.. وكان هو فارسها وابن بجدتها.

وكان ابن ماجد في كهولته ورجولته شديد التمسك بأهداب الدين حتى عرف باسم حاج الحرمين الشريفين. وصحح بعض ما كان من أخطاء بحرية أو فلكية في قصائده التي وضعها في فترة الشباب الباكر. وقد استدرك بعض أخطاء أرجوزته في «الحاوية» وصححها، كما قال بنفسه(١). وكأي بحار كانت له عدة زوجات في عدة مواني لكثرة أسفاره، وما كان لابن ماجد الشديد التدين أن يذهب إلى الغواني، فلما تقدمت به السن قال:

لقد كنت قبل اليـوم مملـوك شـهوة ... وقد صرت حُرًّا والهوى صار خادمي
كتابي جليسي والجميلة متجـري(٢) ... وعقلي مشيري والفتاكة صـارمي(٣)

ويا له من رجل ارتفع حتى هجر النساء إلا عند عودته من رحلاته الطويلة حين يعود إلى زوجاته. ولعله طلّق أكثرهن..

وزاد اهتمامه بالكتب وخاصة في مجال تخصصه في العلوم البحرية وعلوم الفلك. وقد هداه طول تأمّله في النجوم ورصد مطالعها ومغاربها إلى استنباط قياسات جديدة لها، لم تكن معروفة من قبل، كان يستدل بها على المواقع الصحيحة للمراسي والرؤوس وغيرها. كما اكتسب أثناء أسفاره في طول المحيط الهندي خبرة ومعرفة واسعة بالطرق البحرية الآمنة حتى وصل جزيرة مدغشقر وماليندي وجنوب إفريقيا وسواحل الهند الشرقية. وكان الخبير بها حتى تودد إليه الملوك، فقال:

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦.

(٢) أي فعل الأفعال الجميلة المحمودة مثل الكرم والنجدة.

(٣) الفتك بالأعداء، وهو رغم تقدّمه في السنّ إلّا أنّه لا يـزال مـاهراً في القتـال يفتـك بالأعداء.

أنفقت عمري على علمٍ عُرفت بـه   فازددت بالعلم تـوقيراً عـلى الكـبرِ
لـو لم أكـن لـذا أهـلاً لمـا عُنيـت   بيَ الملـوك وهـذا غايـة الـوطرِ(١)

وقد عُنيت به الملوك حتى تتم التجارة البحرية الآمنة، ويستفيدون من ذلك في تجاراتهم وما يفرضونه على البضائع من عشور وجمارك.

هل أرشد ابن ماجد فاسكو دي جاما؟

لقد راجت هذه القصة رواجاً كبيراً، وينكر الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه «ابن ماجد والبرتغال» هذه التهمة بشدّة، وقال إن أول من ذكر ذلك هو المؤرخ العثماني قطب الدين النهروالي المتوفى سنة ٩٩٠هـ/ ١٨٢٢م في كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني. وقال ما نصه:

«وقع في أول القرن العاشر (١٤٩٥م) من الحوادث والفوادح النوادر دخول الفرتقال (البرتغال) اللعين، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند. وكانت طائفة منهم يركبون في زقاق سبته (ميناء في المغرب مقابل أسبانيا والبرتغال ولا تزال أسبانيا تحتله إلى اليوم) في البحر ويلجون في الظلمات (والمقصود المحيط الأطلسي لأنه كان يُسمى بحر الظلمات) ويمرون بموضع قريب من جبال القُمر (وجزيرة القمر الكبرى هي جزيرة مدغشقر والساحل المواجه لها من جنوب إفريقيا) في مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد (لعله يقصد رأس الرجاء الصالح) إلى أن دلّهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد، صاحَبَه كبير الفرنج. وكان يقال له المسندي (أي أمير البحر – الأميرال) وقال لهم: لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج، فلما

(١) المصدر السابق، ص ١٧.

فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند وبنوا في (كوّة) قلعة.. ثم أخذوا هرموز (هرمز في مدخل الخليج الفارسي) وتقووا هناك، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال»(١).

وقد ردّ الدكتور عبد الهادي هذا القول وأنكره واستدل بما كتبه البرتغاليون أنفسهم في تلك الفترة، ولم يذكر أحدٌ منهم ابن ماجد، بل ذكروا شخصاً آخر سموه المعلم كاناكا Malemo Ganaqua وسماه آخرون المعلم كانا Gana وسماه الشاعر البرتغالي (كاموس) (١٥٧٢): ميلماندو Melmando، ولعلها أيضاً تحريف المعلم. وهذا الشخص من كوجرات في الهند كان في ماليندي في شرق إفريقيا وتم إغراؤه بالمال والنساء فدلّهم على الطريق البحري الذي عرفه العرب من قبل.

يؤكد حسن صالح شهاب في مقدمته للنونية الكبرى(٢) أن النهروالي كان متحاملاً وكاذباً عندما ذكر أن ابن ماجد أغراه البرتغال الملاعين بالمال والنساء وأنه علمهم الطريق في حال سكره. ومن المعلوم أن طريق البحار الخطيرة، لا يجازف فيها الربابنة وهم سكارى.

وقد علل حسن صالح شهاب النسبة إلى ابن ماجد أنه كان أشهر ملّاح في تلك الفترة من الزمن، وأنه أكثر الناس خبرة بالمحيط الهندي إلى شرق وجنوب إفريقيا. ولهذا قام النهروالي وغيره بالزعم أن ابن ماجد هو الذي دلّ البرتغال على الطريق البحري، بعد أن كانت مراكبهم تنكسر في الأمواج العاتية.

---

(١) د. عبد الهادي التازي: ابن ماجد والبرتغال ط ٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، وزارة التراث والثقافة، مسقط- عمان، ص ١٠- ١٨ مع اختصار طفيف، وما بين المعقوفتين من كلامي لتوضيح الغامض من تعبيراته.

(٢) حسن صالح شهاب: النونية الكبرى، ص ١٨- ٢١.

ويقول حسن صالح شهاب: لكن ابن ماجد الذي يروي لنا في أرجوزته «السفالية» خبر وصول الإفرنج إلى مياه المحيط الهندي وغرق سفنهم في بحر سفالة (موزمبيق) وما أثاره وصولهم من القلق والخوف بين البحارة والتجار وسكان الموانئ.. ويقول إن مراكب الإفرنج جازتها عام ٩٠٠هـ ثم وصلوا إلى كاليكوت (قاليقوط) في الهند عام ٩٠٦هـ.

قال ابن ماجد:

جازتها في عام تسعمائة مراكب الإفرنج يا أخايه
تجيز.. [١] عامين كاملين فيها ومالوا الهند باليقين
ورجعوا من هندهم للزنج[٢] في هذه الطريق الإفرنجِ
وجاء الكاليكوت خد ذي العايدة لعام تسع ماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما والسامري برطله وظلما
وصار فيها مبغض الإسلام والناس في خوف واهتمامِ
وانقطع المكي عن أمر السامري[٣] وسدّ جردفوي للمسافرِ[٤]

وما ذكره ابن ماجد في ذم البرتغال وما أحدثوه، للرد على هذه الفرية التي تزعم أنه هو الذي دلّهم. وفي هذا غنية عن الإطالة في الرد.

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) الزنج هو ساحل إفريقيا الشرقي والزنوج هم سكانها.

(٣) ذكرت بعض كتب التفسير والتاريخ أن السامري الذي كان مع قوم موسى أصله من الهند. والناظم يشير بذلك إلى انقطاع الرحلة التجارية من مكة (جدة) إلى الهند والعكس صحيح.

(٤) جردفون: هي جردفوي بين ساحل شرق إفريقيا والبحر الأحمر. والمقصود أن البرتغال بدأوا يسيطرون على هذه البحار. ورأس جردفوي في الصومال، وهو أقرب مكان إلى جزيرة سقطرى.

آثار ابن ماجد

يقول حسن صالح شهاب أن التراث الملاحي قبل ابن ماجد ضائع، وأن ابن ماجد هو صاحب الآثار البحرية العربية الكاملة الموجودة[١]. وذكر ابن ماجد بعض مؤلفات العرب في علم الملاحة والإرشادات البحرية، منها كتاب (رهمانج)[٢] أي الإرشادات البحرية، ألفه الأسود الثلاثة محمد بن شادان، وسهل بن أبان، والليث بن كهلان. وقال إنه اطلع على نسخة من هذا الكتاب بخط إسماعيل بن حسن بن سهل، حفيد سهل بن أبان أحد المؤلفين، وتاريخ نسخها ٨٥٠هـ.

وذكر أن أحمد بن طبرويه ألف في علم الملاحة وأن الأسود الثلاثة أخذوا من كتابه كما ذكر أن المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركي وصف الطريق البحري إلى الهند.

وقد أشاد ابن ماجد بها في كتاب الليوث الثلاثة، رغم انتقاده لبعض ما فيه من أخطاء. وهذا أمر متوقع فبينهم وبين ابن ماجد ستة قرون تقريباً.

ونقل سليمان المهري تلميذ ابن ماجد كثيراً من أقواله ونظمه. وقد ظهر من مؤلفات ابن ماجد كتاب الفوائد وقصائده العديدة. وقد عثر المستشرق الفرنسي (جبرئيل فران) على بعض مؤلفات ابن ماجد ونشرها عام ١٩١٣، وهي[٣]:

١- كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد.

٢- أرجوزة: حاوية الاختصار في أصول علم البحار.

(١) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٢) الرهمانج: تعني الرحمني، ولست أدري مصدرها فارسية أم هندية.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥- ٢٧.

٣- أرجوزة «المعرِّبة» في وصف الطرق البحرية في خليج عدن (الخليج البربري نسبة إلى بريرة).

٤- أرجوزة «تحفة القضاة» في تحديد سمت القبلة في جميع بلدان العالم القديم.

٥- قصيدة بر العرب في وصف الطريق البحرية في الخليج العربي (الذي كان يعرف بالفارسي).

٦- قصيدة في قسمة أزوام الحِمّة على سير نجوم (بنات نعش الكبرى= الدب الأكبر).

٧- قصيدة «كنز المعالمة وذخيرتهم» في قياسات بعض النجوم.

٨- العمدة البحرية في ضبط العلوم البحرية.

٩- المنهج الفاخر في علم البحر الزاخر.

١٠- القصيدة المهرية[(١)].

١١- قصيدة في وصف علامات الوصول إلى بر الهند والعرب.

وهي ١٥ أرجوزة وقصيدة.

ثم نشر المجموعة الثانية سنة ١٩٢٥ وتضم مؤلفات سليمان بن أحمد المهري[(٢)]، تلميذ أحمد بن ماجد وهي: «العُمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية»

---

(١) هذه المجموعة (٨- ١٠) ليست من مجموعة المستشرق الفرنسي جبرئيل فران. ولابن ماجد أيضاً كتاب «المراسي على ساحل الهند الغربية» وأرجوزة «بر العرب في خليج فارس».

(٢) المهري نسبة إلى المهرة وتقع شرق حضرموت، وهي إحدى محافظات الجمهورية اليمنية. وقد اشتهرت المهرة في التاريخ بالنوق المهرية، فهي أفخر أنواع النوق، كما اشتهرت هي وعمان بالخيول العربية. وهناك عدد من علماء المسلمين وخاصة في المغرب والجزائر يعرفون بالمهري، أي نسبة إلى المهرة، وهي قبيلة من قضاعة اليمنية الحميرية.

و«المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر» و«شرح تحفة الفحول» ورسالة«قلادة الشموس واستخراج الأسوس»، بالإضافة إلى ثلاث قصائد أخرى لابن ماجد هي:

١- «الهادية» في وصف السفر من عمان إلى الهند.

٢- السبعية: وهي أرجوزة وصف فيها الطرق البحرية بين الهند والبحر الأحمر.. ووصف جزر الفال (الكاديف حالياً) وجزر «ذيبة المهل» (المالديف حالياً).

٣- اليتيمة وهي في شرح قياسات بعض النجوم.

وبعد فران الفرنسي ظهر المستشرق الروسي كراتشكوفسكي الذي عثر على مخطوطة لابن ماجد عام ١٩١٩ تحتوي على ثلاث أراجيز. وقد قام المستشرق شوموفسكي الروسي بدراسة وتحقيق مخطوطة لينجراد (بطرسبرج) ونشرها عام ١٩٥٧، وهي تحتوي ثلاث أراجيز هامة هي السفالية والمعلقية والتائية.

وقد قام الباحث اليمني السيد حسن صالح شهاب بنشر سبع قصائد لابن ماجد لم تُنشر من قبل، وجدها في دار المخطوطات بمسقط التابعة لوزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان. وهي **النونية** الكبرى المسمّاة بقصيدة الخيل، ومقدارها ١٤٠ بيتاً شرحها السيد حسن شهاب شرحاً موجزاً. وقصيدة **المعرِّبة** التي عرَّبت الخليج البربري (خليج عدن) وصححت قياساته وهي ١٨٣ بيتاً. وأرجوزة **الحاوية** في علم البحار، وهي أطول قصائده. و**كنز المعالمة** في قياسات بعض النجوم. و**مخمسة الاستوايات** في قياس طوالع النجوم. وقصيدة **الهاوية** في وصف طرق وقياسات أهم مواني ساحل الهند الغربي. وقصيدة أخرى مخمّسة.

وهكذا نجد ابن ماجد العلم الزاخر في علوم البحار، يتأثر بالعيدروس

العدني، ويأخذ عنه حزب البحر والأوراد الأخرى التي ظلّ يواظب عليها طوال حياته المديدة.

* * *

ومن تلاميذ العيدروس العدني:

الشيخ عبد الله بن عبد الله باقشير، وقيل محمد بن عبد الله باقشير (٨٨٠-٩٥٨هـ)

الفقيه بن الفقيه عبد الله بن عبد الله باقشير الحضرمي الشافعي، المولود بحضرموت. أخذ من العديد من العلماء ومنهم الإمام أبي بكر بن عبد الله العيدروس. وقد جمع الله له العلم والعمل والورع. ومن كتبه «قلائد الخرائد وفرائد الفوائد» وكتاب «السعادة والخير في مناقب السادة بني قشير».

مسجد العيدروس بعدن

يعتبر مسجد العيدروس بعدن (كريتر) من أشهر معالمها. وهو مسجد أُسس على التقوى من أول يوم. وقد كان أول ما عمله السيد أبو بكر العيدروس بعد دخوله عدن عام ٨٩٩هـ أن ابتدأ ببناء المسجد وانتهى منه عام ٨٩٠هـ.

وعندما توفى العيدروس عام ٩١٤هـ، قام السلطان عامر بن عبد الوهاب ببناء قبة عليه لأنه دفن خارج المسجد (شمال القبلة). ثم بنى الأمير مرجان الظافري (مولى للطاهريين، حكم عدن، وكان من الدهاة والرجال الذين يعدّون للأمر عدّته. وقد صدّ الهجوم البرتغالي على عدن مرتين، وألحق بهم هزيمة ساحقة في المرة الثانية. وكان من المتعلقين بالعيدروس العدني، كما كان عادلاً، وعلى درجة من العلم بالشريعة) رباطاً كبيراً ملحقاً بالمسجد لطلبة العلم، وداراً كبيرة لسكنى الشيخ القائم بالتربة والمسجد. ثم بنى الشيخ محمد ابن عبد الملك ثلاثة أروقة محيطة بالقبّة.. وكان التجديد الأول في عهد العثمانيين سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م.

وتمّ تجديد المسجد أيضاً عام ١٢٧٢هـ بواسطة أحد أثرياء الهند من حيدر أباد. وانتهت عملية التجديد عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٩٥م وفقاً لما ورد على لوح خشبي موجود بالمدخل الرئيسي للقبّة والمسجد.

وقد حصلت توسعة حديثة عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م. ثم بعد أن هجم على المسجد مجموعات من التكفيريين الذين يدّعون السلفية والوهابية قاموا بتهديم

أجزاء من الجامع وتهديم القبور وإخراج الجثث وحرقها، وذلك بعد إعادة الوحدة، والتي تمّت في ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

وقد حدثت هذه الحوادث المؤسفة بسبب التعصب المقيت والجهل بأحكام الدين الإسلامي الحنيف الذي يحرّم الاعتداء على القبور، وإخراج الجثث وحرقها عمل إجرامي بشع لا يقرّه دين ولا قانون.

وقام السيد مصطفى بن زين العيدروس، المنصّب الحالي، بإعادة البناء والتوسعة عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، وقد قامت الدولة باستنكار هذا العمل المشين وعاقبت بعض المعتدين، كما ساهمت بإعادة الترميم والبناء.

وكان في المسجد بعض آثار العيدروس العدني منها عصاه التي كان يستعملها عند إلقاء الخطبة. وكان الخطباء من بعده يستخدمونها، فنُهبت وفُقدت بعد هذا الاعتداء الغاشم، كما فُقدت السبحة التي كان يسبّح بها العيدروس، والطاسة التي يشرب بها الماء.

ونُهبت أبواب الضريح وإحدى نوافذ المسجد، وأُحرقت مع عظام الموتى الذين نُبشت قبورهم.

وكانت هذه الأبواب والنوافذ من الساج المستورد من الهند، وكذلك المنبر، فأُعيد ترميمها من جديد واستيراد الساج من الهند.

وكان الإمام العيدروس العدني يقيم الحضرة في مسجده بعد صلاة العشاء كل اثنين، ويبدأون بقراءة الفاتحة ثم الذكر المعروف بذكر العيدروس، وهي مجموعة الأذكار التي رتّبها والده الإمام عبد الله العيدروس، وقد أشار إليها أبو بكر العيدروس العدني قائلاً:

وذكرُ العيدروس القُطب أجلى عن القلبِ الصِّدا للصادقينا

البن وتجارته[1]:

ثم بعد الفراغ من الذكر تنشد الأناشيد الجماعية، ثم ترتب الفاتحة. ويدار أثناء الحضرة بشيء من البُنّ المحمّص لطرد النعاس، وبقي تقليداً في الحضرة إلى اليوم. والجدير بالذكر أن كلمة القهوة في اللغة العربية تعني الخمر، وهو أحد مفردات الخمر الكثيرة في اللغة العربية. ولهذا لما بدأ العيدروس استخدامها عُرفت باسم القهوة البُنّيّة لتمييزها عن القهوة، وغلط فيها بعض الفقهاء عند ظهورها فحرّمها، ثم لما عرف الحقيقة أباحها.

وقد كان العيدروس أول من نشر استخدام القهوة البُنّية لتساعدهم على السهر والعبادة، وعرفها الصوفية، وانتشرت بينهم، ثم عرفها الناس كافة وانتشرت زراعتها في اليمن حتى أصبحت المخا (Mokha) أهم ميناء لتصديرها في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. ودرّت ثروة كبيرة للبلاد. واستمرّت المخا على ذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بعد استيلاء الإنجليز على عدن، عندما أصبحت عدن تنافس المخا، ثم تتفوق عليها.

وعرفت أماكن القهوة في الدولة العثمانية وأوربا والولايات المتحدة باسم

(١) ذكر جافين في كتابه: «عدن تحت الحكم البريطاني»، أن أهل اليمن بدأوا يستعملون قهوة البن منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (بعد أن نشرها العيدروس). وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي وصلت قهوة البن إلى مكّة ومنها إلى مصر وسوريا، وفتح أول محل للقهوة في تركيا سنة ١٥٥٤م ومنها إلى أوربا. وافتتح أول محل في لندن سنة ١٦٥٠م، وفي أمستردام ١٦٦٠م، وباريس ١٦٧٠م، وفينا سنة ١٦٨٠م. وكان البنّ اليمني يُشترى بالذهب والفضة، ونمت **المخا** والحديدة وبيت الفقيه. وجاءت السفن من أوربا وأمريكا تتنافس لشراء البن اليمني. واغتنت اليمن بسبب قهوة البن التي نشرها أبو بكر العيدروس (العدني). وهو دور هام في الجانب الاقتصادي.

(Mokha) أي المخا. وإلى الآن يستخدم اسم (Mokha) على نوع معيّن من القهوة.

وجاء في الموسوعة العربية الميسرة (طبعة فرانكلين) أن العيدروس (العدني) هو مبتكر القهوة المتّخذة من البن اليمني.

وهكذا يضاف إلى العيدروس دور اقتصادي هام استمر لأربعة قرون كأهم دخل تجاري لليمن، وانتعشت بذلك المخا وأجزاء من اليمن، ثم تحولت تجارة البن إلى عدن بعد احتلال بريطانيا لعدن وجعلها ميناءً حرًّا.



يبدو مسجد العيدروس تحت جبل شمسان وأمامه المقبرة التي يدفن فيها كثير من أبناء عدن. وبجانب ضريح السيد أبي بكر العيدروس، وهو شمال المسجد، مكان آخر للقبور الخاصة ببعض حكام عدن مثل مرجان الظافري، وكثير من علماء وأعيان عدن والصالحين.

وتم أول تجديد للمسجد في عهد العثمانيين سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م (أي بعد وفاة العيدروس بأكثر من ستين عاماً). والتجديد الثاني وهو الأهم قام به أحد أثرياء الهند حيث جدّد المسجد والقبّة والمدخل الرئيسي الشرقي وذلك سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٩٥م وفقاً لما ورد على لوح خشبي موجود بالمدخل الرئيسي للقبة والمسجد. وهناك ترميم قام به إسماعيل حبيب الميمني سنة ١٩٥٠م. وتم التجديد الأخير، وهو محدود، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م على يد المنصّب السيد مصطفى بن زين العيدروس بعد أن قام عدد من التكفيريين بالهجوم على المسجد وهدم القبور وإخراج الجثث وإحراقها بعد إعادة الوحدة عام ١٤١٤هـ/ ٢ سبتمبر ١٩٩٤م، وهو عمل مشين أدانته الدولة، وساهمت في إعادة بناء ما تهدّم من المسجد والقبور.

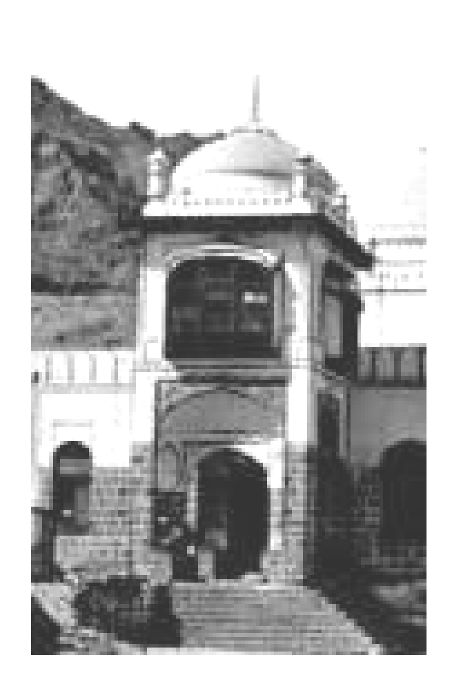
وأضيف رباط للطلبة (غرف طلبة العلم) في جنوب الجامع في نهاية القرن العشرين الميلادي.



جامع العيدروس بمنارته المميّزة



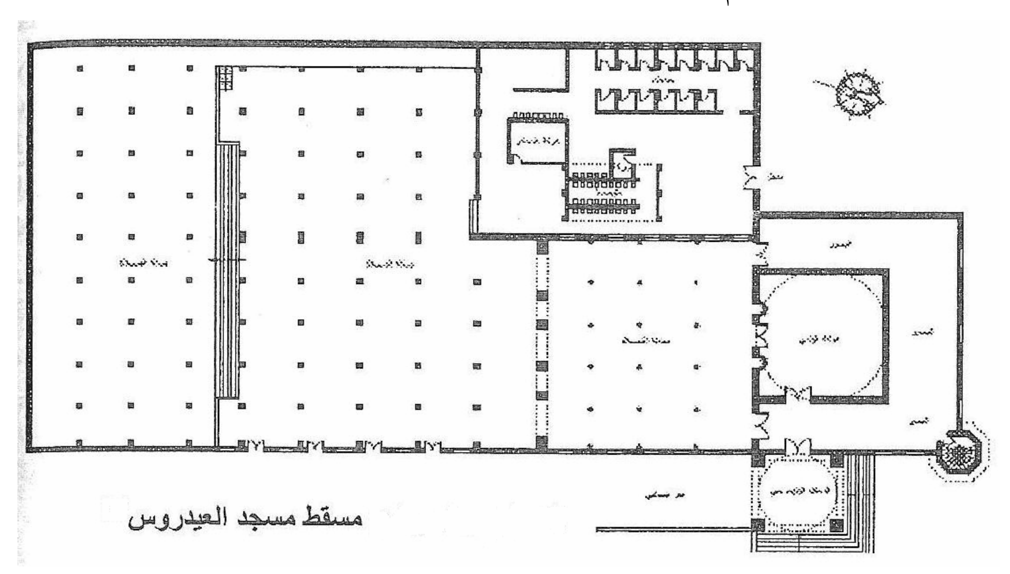
منارة مسجد العيدروس المميّزة



المدخل الرئيسي للجامع

مسجد العيدروس[١]

تبلغ مساحة المسجد الإجمالية حوالى (٢٠١٢م^{٢}) ومنها (٣٠٥م^{٢}) للخدمات و(٢٧٤م^{٢}) للملحقات.



مسقط مسجد العيدروس

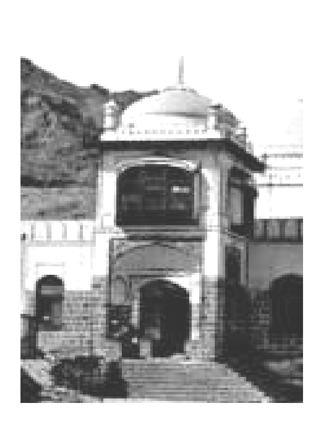
المدخل الرئيسي تغطيه قبّة يصعد إليها عن طريقة درجات سلم، ويزين القبّة زخارف ومنمنات نباتية وهندسية مرسومة باللون المائي على طبقة من الجص الجيري بطريقة الأفريسيك (Fresco)، ويواجه المدخل عقد مفصّص أخّاذ يشبه تلك العقود المنتشرة في جوامع المغرب العربي.

---

(١) المعلومات المدرجة في موضوع مسجد العيدروس، مأخوذة من ندوة: عدن، بوابة اليمن الحضارية، المنعقدة في جامعة عدن من ١٨ إلى ١٩ يناير سنة ٢٠٠١م. في بحث: معالم مدينة عدن بين الأصالة والحداثة، للباحثين: د. محمد الكبسي وم. مارسيل خان .



قبّة المدخل الرئيسي لمسجد العيدروس



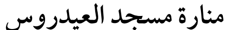


المدخل الرئيسي لمسجد العيدروس

توجد للمسجد منارة عالية باتت من معالم المدينة وهي ملاصقة للجدار الشمالي للقبّة في الركن الشرقي، ومبنية من حجر الحبش الأسود. وتتكون من بدن مثمن الشكل والأضلاع به ثلاث دورات خشبية تنتهي في الأعلى بقبّة صغيرة مضلعة، ولا توجد فتحات كثيرة في بدن المنارة. ويوجد في الطابق الثالث أربع مشربيات خشبية بارزة عن بدن المنارة كانت تستخدم للأذان. ويلاحظ وجود تأثر بنمط العمارة الإسلامي في بناء المنارة بما هو مماثل في الهند وذلك بحكم التواصل الدائم مع تلك البلدان الإسلامية الذي فرضه الموقع الجغرافي لمدينة عدن، وقد بُنيت في القرن التاسع عشر الميلادي.

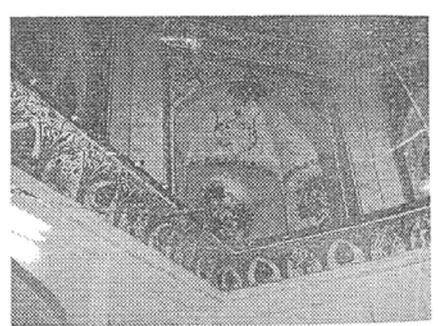


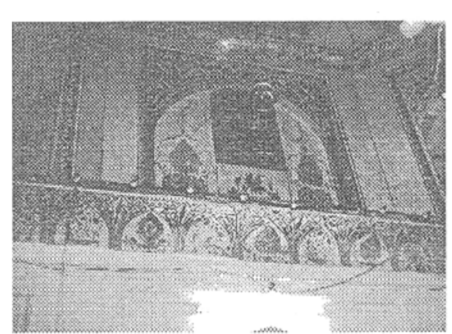




منارة مسجد العيدروس

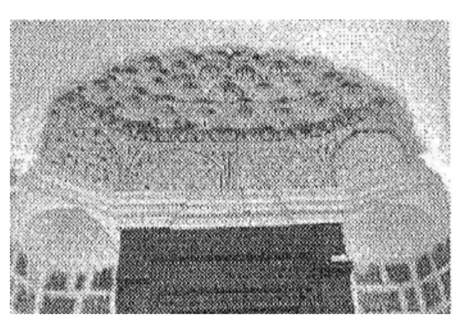
نلاحظ تنوع الزخرفة والنقوش في المسجد من حيث تنوع التطبيقات والأساليب التي تم استخدامها في مراحل التجديدات المختلفة تبعاً لاختلاف المدارس المعمارية الإسلامية، كما يلاحظ أن الزخارف والمنمنمات والفسيفساء المستخدمة في الدهاليز قد تمت باستخدام أساليب الحفر والتخريم.





الزخارف في قبّة مسجد العيدروس من الداخل





الزخارف في المدخل الرئيسي لمسجد العيدروس

دور آل العيدروس بعدن

استمر مسجد العيدروس بعدن في نشر العلم بواسطة رباطه المشهور كما كان لهم دورهم الاجتماعي المرموق منذ أن أسسه السيد أبو بكر بن عبد الله العيدروس العدني، وأول من تولى مقام العيدروس والاعتناء بالمسجد والرباط هو ابنه السيد أحمد المساوي بن أبي بكر العيدروس المتوفى سنة ٩٢٢هـ/ ١٤٤٧م.

ثم تولى بعده السيد محمد بن عبد الله بن علوي بن عبد الله (العيدروس) بن أبي بكر (السكران) بن عبد الرحمن السقاف وهو سبط السيد أبي بكر العيدروس العدني من ابنته مزنة، وكانت وفاته بمكة سنة ٩٧٨م، وجاء بعده أخوه الشقيق عمر بن عبد الله بن علوي ابن عبد الله العيدروس (المولود بعدن سنة ٩٢٦هـ) وقد توفي بعدن سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٢٥م. وعندما هاجم القبطان هينس عدن، كان المنصّب السيد زين العيدروس، وقد اتفق مع هينس ألّا يبيعوا الخمر للأهالي. ولكن هينس نقض العهد. وكان له دور في إنقاذ ضحايا السفينة (دريا دولت) التي تحطّمت قبالة عدن. وكان دوره في الحفاظ على عدن وأهلها بارزاً. وكان للعيدروس دورٌ بارز في الإصلاح بين القبائل المتحاربة. وقام ابنه السيد علوي بن زين العيدروس بالتوفيق بين شيخ العقارب عبد الله حيدرة الذي باع البريقة للإنجليز وبين سلطان لحج فضل محسن. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى وقف السيد عبد الله العيدروس منصّب عدن مؤيداً لبريطانيا باعتبارها صديقة الغرب والمسلمين. ولكن أولاد عمومته في لحج وقفوا مع

سعيد باشا ضد الإنجليز.

ثم تولّى السيد محمد بن عمر ابن السيد عمر المذكور آنفاً. ثم تولى أخوه السيد أحمد بن عمر. واستمرت السلسلة العيدروسية إلى أن تولاها السيد مصطفى بن زين العيدروس عام ١٩٧٢م، ولا يزال فيها، أمدّ الله في عمره. وكان السيد مصطفى قد درس في مدارس عدن وخاصة في مدرسة بازرعة الإسلامية، ثم التحق بالمعهد الديني العالي بالكويت وتخرج منه عام ١٩٧٠[1].

وقد قام بالخطابة والتدريس في هذا المسجد المبارك عدد كبير من العلماء الأجلَّاء منذ زمن مؤسسة أبي بكر العيدروس العدني إلى يومنا هذا. وتولى تلك المهمة أولاً آل العيدروس العلماء النجباء، ثم في العقود الأخيرة اكتفوا بوظيفة المنصّب والقيام على المسجد والرباط، وتركوا غيرهم من أهل العلم ليتولوا هذه الوظائف الدينية من خطابة وإمامة ونشر العلم وحفظ القرآن.. إلخ. وذكر محمد علي لقمان في مذكراته أن السيد عبد الله العيدروس عندما قابل الملك جورج الخامس عند زيارته لعدن في طريقه إلى الهند، رفض أن ينحني (يركع) للملك، وصافحه وهو منتصب، وقال إنه لا يركع ولا ينحني إلّا لله، وذلك سنة ١٩٥٠م.

ومن هؤلاء المتأخرين الشيخ علي بن محمد باحميش رحمه الله، المتوفى سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، والسيد العلامة سالم بن الإمام عبد الله الشاطري، الذي درّس في مسجد العيدروس ومسجد أبان وغيرها من مدارس عدن. وسنفرد ترجمة موجزة لكل واحد منهما.

وقد ظهر من هذه الأسرة العلوية المباركة عدد كبير من العلماء والدعاة والصالحين، ابتداء من مؤسس هذه الأسرة وعميدها السيد الإمام عبد الله

(١) أمين سعيد باوزير: حلقات القرآن الكريم ومجالس العلم في مساجد عدن، ص ٢٩.

العيدروس (وهو أول من تلقّب بهذا اللقب، والعتروس أو العيتروس من أسماء الأسد كما قالوا) بن أبي بكر السكران (بحب الله) بن الإمام عبد الرحمن السقاف. وقد أوردنا ترجمة موجزة له في مشايخ السيد أبي بكر بن عبد الله العيدروس، فهو والده وأستاذه وشيخه. ثم ظهر الإمام أبو بكر بن عبد الله العيدروس الذي أطنبنا في سيرته.

وللإمام العيدروس العدني أخوة علماء صلحاء أتقياء ذكرنا منهم شيخ بن عبد الله العيدروس وحسين بن عبد الله العيدروس، ومنهم علوي بن عبد الله العيدروس.

ولم يكن للسيد أبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني عقب بعد وفاة ابنه أحمد المساوي (٨٨٢ - ٩٢٢هـ) وانتقلت ذرية العيدروس العدني إلى أسباطه من ابنته مزنة. وأول من تولى منهم إمامة المسجد والخطابة فيه سبطه محمد بن عبد الله بن علوي بن عبدالله العيدروس (من ابنته مزنة)، وهو أيضاً حفيد أخيه علوي بن عبد الله العيدروس، ثم تولى شقيقه عمر الخطابة والإمامة في المسجد. ثم استمرت السلسلة العيدروسية.

ومن آل العيدروس الذين ظهروا بالعلم السيد عبد القادر بن شيخ العيدروس، وهو ابن أخ السيد أبي بكر بن عبد الله العيدروس. وله مؤلفات عديدة مشهورة متداولة ومطبوعة، منها: «تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر» ترجم فيه لأعلام القرن العاشر، وهو كتاب هام لأنه يحتوي العديد من أعلام القرن العاشر وخاصة من الحضارم. وله أيضاً كتاب «غاية القرب في شرح نهاية الطلب»، ومنهم السيد شيخ بن عبد الله العيدروس (حفيد السيد شيخ وهو أخو العيدروس العدني) (٩١٩ - ٩٩٠هـ). ولد بتريم ودخل عدن وزبيد ومكة وأخذ عن علمائها واستقر به المقام بالهند. له منظومة «تحفة المريد في

التوحيد» وشرحها «حقائق التوحيد». وله شرح عقيدة الزهراء، ورسالة في العدل، وجواهر الإحياء (إحياء علوم الدين للغزالي)، ومداواة الأولياء، والروض الأريض، والعقد النبوي في مناقب أهل البيت المصطفوي. وله كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، مطبوع مع كتاب الإحياء، وله السلسلة العيدروسية «الطراز المعلم والسر الملهم».

وهناك السيد محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس، وله كتاب «إيضاح أسرار علوم المقربين» وهم الكثير الطيب علماً وعملاً وعبادةً وتقًى وصلاحاً ودعوةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

العلامة الشيخ علي بن محمد باحميش(١)

ولد بمدينة الشيخ عثمان بمحافظة عدن، في ٨ ربيع الأول ١٣٢٨هـ الموافق ١٠ مارس ١٩١٠م، من أسرة حضرمية الأصل أخرجت العديد من العلماء في حضرموت وغيرها، نذكر منهم: (١) قاضي القضاة في عدن الشيخ العلامة محمد بن أحمد باحميش المتوفى عام ٨٦٢هـ، الذي تولى التدريس في المدرسة الياقوتية (مسجد الذهيبي = البصال). وكثير من آل الباحميش إلى اليوم يعيشون في هذا الشارع (ويسمى الآن شارع الملك سليمان).

توفي والده وهو في سن العاشرة، وكان قد درس القرآن قراءة وحفظاً عل يد فقيهين في الشيخ عثمان، هما الفقيه عامر والفقيه إسماعيل بن علي الذي تولى الإمامة في مسجد العيدروس بعدن. ودخل المدرسة الابتدائية الحكومية لمدة سنتين ثم تركها لحاجته واضطراره للعمل. ولكنه لم يترك الدرس على يد

(١) من كتاب «أبرز أعلام الدعاة والتنوير في عدن خلال مائة عـام (١٩٠٠- ٢٠٠٠م) لأمين سعيد عوض باوزير.

المشايخ ومنهم الشيخ قاسم بن أحمد السروري الذي درّسه النحو والصرف والفقه.

وسافر الفتى عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م إلى الصومال والحبشة في طلب المعيشة، ثم عاد منها إلى عدن وفتح متجراً بسيطاً. ولكن نفسه كانت تهفو لطلب العلم، فسافر إلى مصر عن طريق الحبشة والسودان والتحق بالأزهر الشريف، وذلك عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، ومكث هناك سبعة أعوام، حصل على الإجازة العلمية وعاد سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، وصار مديراً لمدرسة بازرعة الخيرية الإسلامية منذ تلك السنة. وقد قام بجهود هامة وكبيرة لرفع مستواها وإدخال الأنشطة العديدة إليها. وتولى الخطابة في مسجد العيدروس منذ عام ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م. وفي نفس العام تولى القضاء الشرعي في عدن خلفاً للقاضي محمد بن داود البطاح الأهدل.

وأصدر أول صحيفة دينية أسبوعية في عدن عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، هي صحيفة (الذكرى). وقامت بينه وبين الليبراليين معارك عدّة. كما قامت بينه وبين الاتجاه السلفي عدّة معارك. وقد أسهم معه في تحريرها الأستاذ الشيخ أحمد عوض باوزير. ثم أصدر صحيفة «العدني» سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

وكان عضواً عاملاً في الجمعية الخيرية الإسلامية التي أسسها مجموعة من العلماء والأثرياء، والشيخ عبد الله المحامي.

وكان من أوائل المشاركين في إذاعة عدن منذ تأسيسها، وكان يقدم حديث الجمعة، بينما يقدم الشيخ محمد بن سالم البيحاني حديث الخميس.

ومن تلاميذه: الشيخ محمد بن عبد الرب جابر، والسيد صادق بن محمد العيدروس، والشيخ أحمد مهيوب، والسيد أبو بكر بن علي المشهور، والشيخ أمين سعيد باوزير، وكلهم برز في مجال الدعوة والعلم والخطابة.. وغيرهم كثير.

وقد وقف ضد الماركسية والماركسيين مما أدى بهم إلى وقفه عن الخطابة في مسجد العيدروس سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م. فأقام الدروس في مسجد أبان، فترصدوا له وصدموه بسيارة لاندروفر عند خروجه من منزله في ٣ رجب ١٣٩٦هـ الموافق ٣٠/ ٦/ ١٩٧٦م وأصابته كسور عديدة ونزف داخلي إلى أن توفي في ٢٩ شوال ١٣٩٧هـ الموافق ١٢/ ١٠/ ١٩٧٧م.

وهناك رواية تقول بأنهم صدموه بالسيارة مرتين: الأولى في عام ١٩٧٦م وأدت إلى كسور، والثانية عام ١٩٧٧م وأدّت إلى وفاته.

وهذا الحكم الطاغوتي الأسود لا يشابهه في التاريخ الإسلامي إلا ما فعله القرامطة حيث قتل أبو سعيد القرمطي الحجاج، وانتزع الحجر الأسود وأباح الدماء والفروج... وما فعله علي بن الفضل القرمطي الخنفري (نسبة إلى خنفر) في اليمن من مذابح وقتل للنساء والأطفال وإباحة الفروج بل أباح البنت لأبيها والأم لابنها، ولم يترك فاحشة من الفواحش الفواقر إلا أباحها، ثم أمكن الله منه وزالت دولته ودولة القرامطة، عليهم لعائن الله. وهؤلاء القرامطة المحدثون الإباحيون اللادينيون قد قاموا بنفس جرائم أسلافهم، وإن كان بصورة مبطّنة، وحاربوا الإسلام وعلماء الإسلام وسمّوهم الكهنوت فكم قتلوا منهم؟ وكم عذّبوا؟ وكم سحلوا؟ ثم جعل الله بأسهم بينهم شديداً، وشغلوا بصراعاتهم على الحكم، وكلما جاءت أمة لعنت أختها، حتى تمت المذبحة الكبرى عام ١٩٨٦م. وجاء بعدها الفرج، إذ ضعفت شوكتهم، واضطر علي سالم البيض إلى القفز إلى الوحدة على اعتبار أن الحزب الشيوعي الماركسي السرّي في الشمال، سيمكّن له من إعادة دولة الإباحية والشيوعية، فخاب أمله وانتهى طريداً بعد أن قام بالانفصال عام ١٩٩٠م وسرق المليارات التي جمعها من دول الخليج ومن خزانة الدولة وحوّلها لحسابه في سويسرا.. وهكذا انتهت غُمّة الحكم الماركسي في اليمن كما انتهى في أوربا الشرقية وروسيا ذاتها، وانتهى في الفترة نفسها الاتحاد السوفيتي وتحول إلى النظام الرأسمالي.. وكلاهما يسيطر عليه اليهود.

السيد العلامة سالم بن عبد الله الشاطري[1] (١٣٥٩- ....)

ولد بمدينة تريم سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٣٧م بحضرموت - اليمن، ونشأ بها في بيئة صالحة، ويكفي أن والده هو الإمام الداعية السيد عبد الله بن عمر بن أحمد الشاطري، شيخ رباط تريم الشهير. وعلى يد تلاميذ والده تلقى دروسه وحفظ القرآن الكريم، واقتدى به في سمته وسلوكه. ثم رحل إلى مكة المكرمة سنة ١٣٧٦هـ لطلب العلم على شيوخها الذين احتفوا به وأمدّوه بوافر علمهم.. منهم السيد العلامة علوي بن عباس المالكي الحسني (وفاته ١٣٩١هـ) الذي أخذ عنه التفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه. ومنهم العلامة الشيخ حسن بن محمد المشّاط (وفاته ١٣٩٩هـ)، والسيد سالم بن طالب العطاس، والسيد حسن ابن محمد فدعق (ت ١٤٠٠هـ)، والسيد أبو بكر بن سالم البار (ت ١٣٨٤هـ)، والشيخ محمد نور سيف هلال المكي (ت ١٤٠٣هـ)، والشيخ زيني بويان الجاوي (صاحب الصوت الجميل). وأخذ عن الشيخ عبد الله بخاش علم الحساب، والفلك عن الشيخ عبد الحميد زكريا الأندونيسي والشيخ محمد بن ياسين الفاداني. وأخذ عن الشيخ عبد الله سعيد اللحجي القواعد الفقهية. وأخذ عن الشيخ حسن بن سعيد يماني (والد الشيخ أحمد زكي اليماني وزير البترول الأسبق في المملكة العربية السعودية الشهير) الفقه الشافعي وأصوله حيث كان الشيخ حسن اليماني مفتي الشافعية بمكة المكرمة.

ومشايخه في حضرموت جمّ غفير، منهم: الإمام علوي بن عبد الله بن

---

(١) اختصرت ترجمة العلامة السيد سالم الشاطري من ترجمة المؤلف لكتاب «نيل المقصود في مشروعية زيارة نبيّ الله هود» ط٢، ص ٢٣٩- ٢٤٩، مكتبة تريم الحديثة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

شهاب، والعلامة السيد محمد بن سالم بن حفيظ (الذي قتله الشيوعيون الماركسيون المجرمون عام ١٣٨٦هـ كما قتلوا العديد من العلماء، باعتبار أنهم كهنوت[1] يدعون للإسلام)، والسيد عمر بن علوي الكاف والعارف بالله السيد جعفر بن أحمد العيدروس، والشيخ العلّامة سالم سعيد بكّير باغيثان، والشيخ العلامة فضل بن عبد الرحمن بافضل، والشيخ المسند سالم بن جندان، والشيخ العلامة محمد بن سالم البيحاني العدني، والشيخ العلامة علي بن محمد باحميش، والإمام الداعية الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف، كما أخذ عن إخوته (إذ هو أصغرهم سنًّا) العلماء الفضلاء: السيد محمد المهدي والسيد أبو بكر والسيد حسن أولاد الإمام عبد الله الشاطري.

وقد امتلأ علماً وأدباً وسلوكاً، واتسعت دائرة معارفه فشملت علوم الشريعة من تفسير وعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه وأصول الفقه وقواعده، وعلوم اللغة وخاصة النحو، والفلك والحساب، والتاريخ وخاصة تاريخ حضرموت وأنساب أسرها وقبائلها.

وقد عاد من رحلة الحجاز عام ١٣٨١هـ إلى بلده تريم ودرّس في رباط تريم المشهور وانتقل إلى عدن ومكث فيها ١٥ عاماً كان يخرج خلالها إلى تريم للزيارة وللتدريس في الرباط ثم يعود إلى عدن (١٩٦٠- ١٩٧٦م).

---

(١) كلمة كهنوت من الكلمة العبرية كوهن (أي كاهن). وحسب التوراة فلا يكون كاهناً إلّا من كان من نسل هارون ﷺ. ثم انتقل اللفظ إلى النصارى. والكاهن هو الذي يتولّى الأمور الدينية ويدخل إلى المذبح وإلى قدس الأقداس، لأنه طاهر عندهم، أما الآخرون فهم نجسون ولا يحقّ لهم ذلك. وكَهَنَ، في اللغة العربية، كهانة، أخبر بالغيب صدقاً أو كذباً. وكلّ من أخبر بالغيب مثل المنجّم يقال له كاهناً. وحلوان الكاهن أجره، والكهنوت والكهانة حرفته.

وتولى التدريس في العديد من مساجد عدن وأهمها مسجد العيدروس[1]، ومسجد أبان. وقام المجرمون في الحزب الشيوعي الماركسي بمحاولة اغتياله بعدما اغتالوا الكثير من العلماء، ومنهم الشيخ علي باحميش الذي ذكرنا قصته، والسيد محمد بن سالم بن حفيظ (والد الداعية عمر بن حفيظ) وكانت محاولة اغتياله بعد خروجه من مسجد أبان بعد صلاة العشاء إذ جاءت سيارة كبيرة مسرعة استهدفته، ولكنه ارتمى في الرصيف وأصيب بكسور عديدة ونقل إلى المستشفى وذلك في ليلة الخميس ٣ ربيع الأول سنة ١٣٩٦هـ الموافق ٣ مارس ١٩٧٦م.

فلما شفاه الله من الكسور ذهب إلى تريم، وافتتح رباط تريم مرة أخرى واستمرت الدروس فيه حتى عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ثم منعته الطغمة المجرمة من ذلك، وأقفلوا الرباط وتعطلت الدروس في تريم كلها. وتمّ اعتقاله في شهر ذي الحجة عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م وأدخل إلى سجن أمن الدولة في سيون دون أي تهمة محددة. وتم تعذيبه هناك ثم نقل بعد سبعة أشهر إلى سجن المكلا ثم سجن «الفتح» في التواهي في عدن. ثم أطلق سراحه في ٢١ رمضان ١٤٠١هـ بواسطة السيد محمد بن عبد ربه الجنيدي رئيس لجنة الإصلاح بين جنوب اليمن وشماله. وكان الذي حرّضه على ذلك الحبيب العلامة السيد محمد بن عبد الله الهدار، صاحب رباط البيضاء، فتمّ إطلاق سراحه بفضل الله وكرمه، وجهود هؤلاء الأخيار من شمال الوطن.

ثم سافر عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م عبر عدن إلى الحرمين الشريفين، واستقرّ

---

(١) ذكر السيد سالم الشاطري أنه بدأ تلك الدروس سنة ١٩٦١م، وبلغ عدد الطلبة بكراريسهم وكتبهم ثلاثمائة، وأما المستمعون فكثر. وكان مسجد حامد يمتلئ بطابقيه من الطلبة والمستمعين. وقد رأى السيد سالم الشاطري الرسول ﷺ وقال له: خذ سيفي واحرسني من الكفّار، إشارة إلى دفاعه عن شريعة جدّه المصطفى ﷺ، ورأى العيدروس العدني وقال له: استمرّ في الدروس وسترى النتائج. وبفضل الله سبحانه وتعالى انهارت الشيوعيّة وانداحت سجف الظلام والكفر والطغيان.

في المدينة المنورة وواصل دروسه وعطاءه هناك. وانتشر صيته، فرحل إلى أندونيسيا وسنغافورة وسيرلانكا وماليزيا وبروناي وعُمان ودول الخليج، والعديد من الدول الإفريقية فنفع الله به البلاد والعباد.

وبعد أن انتهت الحركة الانفصالية عام ١٤١١هـ/ ١٩٩٤م عاد إلى تريم مدينة العلم ومدينة آبائه وأجداده وذلك عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٥م. وأعاد مع أخوته الكرام رباط تريم إلى سابق عهده بعد أن أغلقه الحزب الاشتراكي الشيوعي عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م رسميًّا. وتمت إعادة النشاط العلمي إلى رباط تريم، وكثر طلبته، بل زادوا عما كانوا عليه في عهد والده الداعية الإمام عبد الله ابن عمر الشاطري.

وبالإضافة إلى إشرافه وتدريسه في رباط تريم، تم تعيينه محاضراً في كلية الشريعة بجامعة الأحقاف بتريم.

وقد تميز السيد سالم الشاطري بغزارة علمه واتساع معارفه الفقهية (من المذهب الشافعي وغيره من المذاهب الإسلامية) ومعرفته بالتفسير وعلوم القرآن والحديث واللغة والأدب والتاريخ والأنساب والفلك.

ولا يزال السيد سالم بن عبد الله الشاطري ينتقل بين البلدان واعظاً وداعياً وناشراً للعلم. ورغم مرضه وتقدّمه في السن إلا أنه كثير الأسفار إلى شرق آسيا وإفريقيا وعمان والإمارات وغيرها.. نفع الله بعلمه ومتَّع بحياته.

حلقة القرآن الكريم(١)

تأسست حلقة القرآن الكريم في مسجد العيدروس في شهر يوليه ١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ (بعد أن بدأت الحرب الطاحنة بين أجنحة الحزب

---

(١) مساجد عدن لأمين سعيد باوزير، ص (٢٩ – ٣٣) . و«التذكير بأخبار البلاد والعباد» للسيد عبد القادر المحضار، ص ٤٧ – ٥٢.

الماركسي اللينيني الشيوعي الذي كان يحكم بالحديد والنار فأدت المعارك الطاحنة بينهم إلى إضعاف شوكتهم ثم بعد ذلك زوال دولتهم). وكان مؤسس هذه الحلقة الشيخ معاد غازي هائل الشميري والذي كان آنذاك طالباً في الثانوية العامة. ثم زادت الحلقات إلى خمس حلقات مقسمة كالتالي:

(١) الكبار فوق مستوى الثانوية.

(٢) حلقة شباب الثانوية.

(٣) حلقة من الصف السادس إلى الثامن (صارت الابتدائية ثمان سنوات).

(٤) فئة من الصف الثالث إلى الخامس.

(٥) فئة من الصف الأول والثاني.

واستمرت الحلقات يقوم بها شباب متطوعون مع بعض المدرسين. ومنهم الأستاذ علي صالح صورة ومنصور غانم سعيد. كما عقدت مسابقات سنوية لحفظ القرآن، وقد بدأت أول مسابقة عام ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ولا تزال المسابقات تتسع سنويًّا.

وبعد أن لاقى الشيخ علي محمد باحميش ربه شهيداً وعُذِّب السيد سالم عبدالله الشاطري وحاولوا قتله بنفس الطريقة (اعتداء بسيارة) فغادر البلاد إلى السعودية للعلاج أولاً، ثم لمواصلة طلب العلم ونشره، فإن المساجد في عدن خلت من كثير من العلماء في فترة الحكم الماركسي اللينيني الخبيث حتى أذن الله بالانفراج.

وتولّى الشيخ محمد علي باعوضان من طلبة رباط تريم حلقات الفقه والنحو والفرائض وغيرها، ونشط في العديد من مساجد عدن. كما قام السيد حمزة بن أبي بكر بن عبد الله المتوفى بعدن سنة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) إلقاء الخطبة وإلقاء الدروس. وهو من آل الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي الهاشمي،

واهتمّ بتعليم القرآن وتحفيظه. ثم تولى ابنه محضار بن حمزة هذه المهمة، وشارك الشيخ محمود عبد الباري من معهد البيضاء العلمي بهذه المهمة الجليلة.

وقد توسع نشاط الرباط والمسجد بنشاط السيد الداعية أبو بكر المشهور (العدني). وهناك أعداد غفيرة من الطلبة في الرباط يدرسون في الصباح الباكر وفي المساء. وفي أثناء النهار يدرسون في الثانويات والجامعة في عدن في مختلف الكليات.

ومسجد العيدروس مسجد مبارك، والخير فيه لا ينقطع بإذن الله، ونشر العلم وحلقات تحفيظ القرآن مستمرة. وفضل الله واسع، ونصر الله آتٍ ووعدُ الله حق: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١).

مسجد الذهيبي (البصال) والمدرسة الياقوتية

ينسب هذا المسجد إلى الشيخ العابد الناسك الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهيبي المعروف بالبصّال الشافعي المتوفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م (وقيل سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م).

لقد ترجم له العديد من العلماء في الماضي، منهم: الإمام ابن حجر العسقلاني في «الدرر الكامنة» (ج٣/ ٣٧٧)، والبغدادي في هدية العارفين (ج٢/ ١٥٤). ومن المعاصرين الأستاذ عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (ج٨/ ٢٣٨)، والأستاذ الشيخ أمين سعيد عوض باوزير في كتابه «حلقات القرآن الكريم ومجالس العلم في مساجد عدن» (ص٦٧ — ٨٢) والسيد عبد القادر بن عبد الله المحضار في كتابه «التذكير بأخبار العباد وآثار البلاد» (ص ٢٨-٣٢) والمؤرخ الأستاذ حمزة لقمان في كتابه «تاريخ عدن» (ص٢٤٤) والدكتور أحمد صالح رابضة في كتابه «معالم عدن التاريخية تاريخ المدرسة الياقوتية» (إصدار جامعة عدن ٢٠٠٧).

ونبدأ أولاً بترجمة الذهيبي (البصّال) ثم نتحدث بعد ذلك عن المدرسة الياقوتية، وما آلت إليه.

ترجمة الشيخ محمد بن أحمد الذهيبي (البصّال)

لم تذكر المصادر التي بين يدي سنة مولده ولا مكان ولادته، ومتى قَدِمَ إلى عدن. وقد ذكر السيد عبد القادر المحضار أن الذهيبي (مذيهب كما تسمّيه العامة) أقام بعدن وصحب الشيخ عمر المعروف بابن الصفّار، وانتفع به انتفاعاً

جماً. وكان الشيخ مسعود الجاوي يذهب مع صديقه الذهيبي وبعض أصحابهما إلى ساحل ضراس (خلف حقات) في عدن ويعبدون الله تعالى ويذكرونه ثم يعودون إلى المدينة. ومن شيوخ الإمام الذهيبي الفقيه عبدالرحمن (ابن سفيان)[1]، وهو من ذرية الشيخ سفيان اليمني، وقرأ عليه كتاب التنبيه في الفقه الشافعي. وقد قام الذهيبي فيما بعد بشرح هذا الكتاب الفقهي الهام للإمام أبي إسحاق الشيرازي، وتولى تدريسه لطلبته.

تلاميذه: أخذ عنه كثيرون في عدن ولكن أشهرهم وأكثرهم ذكراً الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي الذي قال: «وهو (أي البصّال) أوّل من انتفعت به - قرأت عليه القرآن الكريم، وقرأت عليه التنبيه - وأثنى عليه ثناءً عاطراً، ثم قال: وجمع شيخنا البصاّل كتاباً في الفقه ينتفع به الفقيه وغيره يتعلق بشرح التنبيه، وفيه فوائد عديدة ونكت مفيدة».

وقد ترجم الشيخ أمين باوزير في كتابه مساجد عدن للإمام **عبد الله بن أسعد اليافعي** باعتباره أشهر تلاميذ الإمام البصّال فقال (باختصار وتصرف):

«عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي الإمام العامل الزاهد المشهور فضيل مكة وفاضلها، وعامل الأبطح وعاملها، يُسترشد بعمله، ويقتدى ويستضاء بنوره».

وترجم له تلميذه أحمد بن أبي بكر بن سلامة في كتابه «المسك الأرشد في مناقب عبدالله بن أسعد» وقال إنه حجّ وهو صغير سنة ٧١٢هـ ورأى السلطان الملك مجد بن قلاوون الذي حجّ في ذلك العام وقدّر سنة مولده ما بين ٦٩١-٧١٢هـ. وقد قرأ على الفقيه الصالح محمد بن أحمد البصّال المعروف بالذهيبي

---

(١) ذكر أمين باوزير أنه «عبيد بن علي سفيان»، وقيل عبد الرحمن بن علي سفيان الحصوي.. قلت وعبيد تصغير لعبد الله، وقد يكون أحد أسمائه وهو صغير.

وقال عنه: «وهو أول من انتفعت به، وقرأت عليه التنبيه، وأولم البصّال عند ختمي وليمة كبيرة». وقد ولد عبد الله بن أسعد في يافع وبعث به أبوه إلى الشيخ البصّال ليقرأ عليه القرآن والفقه، فاعتنى به البصّال عناية تامة. ودرس أيضاً عند الفقيه حسن بي أبي السرور وحضر قراءته على القاضي أبي بكر بن أحمد الأديب، واجتمع بالشيخ عمر الصفار في آخر حياته بعده.

ثم انتقل إلى مكة المكرمة سنة ٧١٨هـ واستقرَّ بها ودرس العلم على مشايخها، ومنهم: القاضي نجم الدين، ورضى الدين الطبري. ثم تردّد بين الحرمين الشريفين والشام، وزار القدس والخليل، ثم قصد الديار المصرية وأخذ العلم عن كبار العلماء. ثم عاد إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرّمة ولازم العلم والعمل. ومع هذه الأسفار لم تفته حجة في هذه السنين. واستقرّ به المقام في مكة المكرمة، وعكف على التصنيف والإقراء والإسماع. ومن مصنفاته: «روض الرياحين في حكاية الصالحين»، وكتاب الإرشاد والتطريز، والدرّة المستحسنة في تكرار العمرة في السنة. وله قصيدة في نحو ثلاثة آلاف بيت في علوم العربية وغيرها من العلوم. وله مصنف في التاريخ بدأ فيه من أول الهجرة النبوية إلى زمنه. ويعتبر من أعلام الصوفية وشعراء الزهد. ومن نظمه:

وعبد الهوى يمتاز عـن عبـد ربِّـه	لـدى شـهوةٍ أو عنـد صـدام بليّـةِ
خلا من أخلاق قومٍ كـرامٍ تورَّعـوا	وروع الرضى والصبر في كلِّ شِـدَّةِ
فاقوا طعان النفس في معتزل الهوى	وراحوا وقد روّوا مواضي الأسـنّةِ
وساقوا جياد الجدِّ عنـد اسـتياقهم	وأرخـوا لهـا نحـو العُـلى للأعنّـةِ
مقامات قوم أتعبوا النفس والسِّرى	فأضحوا ملوك الدهر فوق الأسرّةِ

وقد جمع ديوانه من نحو عشرة كراريس كبار. وكان عارفاً بالفقه والأصول العربية والفرائض والحساب وغير ذلك من فنون العلم مع الورع والزهد والعبادة. وكان كثير الإيثار والصدقة مع الاحتياج، متواضعاً مع الفقراء، مترفّعاً عن أبناء

الدنيا، مُعرِضاً عمَّا في أيديهم، مجاهداً بالإنكار عليهم، فلذلك نالته ألسنتهم. وكانت وفاته ليلة العشرين من جمادى الثانية سنة ٧٦٨هـ ودفن بالمعلاه بمكة المكرمة مجاوراً للفضيل بن عياض. وبيعت تركته الحقيرة بأغلى الأثمان: بيع مئزر عتيق له بثلاثمائة درهم وطاقية بمائة درهم، وقس على ذلك.

مؤلفات البصّال (الذهيبي)

لم يعرف له من المؤلفات سوى شرحه للتنبيه، وهو كتاب فقه معتمد لدى الشافعية، وضعه الإمام أبو إسحاق الشيرازي. وكان يدرّس في هذا المسجد المعروف باسمه.

وفاته: توفي الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهيبي المعروف بالبصّال والمشهور عند العامة باسم «المذيهب» سنة ٧٤٨هـ ، ودفن في مقبرة البزّازين بنفس الحيّ الذي فيه المسجد، بل هي قريب منه، وهي حارة البزّازين، ثم تغيّر اسمها إلى حافة التنباك ثم إلى شارع الملك سليمان.

ولما زرت المسجد عام ٢٠١١ (فبراير) قابلت الشيخ أمين سعيد باوزير، وكنت مع الأخ الداعية الفاضل نضال باحويرث، وأدخلني على غرفة ملحقة بالمسجد وفيها تابوت قال لي إنه قبر الشيخ محمد بن أحمد الذهيبي، فقرأت الفاتحة وسلَّمت عليه ودعوت الله تعالى لنا وله.

تاريخ المسجد والمدرسة الياقوتية

لقد كان لهذا المسجد دور عظيم في إقامة الصلوات والجمع والدروس الدينية وألحقت به مدرسة سيأتي تاريخها.

وفي هذا المسجد المبارك أقام الكثير من علماء مدينة عدن كالإمام محمد بن أحمد باحميش المولود سنة ٧٩٨هـ بغيل باوزير بساحل حضرموت، والذي

دخل عدن بعد أن اشتهر بالفقه سنة ٨١٦هـ ونزل بحافة البصّال (حافة البزّازين فيما بعد، ثم حافة التنباك ثم حافة الملك سليمان قبل الاستقلال، لأن اليهود سكنوا طرفاً من الحارة وفي آخرها حيث تطل على الطريق المؤدي إلى البنوك مدرسة كبيرة ابتدائية لأبناء اليهود وأخرى لبناتهم. وقد تحولت هذه المدارس إلى مؤسسة حكومية (الضرائب) ومكتبة عامة، ولكن بقي اسم الملك سليمان (وهو نبيّ مكرم واليهود ينكرون نبوّته ونبوّة أبيه، ولذا يسمونها الملك داود والملك سليمان ولا يعترفون لهما بالنبوة) والمكتبة معروفة باسم مكتبة عبدالله باذيب، وهي المكتبة الوطنية. وقد أقام الشيخ محمد بن أحمد باحميش أولاً عند القاضي عمر بن محمد اليافعي، ثم استقلّ بداره. وتولى القضاء في عدن والتدريس في مسجد البصّال في أواخر دولة بني رسول. وفي أول عهد الدولة الطاهرية صار قاضي القضاة في عدن. وله عدة مؤلفات، منها: «شرح الحاوي» قال عنه الإمام السخاوي: «هو شرح حسن مبسوط»، وله: مجموعة الفتاوى، وكانت وفاته في شهر رمضان ٨٦١هـ ، ودفن في نفس المقبرة التي فيها جثمان الشيخ محمد بن أحمد الذهيبي (البصّال).

وممّن درّس في هذه المدرسة والمسجد المبارك الإمام محمد بن أحمد بن عبدالله بافضل نزيل عدن، وقد اشتهر حتى تمت الرحلة إليه من أماكن متعدّدة. وله عدة كتب، منها: كتاب متن العدّة والسلاح (وهو في أحكام النكاح) وقد طبع وكانت وفاته بعدن يوم السبت ١٥ شوال سنة ٩٠٣هـ.

ومنهم الفقيه العلّامة عبد الله بن الإمام محمد بافضل المذكور آنفاً. تفقّه على والده وغيره من علماء عدن. وانتصب بعده للتدريس بمسجد البصّال الذي درّس فيه والده وكان فقيهاً محدّثاً، حسن الأخلاق، شريف النفس، يسعى في حوائج المسلمين وتوفي بعدن سنة ٩٤٢هـ ، وهو من شيوخ السيد شيخ بن عبدالله العيدروس (أخ السيد أبي بكر بن عبد الله العيدروس المشهور بالعدني).

ومنهم الفقيه عبد القادر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بافضل، وهو من ذرية الإمام أحمد بافضل. وهي أسرة علم وفضل أينما حلّت وأقامت، فكم ظهر من هذه الأسرة في جميع أصقاع حضرموت وفي عدن وفي غيرها من البلدان. وقد أخذ الشيخ عبد القادر بافضل هذا عن العلامة عبد الله بن عمر بامخرمة وعن عبد الحق الحموي وعن أحمد بن عمر الحكيم (أخذ عنه الطب) وسمع من خلق كثير. ثم ظهر بالعلم وقام بالتدريس في مسجد البصّال الذي عُرف آنذاك بمسجد الدَّرسة أي الذين يدرسون العلم، وانتفع به خلق كثيرون. وتولى نيابة الشافعية بعده. وكان قائماً بجميع وظائف المسجد، مواظباً على جميع السنن والآداب النبوية، وعلى الخطابة والتدريس في هذا المسجد المبارك. وافاه الأجل لثلاث عشرة من جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ، ودفن بقرب قبر جدّه الإمام محمد ابن أحمد بافضل.

المدرسة الياقوتية

يقول الدكتور أحمد صالح رابضة في كتابه «معالم عدن التاريخية، تاريخ المدرسة الياقوتية في عدن» (ص ٢٨ — ٣١):

«وفي حارة البصّال قامت المدرسة الياقوتية التي ابتنتها (جهة الطواشي اختيار الدين ياقوت) [1] زوج الملك الظاهر يحيى بن الملك الأشرف الرسولي. وقد تعاقب عليها جملة من الأئمة والفقهاء ودرّس بها عدد آخر، منهم: القاضي الأجل جمال الدين محمد بن أحمد باحميش، والقاضي تقي الدين عمر بن محمد اليافعي، والفقيه علي بن عفيف الحضرمي، والفقيه شرف الدين إسماعيل بن محمد الجرداني، والشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بافضل.

---

(١) الطواشي هو العبد الخصي المسؤول عن الأميرة زوجة الملك الظاهر يحيى، واسم هذا العبد اختيار الدين ياقوت.

«وعيّنت الأميرة «جهة الطواشي» إماماً فيها، ومدرّساً في الفقه، وكان (الدَّرسة) يرتادونها وبخاصة الفقراء والأيتام منهم، ليتعلّموا القرآن الكريم. وقدم القاضي محمد بن أحمد باحميش من قرية بور بحضرموت عام ٨١٦هـ، وسكن حافة البصّال، ولما تولى الطاهريون مقاليد الحكم في عدن، عيّنوه في القضاء الأكبر أي قاضي القضاة، وظلَّ على ذلك حتى وفاته في رمضان عام ٨٦٢هـ».

وقد ذكر الأستاذ أحمد رابضة أن العلّامة البصّال دفن في التربة المحاذية للمدرسة والتي تضمُّ في جنباتها كبار العلماء والأولياء، ومنهم الإمام الصالح باحميش والقاضي عيسى بن محمد اليافعي. وكانت هذه التربة تعرف فيما سبق بتربة البزّازين، وهي المحاذية للمدرسة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ منها (اختفت هذه التربة والمقابر).

وقد ذكر السيد عبد القادر بن شيخ العيدروس في كتابه «النور السافر في تاريخ القرن العاشر» في ترجمة الشيخ الفقيه عبد القادر بن عبد الله بن أحمد بافضل المتوفى عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م أنه كان قائماً بوظيفة (مسجد الدَّرسة) أي مسجد البصّال (الذهيبي) لأنه كانت تقوم فيه الدروس. والدرسة هم طلبة الدرس، وقال بعضهم إن مسجد الدّرسة مسجد آخر ومدرسة أخرى في عدن.

وذكر ابن الديبع المتوفى عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م أن الملك المجاهد الطاهري المتوفى عام ٨٨٣هـ/ ١٤٨٧م جدّد مسجد الدّرسة في عدن. واستخدم كلٌّ من الجندي وبامخرمة وابن سمرة الجعدي هذا اللقب (مسجد الدّرسة) على مسجد الذهيبي والمدرسة الياقوتية.

ولم يذكر الأستاذ أحمد رابضة متى أقامت الأميرة (جهة الطواشي اختيار ياقوت) هذه المدرسة وهذا المسجد، ولكن الشيخ أمين سعيد باوزير ذكر نقلاً

عن الأستاذ حمزة لقمان في تاريخه عن عدن أن ذلك تمَّ عام ٧٠١هـ. ثم نقل كلاماً مضطرباً ومخالفاً لما سبق وهو أن الحرّة أم يحيى إسماعيل بن العباس قامت سنة ٨٠٠هـ ببناء المسجد القريب من جامع عدن (موقع المنارة حاليًّا) ثم جادت السيدة افتخار الدين ياقوت ببناء المسجد من جديد وذلك عام ٨٤٢هـ[1].

قال: وبَنَتْ زوجة الظاهر يحيى وهي السيدة الحرّة جهة الطواشي افتخار الدين ياقوت المدرسة الياقوتية بثغر عدن بحافة البصّال تيمّناً بذكر الولي الفقيه الصالح عبد الله محمد بن أحمد الذهيبي المعروف بالبصّال المقبور هناك. وقد عرفه العامة باسم المذيهب ولا يزال المسجد يعرف بهذا الاسم.

وقد مرّت بالمسجد المذكور عهود مختلفة، ويبدو أن الهنود المسلمين من الميمن اهتموا بالمسجد وأشرفوا عليه فترة. وقال الشيخ أمين سعيد باوزير أن الميمن كانوا يقيمون احتفالاً في عاشوراء لزيارة الشيخ البصّال (الذهيبي) ويوزعون فيه الحلوى والنقود على الفقراء والمحتاجين. وكان المشرف على ذلك الحفل الحاج عبد الكريم أبو بكر نور محمد وهو تاجر معروف (من سوق الاتحاد). ولكن الاحتفال انقطع بسبب كبر الحاج عبدالكريم في السن وعدم وجود من ينوب عنه.

---

(١) راجع فصل المدارس في العهد الرسولي، في الجزء الثاني من هذا الكتاب لمعرفة المدارس الياقوتية في اليمن. والواقع أنّ مسجد البصّال (الذهيبي) أقدم من المدرسة، فالذهيبي توفي سنة ٧٤٨هـ، وبنت جهة الطواشي ياقوت المدرسة الياقوتية بعدن سنة ٨٤٢هـ أو حواليها. وهي زوجة الملك الظاهر يحيى (٨٣١ – ٨٤٢هـ). وقد بنت هذه الأميرة ثلاث مدارس أخرى: (١) المدرسة الياقوتية في رباط البويهي بذي سفال. (٢) المدرسة الياقوتية بزيد. (٣) المدرسة الياقوتية في حيس. وقامت أم الظاهر ببناء العديد من المدارس في اليمن.

وقد ذكر الحاج عبد الكريم أئمة المسجد الذين عاصرهم، فذكر منهم الشيخ محمد مكي، والشيخ محمد عزيم.

وعندما أعيد بناء المسجد عام ١٩٧٠م تحت إشراف الحاج عبد الرحمن بحصو فصلوا قبر الإمام الذهيبي عن المسجد. وقد تولى الإمامة آنذاك الشيخ حمود بجاش. ثم قال الشيخ أمين باوزير: «وتعاقب على المسجد كثير من الأئمة والمشائخ كالشيخ عمر بن حسان عرفان من خريجي رباط تريم بحضرموت، والشيخ علي سعيد الزُبيدي من دمون بحضرموت، وكان يدرّس الفقه ما بين العشاءين[1]، ويقرأ في صحيح مسلم بعد صلاة الفجر، ثم خلفه الشيخ محمد محسن الفلاحي. وتولى الشيخ الجليل المجاهد علي باحميش شرح بعض صحيح البخاري وصحيح مسلم عام ١٩٧٥م.

وفي ١٤ سبتمبر ١٩٩٢م تم تعيين الشيخ أمين باوزير إماماً وخطيباً لمسجد مذيهب (الذهيبي) بدلاً من الشيخ محمد محسن الفلاحي بعد تقاعده عن العمل. وبدأ بحلقة تجويد القرآن الكريم في يناير ١٩٩٣م. وبدأت مسيرة حلقات التحفيظ والتجويد تزداد وتنتظم، وأضيف إليها الفقه والمواريث والنحو والسيرة النبوية وبعض الأحاديث النبوية. وتم التعاون بين السيد أبي بكر المشهور، الداعية المعروف، وبين الشيخ أمين باوزير لتوفير المدرسين. وتوسعت مجالات هذه الدروس بشكل كبير لتشمل نوادي رياضية ومدارس عدة ووزارة الأوقاف. واتسع النشاط الثقافي ليشمل محاضرات وإيجاد مكتبة بالمسجد ومسابقات لحفظ القرآن الكريم.

وهذا الكلام الذي نقله الشيخ أمين باوزير مضطرب، حيث نقل عن الأستاذ حمزة لقمان أن أم يحيى ابن اسماعيل العباس (الرسولي) قامت سنة

---

(١) المقصود ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء.

٨٠٠هـ ببناء المسجد القريب من جامع عدن (موقع المنارة حاليًّا)، ثم قامت السيدة افتخار الدين ياقوت وذلك سنة ٨٤٢ ببناء المسجد من جديد وعملت بجواره دار أيتام ومدرسة لطلبة العلم ورتبت لهم معلماً، وللمسجد إماماً[1].

وعند الرجوع إلى الأصل وهو كتاب الأستاذ حمزة لقمان[2] ذكر الآتي:

«كانت السيدة الحرة أم الملوك جهة الطواشي مرجان[3] أم الملك الناصر أحمد والملك الظاهر يحيى قد بنت مسجداً في عدن، كما بنت المدرسة المرجانية في لحج، وسبيلاً (للماء) في الأخبة، وتوفّيت أم الملوك سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م أثناء حكم ابنها الظاهر يحيى»، وهذا المسجد إما إن يكون تجديداً لجامع عدن المعروف والباقية منارته إلى الآن أو مسجداً قريباً منه. ثم قال حمزة لقمان[4]: «وبنت زوجة الظاهر يحيى (الرسولي) السيدة الحرّة جهة الطواشي ياقوت[5] المدرسة الياقوتية بحافة البصّال في عدن ورتبت فيها إماماً ومدرِّساً وطلبة علم وأيتاماً يتعلمون فيها القرآن الكريم. وفي سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م توفي الملك الظاهر يحيى (زوجها).

وفي موقع آخر يقول الأستاذ حمزة لقمان[6] تحت عنوان: مسجد أم الملوك، أن امرأة من بني غسان هي التي بنت الجامع (جامع عدن أي أعادت بناءه) سنة

---

(١) أمين باوزير: مساجد عدن، ص ٧٠-٧١.

(٢) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ٩٥.

(٣) الطواشي هو عبد للأسرة المالكة يكون مخصيًّا. وكانوا يسمون الأميرة باسم الطواشي الذي يتبعها، ولذا يقولون: جهة الطواشي.

(٤) المصدر السابق.

(٥) عبدها الطواشي ياقوت وهو المختص بإدارة شؤونها.

(٦) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ٢٤٣- ٢٤٤.

٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م.. وشكك في التاريخ، وأن الأرجح هو في أثناء حكم ابنها يحيى (٨٣١-٨٤٢هـ)، وأنها توفت سنة ٨٣٦هـ.

وللأميرة (جهة الطواشي اختيار ياقوت) مدارس مماثلة لتلك التي أقامتها في عدن (في حارة البصّال = البزازين = التمباك = الملك سليمان) فقد أقامت أيضاً المدرسة الياقوتية في زبيد غربي الخان المجاهدي، والمدرسة الياقوتية في رباط البريهي من ذي السفال، والمدرسة الياقوتية في مدينة حيس - كما يقول الأستاذ أحمد صالح رابضة في كتابه القيم: (معالم عدن التاريخية: تاريخ المدرسة الياقوتية في عدن، ص ٢٩-٣٠).

وهذا يوضح دور الأميرات وزوجات الملوك في إنشاء العديد من المدارس والمساجد والمبرات. وهو أمر منتشر في التاريخ الإسلامي المجيد منذ العهد العباسي الأول. وقد أقامت الأميرة العباسية زبيدة بنت جعفر المنصور وزوجة هارون الرشيد طريق الحج من العراق إلى مكة وجعلت له السبل والمياه. ثم أوصلت المياه من عين زبيدة إلى الطائف ومكة المكرمة.. وقل مثل ذلك في كل العصور. وازداد ذلك في عهد الأيوبيين ثم المماليك ثم الدولة العثمانية. بل وكل دولة من الدول الإسلامية قامت بالمبرات العديدة ابتداء من حدود الصين (التركستان الشرقية) إلى حدود بولندا (دولة التتار المسلمين ودولة تتارستان في روسيا)، وشملت بذلك الهند وأندونيسيا وماليزيا وإفريقيا.. وهو تاريخ مجيد للعمل الخيري ولنظام الأوقاف الذي دمّره الاستعمار الصليبي، ثم حاربته الدول الثورية الاشتراكية من العسكرتاريا وأشباههم.

وبفضل الله برزت حديثاً مدرسة الفاروق في مسجد الذهيبي وكانت لمساعي الشيخ الفاضل أمين باوزير (أمدّ الله في عمره) اليد الطولى بعد فضل الله في إقامة هذا الصرح الإسلامي التعليمي الدعوي.

وقد تحول الدور الأول للمسجد إلى المدرسة وكانت أهداف المدرسة كالتالي:

١- تخريج كفاءات من الشباب والشابات يحفظون القرآن الكريم ويحسنون تلاوته.

٢- غرس الاهتمام والعناية التامة بالقرآن الكريم حفظاً وسلوكاً وتلاوة.

٣- الحفاظ على الفكر والروح الإسلامية المتكاملة وتوجيه طاقات الشباب نحو الأنشطة المفيدة.

وزاد الاهتمام بالقرآن الكريم والفقه وعلوم الشريعة والسيرة النبوية، واللغة العربية وعلومها والثقافة الإسلامية. وافتتح قسم الطالبات عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م بعد عامين من افتتاح قسم الطلاب، وهو نشاط مبارك أدى إلى التحاق عدد كبير من الخريجين والخريجات من هذه المدرسة بالجامعات والمعاهد العلمية بدرجات مشرّفة.

آل العراقي ومساجدهم بعدن

قال السيد المؤرخ العلّامة سالم بن أحمد بن علي المحضار (١٢٦٠ – ١٣٣٠هـ):

«أهل العراقي مشايخ أعلام وفقهاء عظام وأولياء كرام، مسكنهم عدن ومنهم الجمّ الغفير».

وقال السيد عبد القادر بن عبد الله المحضار[1]: أول من قدم منهم في منتصف القرن الثامن الهجري إلى عدن من البصرة الشيخ العلامة **السيد أحمد ابن عبد الرحمن** (الجعفري نسبة إلى الإمام جعفر الصادق) ولد في البصرة سنة ٧٢٥هـ ونشأ على يد والده الشيخ السيد الجليل عبد الرحمن بن علي المتوفى سنة ٧٦٦هـ . وأخذ عن شيوخ البصرة في زمنه مثل الشيخ محمد بن حسين الجدي، والشيخ سليمان المرتضى، والعلّامة نافع بن أبي وقاص القرشي، وغيرهم.

وقد خرج السيد أحمد بن عبد الرحمن بن علي (العراقي) من بلده سنة ٧٦٦هـ للدعوة إلى الله ومن أجل النفع والانتفاع. وانتقل من بلد إلى بلد حتى استقرَّ به المقام في عدن فطاب له المقام بها، وأحيا حلقات العلم وتصدَّر للتدريس في الصحيحين البخاري ومسلم، واستمر على ذلك حتى انتقل إلى جوار ربه.

---

(١) السيد عبد القادر بن عبد الله المحضار: آل العراقي بعدن، مجلة الجذوة، العدد ١٥، ربيع الثاني ١٤٢٨هـ/ مايو ٢٠٠٧، ص ٧٦-٧٩ (نقلاً عن الكوكب المنير، مخطوط، ص ١٣٣).

وظهر ابنه **السيد عبد الله بن أحمد** (عدني المولد والوفاة)، **ترجم له العلّامة المحدث المؤرخ الشيخ أحمد بن عبد اللطيف الشرجي**[1] **في كتابه «طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص»، وقال: «كان من كبار الصالحين، وله مناقب كثيرة، ولأهل عدن فيه معتقد حسن، وهو شريف النسب من ذرية سيدنا الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين»**.

قال السيد عبد القادر المحضار[2]: «وهو صاحب الراتب الشهير (دعاء يرتّبه الشيخ لتلاميذه) المعروف عند الناس براتب الشيخ عبد الله العراقي» وفيه أدعية وأذكار نبوية يقرأ كل يوم ثلاثاء بعد صلاة العصر في مسجده المعروف **بمنطقة الخساف** (تحت باب عدن = العقبة) بكريتر عدن. واستمر ذلك حتى عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م عند استيلاء الماركسيين على الحكم في الجنوب فمُنِعتْ الاجتماعات الدينية وحوربت الدروس، وتمَّ اغتيال أو سجن العديد من العلماء الذين بقوا في الجنوب، كما فرَّ العشرات منهم. وفرَّ من أبناء الجنوب من استطاع إلى ذلك سبيلا.

ومنطقة الخساف تقع على يمين الداخل من باب عدن (العقبة) وهي نهاية جبل شمسان. وكانت هذه المنطقة - كما يقول الطيب بامخرمة[3] - غير مسكونة، وبها أشجار كبار ذات شوك كالسُّمَر والعوسج، ولذلك عُرفت باسم جرام الشوك. والجَرام - بفتح الجيم- القطعة من الأرض بلغة الهند، كما يقول بامخرمة.

---

(١) أحمد بن عبد الله الشرجي الزبيدي الحنفي، أبو العباس (٨١٢-٨٩٣هـ) وفاته بزبيد، وله كتاب «التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح» و«طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص».

(٢) المصدر السابق (آل العراقي بعدن) للمحضار.

(٣) الطيب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٩.

وكان العُبّاد والزُّهّاد يلجأون إلى هذه المنطقة في خلواتهم، ومنهم أحد الأولياء الذين ترجم لهم بامخرمة، وهو «**ريحان بن عبد الله العدني**»[١].

وذكر الأستاذ عبد الله محيرز في كتابه العقبة اسم ولي آخر **يدعى عبد الله بن أبي بكر السعدي** المعروف بابن الخطيب، له مشهد في الخساف[٢].

وقد اشتهر بعد ذلك مسجد ومقام **السيد عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن العراقي** العدني مولداً ووفاة (غير معروف سنة مولده ووفاته ولكنه كان من رجال القرن التاسع). وقد تم تجديد بناء المسجد - كما يقول المحضار[٣] - عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. وقبر الشيخ عبد الله العراقي بجوار المسجد.

وكان الشيخ سعد بن حسين مدّي إماماً للمسجد، ويأتي من منزله مشياً رغم بعد المسجد ورغم تقدّمه في السن. يؤم الناس ويلقي الدروس. ثم توقف بعد ذلك بسبب شيخوخته، وكانت وفاته سنة ١٤١٤هـ . وكان الشيخ مدّي يلقي هذه الدروس ويقوم بالإمامة (المغرب والعشاء) تطوّعاً. واستفاد الحضور من دروسه في الفقه والحديث والمواعظ والسيرة[٤].

ويقول الشيخ أمين باوزير أن الشباب قد أقاموا حلقات لتحفيظ القرآن وتلاوته وخاصة ما بين المغرب والعشاء، وحلقات أخرى في الحديث والنحو، ودروس عامة بين المغرب والعشاء، وهي جهود مباركة ذاتية لهؤلاء الشباب[٥] وذلك كله بعد زوال الشيوعية. وقد هدم المسجد سنة ١٤١٨هـ ، ثم أعيد بناؤه وتوسعته على حساب أهل الخير.

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢) عبد الله محيرز: العقبة، ص ٥٤.

(٣) عبد القادر المحضار: التذكير بأخبار العباد والبلاد، ص ٤٤.

(٤) الشيخ أمين باوزير: مساجد عدن، ص ١٢٠.

(٥) المصدر السابق.

ومن **آل العراقي السيد سالم بن أحمد العراقي (وهو أخ السيد عبد الله بن أحمد وهو الولي المشهور** المقبور بالتواهي وبجوار قبره مسجد. وكانت وفاته سنة ٨٣٥هـ/ . ثم اندثر المسجد والقبر في بداية القرن الرابع عشر الهجري كما يقول السيد عبد القادر المحضار (انقطعت الزيارة سنة ١٢٩٤هـ)[1].

ومنهم **الشيخ عبد اللطيف بن أحمد العراقي المتوفى بصيرة بعدن سنة ٨٠٩هـ ومسجده بالقرب من ساحل بحر صيرة. وقد تمت توسعة المسجد قبل عدة سنوات** (بداية القرن الواحد والعشرين). والغريب حقًّا أن كثيراً من آل العراقي ارتبطوا بالصيادين، فالشيخ عبد اللطيف (ثالث الإخوة من أبناء الشيخ أحمد بن عبد الرحمن العراقي) اهتم بالصيادين، وجعل مسجده بالقرب منهم في صيرة. ولا شك أن هؤلاء الصيادين كانوا أهل صفاء وكانوا محتاجين للعلماء يوجهونهم (وعملهم هو الحلال بعينه) فأحبَّهم الشيخ عبد اللطيف وأحبّوه.

وقد اشتهر من أولاد الشيخ عبد اللطيف العراقي الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف العراقي (ولد بعده سنة ٧٨٥هـ) وعلا صيته، وظهرت له مناقب، وكانت وفاته سنة ٨٦١هـ ، ودفن تحت حصن التعكر (وهو الذي عرف بجبل المنصوري ويمتد إلى جبل حديد، وقبره هناك معروف يزوره أهل عدن سنويًّا كما يقول عبد القادر المحضار).

ومنهم **الشيخ علي بن أحمد العراقي (رابع الإخوة المباركين وهم أبناء الشيخ أحمد بن عبد الرحمن العراقي)**. قال السيد عبد القادر المحضار[2] أنه هو المعروف بوليّ الصيادين في التواهي. والمشهور أن ولي الصيادين في التواهي

---

(١) عبد القادر المحضار: مجلة الجذوة، مصدر سابق.

(٢) عبد القادر المحضار: التذكير بأخبار العباد والبلاد، ص ٤٥، وأنكر فيه وجود شخص باسم الشيخ أحمد علي العراقي، وأن الصواب – حسب قوله – هو علي بن أحمد بن عبد الرحمن العراقي.

يعرف بالشيخ أحمد، وأن الرأس الذي يلي رأس مرباط في التواهي يعرف برأس الشيخ أحمد وفي مواجهته جزيرة صغيرة تعرف أيضاً بجزيرة الشيخ أحمد. قال الأستاذ محيرز في كتابه العقبة[1]: «وكانت التواهي قبل الاستعمار قرية صغيرة للصيادين، وفيها وليّ مشهور هناك يُدعى الشيخ أحمد بن علي العراقي. وقد سماها ولستد قبل الاحتلال البريطاني (زار المنطقة سنة ١٨٣٥) رأس الشيخ أحمد، وأطلق هينس (الذي احتل عدن عام ١٨٣٩) على الجزيرة المقابلة لها جزيرة الشيخ أحمد».

قلتُ: لا شك أن الصيادين في التواهي قد أطلقوا على تلك المنطقة رأس الشيخ أحمد وأن الصيادين أيضاً أطلقوا اسم الشيخ أحمد على الجزيرة المقابلة وهي جزيرة صغيرة، ربما كان الشيخ أحمد يتعبد فيها ويتحنّث.

ولا شك أن اسم الشيخ أحمد العراقي يسبب إشكالاً، فالمؤسس لهذا البيت هو السيد أحمد بن عبد الرحمن العراقي المولود في البصرة سنة ٧٢٥ والذي ذهب إلى عدن عام ٧٦٦هـ ، ولم يذكر أهل التاريخ سنة وفاته. وذكروا أنه أقام بعدن ودرّس الصحيحين وغيرهما، وعلا صيته. فهل ترك الخساف وذهب إلى التواهي - وهي آنذاك قرية الصيادين - وبقي عندهم حتى أسموه وليّ الصيادين؟؟ هذا أمر محتمل ويزيل إشكال الاسم.

وهناك مزار خاص في البريقة للسيد أحمد بن علي العراقي. ويقع في منطقة عمران، ويرتفع عن سطح البحر بحوالى ١٢٠ متراً ويبعد عن مركز المحافظة ٣٣ كيلومتراً باتجاه الشمال الغربي. والوصول إليه عن طريق ترابي غير مسفلت، كما يمكن الوصول إليه عبر القوارب البحرية. فهل هو نفس الشخص الذي يُسمّى وليّ الصيادين في التواهي؟ وهل كان هذا الشخص يذهب إلى الأماكن

---

(١) عبد الله محيرز: العقبة، ص ٦٢، نقل عن ولستد وجاكوب.

البعيدة للعبادة، ولدعوة هؤلاء الصيادين، إذ لم يكن يعيش في التواهي وفي عمران سوى الصيادين في وقته.

ومن **أحفاد الشيخ عبد اللطيف بن أحمد العراقي، الشيخ أبو بكر بن عبدالله ابن عبد اللطيف (وهو ابن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف المتوفى تحت حصن التعكر في جبل حديد سنة ٨٦١هـ والمتقدم ذكره)**، والشيخ أبو بكر بن عبد الله عبد اللطيف العراقي قد رحل في طلب العلم إلى الشيخ علي بن أبي بكر بن عبدالرحمن السقاف، وهو أحد شيوخ الإمام أبي بكر العيدروس العدني، في تريم وأخذ عنه. وقد ذكر كتاب عقد اليواقيت(١) تلاميذ السيد الشريف علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقاف وذكر منهم السيد أبا بكر عبد الله بن عبد اللطيف العراقي، والسيد عمر بن عبد الرحمن صاحب الحمراء.

وهذا يدلُّ على علو كعبه في العلوم الشرعية والتصوف حتى إنه زامل السيد أبا بكر العيدروس العدني والسيد عمر بن عبد الرحمن صاحب الحمراء.

ومن **آل العراقي، السيد قاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد اللطيف العراقي**: أخذ عن جده الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وخطه جميل وسجعه حسن، وربما نظم. وتفقَّه في كتاب الحاوي على يد العلّامة الشيخ محمد بن أحمد بافضل، نزيل عدن، وكان يُقصد للإصلاح، فقد اشتهر بذلك في عدن، إلى جانب صلاحه وتقواه. وذكر صاحب المشرع الروي(٢): أن الشيخ قاسم المذكور كان مرافقاً لعمه السيد أبي بكر بن عبد الله العراقي في رحلته إلى حضرموت وطلبه العلم هناك على يد علمائها، وخاصة السيد علي بن أبي بكر

(١) عقد اليواقيت، ج٢/ ٩٨.

(٢) عبد القادر المحضار: التذكير بأخبار العباد وآذار البلاد، ص ٤٦، وينقل ذلك أيضاً عن الضوء اللامع، ج٦/ ١٩٠، وعن الطيب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج١.

(السكران) بن عبد الرحمن السقاف.

وكان الشيخ قاسم العراقي كثيراً ما يخرج إلى الرُّباك (بضم الراء) وهي قرية تقع على خليج التواهي (المطل على ما كان يعرف ببحيرة العجم)، وهي ما بين عدن والبريقة وقبل الحسوة. وفيها شجر ونخل وماء. وكان الإمام العيدروس العدني يخرج إليها، وكذلك بعض أهالي عدن. وكان الشيخ قاسم العراقي يقيم فيها أياماً ويقيم بها الدروس لأهلها مع المواعظ، ويحضرها كبار الشخصيات الموجودة مثل الشريف عمر بن عبد الرحمن صاحب الحمراء، والفقيه محمد بن أحمد بافضل وغيرهما من العلماء. وهذا مما يدلُّ على علوّ كعب الشيخ قاسم العراقي وتبحّره في العلم، بحيث يحضر له هؤلاء الجهابذة من العلماء.

والشيخ قاسم العراقي من أهل القرن التاسع الهجري فالذين عاصرهم وأخذ عنهم توفوا في آخر القرن التاسع. وأغلب الظن أنه عاش إلى القرن العاشر. وقد كان من زملاء الإمام أبي بكر بن عبد الله العيدروس (العدني) في الأخذ عن السيد علي بن أبي بكر (السكران) بن عبد الرحمن السقاف. وللأسف لم أعثر على سنة مولده أو وفاته.

مسجد العراقي بالقطيع: أسسه الشيخ محمد بن مصطفى العراقي في القرن الثالث عشر الهجري. وهو من آل العراقي المشهورين. وقد تم ترميم المسجد عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م، ثُمَّ تمَّ تجديده وإضافة دور علوي سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م[١].

مسجد العراقي بالطويلة[٢]: اشتهرت الطويلة (وهي وادي منحدر من

(١) عبد القادر المحضار، ص ٦٤، والقطيع هي في كريتر وفيه مقبرة أهل عدن.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٣.

جبل شمسان) بالصهاريج التي سبق الحديث عنها. ويوجد فيها مسجد لأحد أفراد أسرة العراقي المشهورة بعدن. وقد أسسه السيد الفقيه العلّامة صالح بن علي الذي ينتسب إلى السيد عبد الله بن عبد اللطيف العراقي. ويذكر المحضار أنه تأسس في حدود سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، أي العام الذي دخل فيه القرصان القبطان هينس عدن واحتلّها.

ويعتبر السيد صالح بن علي العراقي من صلحاء وعلماء القرن الثالث عشر الهجري في عدن. وأعيد بناء المسجد بعد تهدّم أجزاء منه عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م ثُمَّ أعيد بناؤه عام ١٤١٣هـ/ ١٩٨٣م. ولا يزال المسجد معموراً بحلقات تلاوة القرآن وحفظه، ودروس الفقه والحديث تحت إشراف مجموعة من طلبة العلم، تلاميذ رباط الإمام أبي بكر العيدروس العدني.

مسجد العسقلاني والشيخ محمد البيحاني

سُمّي هذا المسجد نسبة إلى الإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي المولود سنة ٧٧٣هـ والمتوفى سنة ٨٥٢هـ ، والذي دخل اليمن في أثناء رَحلاته لطلب العلم سنة ٨٠٠هـ . ثم كرر زيارته لليمن عام ٨٠٦هـ ، وأقام بعدن ستة أشهر للإفادة والاستفادة. وقد التقى في عدن العلّامة أبا بكر بن يوسف بن إسحاق بن المستأذن (المتوفى سنة ٨١٦هـ)، والعلّامة عبدالرحمن بن حيدر بن علي الشيرازي (المتوفى سنة ٨١٧هـ)، كما التقى غيرهما من العلماء. وقد تم تأسيس هذا المسجد في تلك الفترة. ثم قام الشيخ علي بن عبد الله اليافعي بتجديد بناء هذا المسجد في العقد التاسع من القرن الثالث عشر الهجري، وكان الشيخ علي اليافعي آنذاك إمام المسجد وخطيبه. وكان رحمه الله من حفظة كتاب الله فسعى في تجديد البناء.

وفي عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م هُدم المسجد وأعيد بناؤه، وأشرف العلّامة الشيخ محمد بن سالم البيجاني على بنائه بعد أن بذل جهوداً في جمع التبرعات له. وأشرف على البناء الشيخ سعيد بن أحمد بن عمر بازرعة. والبناء على دورين، وهو مسقوف باستثناء فناء صغير في جنوب المسجد (المؤخرة)، وخلفَهُ تقع الحمامات وأماكن الوضوء.. ويتّسع المسجد لأكثر من ألف مصلي من الذكور، وفي الطابق العلوي مصلى خاص للنساء يتسع لأربعين امرأة[١].

وذكر السيد عبد القادر المحضار أن ابن حجر العسقلاني قال عن الفقيه

---

(١) هذه المادة مقتبسة من كتاب مساجد عدن للشيخ أمين باوزير، ص ١٢١ - ١٤٨.

أبي بكر يوسف بن إسحاق بن المستأذن: سمعتُ من نظمه، وسمع منّي الكثير. وقال عن عبدالرحمن الشيرازي: فحدَّثني عن ست العرب بنت محمد بن الفخر البخاري بأحاديث من المائة المنتقاة من مشيخة الفخر العلائي[١] (أي أنها كانت تتصدَّر وتروي الأحاديث النبوية مما يدلّ على علوّ كعبها في علم الحديث).

ويقول المحضار إن ابن حجر سكن في موقع المسجد، وإن المسجد بُني بعد سفره في نفس الموقع تيمّناً بهذا الإمام الحافظ، وذلك في أواسط القرن التاسع الهجري.

وفيما يلي ترجمة موجزة للإمام ابن حجر العسقلاني الذي بني المسجد على اسمه، ثم ترجمة للشيخ محمد بن سالم البيحاني أهم وأشهر شخصية دينية من عدن في القرن العشرين.

ترجمة موجزة للإمام ابن حجر العسقلاني

هو الإمام الحافظ المتقن شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني، الأشعري، الشافعي. أصله من مدينة عسقلان في فلسطين، ومولده في مصر القديمة[٢] في ٢٣ شعبان سنة ٧٧٣هـ (وقبيلة كنانة بن خزيمة من مضر سكن بعض أفرادها في عسقلان بفلسطين). وهاجر والده من فلسطين إلى مصر واستقرّ بها، وكان والده عالماً أديباً ثريًّا. وتوفى والده ولا يزال أحمد طفلاً

(١) عبد القادر المحضار: التذكير بأخبار العباد وآثار البلاد، ص ٥٣-٥٩.

(٢) مصر القديمة أو العتيقة هي أول ما بناه المسلمون عند دخولهم مصر بقيادة عمرو ابن العاص، وتسمى الفسطاط أيضاً. وفيها مسجد عمرو وهو أول مسجد في مصر. ونزل بها جند المسلمين وأكثرهم من قبائل اليمن.. ولا تزال معروفة بمصر القديمة، وهي ما بين القاهرة التي بناها المعزّ لدين الله الفاطمي وحيّ المعادي وحلوان.

صغيراً، فكفله أحد أقارب والده، وهو زكي الدين الخروبي، وهو كبير تجار الكارم[1] في مصر، فرعاه الرعاية التامة وأدخله الكتّاب، فحفظ كتاب الله كاملاً وهو ابن عشر سنين أو أقل.

رحلاته في طلب العلم: درس العلوم الشرعية والنحو في بلده مصر على يد علمائها، ثم رحل إلى مكة المكرمة سنة ٧٨٥هـ وأقام بها سنة ودرس خلالها الحديث على يد الشيخ عبد الله بن سليمان النشاوري، قرأ عليه صحيح البخاري. وسمع في مكة من العلامة الشيخ جمال الدين بن ظهيرة، وعمره آنذاك اثنتا عشرة سنة. ثم عاد إلى مصر ودرس الحديث على يد المحدّث الشهير الحافظ الزين عبد الرحيم العراقي، ودرس الفقه على يد أئمة الفقه في مصر مثل الشيخ ابن الملقّن والعزِّ بن جماعة، وعليه درس الأصول، وفروع الفقه، ودرس على يديه «المنهاج» و«جمع الجوامع» و«شرح المختصر» و«المطوّل».

ثم رحل إلى بلاد الشام وأخذ من علمائها. وعاد إلى الحجاز، وأخذ عن علماء مكة مرة أخرى، ثم ذهب إلى اليمن. وكان ذهابه إلى اليمن مرتين: الأولى سنة ٨٠٠هـ والثانية سنة ٨٠٦هـ، وفيها دخل عدن واستقرّ بها لمدة ستة أشهر. وأخذ من علمائها مثل ابن المستأذن والفقيه العلامة عبد الرحمن بن حيدر الشيرازي المتوفى سنة ٨١٧هـ والذي سمع أحاديث البخاري و«مائة حديث منتقاة من مشيخة الفخر العلائي» من ست العرب بنت محمد بن الفخر البخاري التي توفيت سنة ٨٦٧هـ ، وقد سمع منها الحافظان العراقي والهيثمي أيضاً[2].

---

(١) الكارم: تجارة البهارات، وكانت تأتي من الهند عبر عدن ومنها إلى مصر وإلى المغرب وإلى أوربا.

(٢) المحضار: التذكير بأخبار العباد، ص ٥٣.

ثم ذهب ابن حجر مرة أخرى إلى فلسطين، وسمع من أحمد بن محمد الخليلي في غزّة، وفي بيت المقدس سمع من شمس الدين القلقشندي، وفي الرملة سمع من أحمد بن محمد الأيكي، وفي الخليل سمع من صالح بن خليل بن سالم.. وأخذ من كبار العلماء في علومهم المختلفة مثل الحديث والفقه والأصول والقراءات واللغة والنحو... إلخ.

وقد اشتهر ابن حجر العسقلاني بعلم الحديث حتى صار المرجع فيه، ولا تزال كتبه في علم الحديث وشروحه وعلم الرجال، هي المرجع لمن أراد أن يدرس علم الحديث، فهو أحد أشهر رجال علم الحديث. ولما أظهر كتابه: «فتح الباري، شرح صحيح البخاري» قيل «لا هجرة بعد الفتح». وصار من أهم شروح هذا الكتاب المرجع عند أهل السُنَّة. وشهد له أهل عصره ومن بعدهم بالإتقان حتى لُقِّبَ بالحافظ، ورحل إليه الطلبة، وبيع كتاب فتح الباري بثلاثمائة دينار ذهباً، وهو يستحق ذلك وأكثر منه.

قال عنه تلميذه الإمام السخاوي: شهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث. وقال عنه السيوطي (الذي أخذ عنه الفاتحة وهو طفل صغير): «إمامُ هذا الفنّ للمقتدين، ومقدَّمُ عسكر المحدّثين، وعمدة الوجود في التوهين والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في بابي العدل والتجريح».

الوظائف التي شغلها: تولى ابن حجر الإفتاء، وتولى القضاء، وصار قاضي قضاة الشافعية بمصر. واعتنى عناية فائقة بالتدريس وله مئات التلاميذ، وكان يخطب الجمعة في المسجد العتيق (مسجد عمرو بن العاص). ودرّس في أشهر المدارس في عهده في العالم الإسلامي مثل المدرسة الشيخونية والمدرسة المحمودية، والمدرسة الحسينية، والمدرسة البيبرسية، والفخرية والصلاحية... إلخ. إلخ.

مؤلفاته: أشهر مؤلفاته كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري» في ١٥ مجلداً. مكث ابن حجر في تأليفه خمساً وعشرين سنة. ولما أتمّه أولم وليمة عظيمة. وقد تضمّن الكتاب علوماً جمة بالإضافة إلى علم الحديث ورجاله، حيث تضمَّن شتى المعارف من فقه وأصول، ولغة، ومناقشة للمذاهب والآراء في شتّى المعارف الإسلامية. وقد اشتهر الكتاب شهرة كبيرة حتى أنه عندما يصل إلى بلد يحتفل أهل تلك البلد بدخوله. وقد طلبه شاه رخ (وكان محبًّا للعلم) ابن تيمورلنك (الذي دوخ العالم القديم) من السلطان برسباي في مصر فأرسله له.

وله كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة»، ترجم لكل من عُرِف من صحابة رسول اللهﷺ، وتعريف الصحابي عندهم: كل من اجتمع برسول الله ﷺ وهو مسلم، ولو كان صغيراً، واشترط بعضهم أن يكون مميّزاً، ولو تخلّل ذلك ردّة.

وله كتاب «بلوغ المرام من أدلة الأحكام».

وله كتب في مصطلح الحديث مثل «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر».

وله «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية».

وله «تهذيب التهذيب» في رجال الحديث.

وله كتاب «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» (كتاب فقهي).

وله «لسان الميزان».

وله في التاريخ «إنباء الغمر بأنباء العُمر» وهو مؤلف ضخم في حوالي ألف صفحة حيث يتبع نظام الحوليات والشهور والأيام، ويتناول الأحداث ما بين سنتي ٧٧٣ و٨٥٠هـ.

وله «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» معجم تراجم للقرن الثامن الهجري.

وله «رفع الإصر عن قضاة مصر». وهو معجم لمن تولّى القضاء في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى آخر القرن الثامن الهجري.

وله أيضاً ديوان شعر.

والخلاصة أن كتبه مكتبة كاملة حافلة، وخاصة في علوم الحديث والتاريخ والعقائد الإسلامية وأدلة الأحكام. وقد بلغت كتبه أكثر من مائة وخمسين كتاباً، بعضها في مجلدات ضخمة مثل فتح الباري (١٥ مجلداً) ومثل الإصابة في تمييز الصحابة، ومثل إنباء الغمر في التاريخ وهكذا.

وفاته: وقد توفى هذا الإمام الفرد العلم في أواخر ذي الحجة سنة ٨٥٢هـ. وارتجّت مصر لموته، وحضر جنازته والصلاة عليه أمير المؤمنين (العباسي)[1]، وسلطان مصر، وعلماء مصر وفقهاؤها، وعشرات الآلاف من محبيه وتلاميذه. وقد أفرد له تلميذه الإمام السخاوي مؤلفاً ضخماً في ترجمته أسماه «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» طبع في ثلاثة مجلدات (دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩١).

ترجمة الشيخ محمد بن سالم البيحاني (١٣٢٦ – ١٣٩١هـ/ ١٩٠٨ – ١٩٧٢م)

يعتبر الشيخ محمد بن سالم بن حسين البيحاني الكدادي أشهر علماء عدن في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، وقد عُرف في جميع أرجاء اليمن والحجاز والجزيرة العربية، وكان أشهر خطبائها في زمنه.

شيوخه: ولد الشيخ محمد بن سالم البيحاني في بيحان في ٢٦ رجب ١٣٢٦هـ/ أغسطس ١٩٠٨م وتربى في حجر والده الذي علمه القرآن. وكان

---

(١) انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة بعد هجوم هولاكو. وبقي الخليفة العباسي رمزاً للأمة، والسلطة الحقيقية كلها في يد السلطان، إلى أن جاءت الدولة العثمانية ومات آخر خليفة عباسي، فصار السلطان العثماني هو الخليفة.

والده حريصاً كل الحرص على تعليم ولده محمد لما يرى من نبوغه المبكر وقد كُفَّ بصر الصبي وهو في سن الخامسة، ولكنه يذكر غروب الشمس تماماً قبل أن يكفّ بصره. ونوّر الله بصيرته.. ودرس مبادئ الفقه والحديث وحفظ القرآن الكريم، ثم لما بلغ الرابعة عشرة بعثه والده إلى تريم برفقة أخيه عبد الله ابن سالم وابن عمه عبد الله بن حسين البيحاني لينهلوا من علوم الإمام السيد عبد الله بن عمر الشاطري الذي طار صيته في الآفاق، وأقبل عليه طلبة العلم من أندونيسيا وماليزيا والهند واليمن وحضرموت والصومال وشرق إفريقيا. وكان الرباط الذي يؤوي الطلبة تحت إشراف السيد عبد الله بن عمر الشاطري حتى بلغت شهرته الآفاق.

وكان الشيخ محمد بن سالم البيحاني يكثر الدعاء لشيخه السيد عبد الله بن عمر الشاطري، وأهدى أول وأهم كتبه «إصلاح المجتمع» لوالده أولاً ثم لشيخه السيد عبدالله الشاطري، قال: «عليّ دينٌ لازم، وحقٌّ ثابت لكثير من الناس، وأعظمهم حقًّا عليَّ: والدي الذي كان سبباً في وجودي، وله بعد الله الفضل الأكبر عليّ، نشَّأني نشأة دينية، وعلّمني كيف أعبدُ ربّي، وكيف أعامل الناس كافة. ثم أستاذي العظيم صاحب الفضيلة السيد عبد الله بن عمر بن أحمد بن عمر الشاطري العلوي الحضرمي. كانت له بي عناية كبيرة، وله عليّ يدٌ بيضاء لا أستطيع مكافأته عليها إلا بالدعاء له، والترحّم عليه. وهو أول من فتق لساني بحديث رسول الله ﷺ، وحفَّظني بنفسه الأربعين النووية، وشرحها لي، وكان يحرص جدَّ الحرص على تعلمي الفقه والنحو، والتجويد، وعلم المواريث. ويحثُّ زملائي وأساتذتي الآخرين على العناية بي، ومذاكرة دروسي، فجزاه الله عنّي أفضل ما جوزي به معلّمٌ عن متعلّم. واعترافاً بفضله، وتقديراً لإحسانه أقدّم هذا الكتاب هدية إلى روحه الطاهرة، وأسأل الله أن يبلِّغه عني التحية والسلام».

وفي تريم مكث أربع سنوات متتالية من آخر سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٢م إلى منتصف سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م وهو في كنف السيد عبد الله الشاطري يرعاه ويوجهه ويعلّمه ويحدبُ عليه، ويحثُّ الأساتذة الآخرين على العناية به، لما يرى من ذكائه وصدق توجهه، ويحثُّ زملاء البيحاني على مساعدته لاستذكار دروسه بسبب ما أصاب بصره منذ طفولته الباكرة، فنوَّر الله بصيرته.

وللبيحاني قصائد في شيخه السيد عبد الله بن عمر الشاطري العلوي الصوفي المربّي وفي أحدها يقول:

هو الشاطري العالم العامل الذي	تعلّمتُ من تقريره الشرح والمتنا
إذا ما بكت عيني عليه لآلئاً	فذلك مما كان يحشو به الأذنا
قضى زمناً في خدمة العلم رافعا	بناء رباطٍ لا يشابهه مبنى
وأيُّ غريبٍ جاءه فهو واجدٌ	به العلمَ والقوتَ الضروريَّ والسكنى

وهكذا كانت منارات العلم في الإسلام وأربطته يجد فيها الغريب العلم والقوت الضروري والسكنى، والرعاية الإسلامية الصحيحة والقدوة المُثلى، فيتعلمون العلم والعمل، ويكون رائدهم جميعاً الإخلاص لله سبحانه وتعالى، فيبارك الله سبحانه وتعالى في علمهم وفي أثرهم.

وقد ذهب الشيخ محمد البيحاني بعد ذلك إلى الأزهر وتعلَّم على يد شيوخه الكبار وعلمائه الأماجد، ولكنه لم يرَ في حياته مثل الشاطري قطّ، وكان تأثير السيد عبد الله الشاطري عليه وعلى زملائه، وكل من جاء لديه من الآفاق عظيماً.. فقد كان يرفق بطلبته ويحدب عليم، ويزورهم آخر الليل ويوجههم، ويجعلهم ربانيين حقًّا، فينفع الله بهم حين يعودون إلى أوطانهم وقراهم ومدنهم.

لهذا كان تعلّق البيحاني بالشاطري عظيماً، وبتريم بلد الشاطري والعلماء الأعلام من أهل حضرموت، أصحاب التواضع والإخبات، عظيماً. ومما قاله البيحاني في تريم:

رعـى الله أيـام الوصـال وإذ كنّـا مع السادة الأشراف في البلد الغنّـا[1]
تريم التي طـاب الحـديث بفكرهـا فيـا حبّـذا الغنّـاء ويـا حبـذا المغنـا

وقد أخذ الشيخ محمد بن سالم البيحاني من الإمام الفقيه المحدّث العلامة المؤرخ السيد علوي بن طاهر الحداد (ذهب إلى إندونيسيا ثم ماليزيا وصار مفتي جهور (إحدى ولايات ماليزيا حاليًّا) أخذ عنه في عدن قراءة في صحيح البخاري[2].

وبعد أن أقام البيحاني في تريم، رجع إلى بلدته بيحان فوجد والدته بنت الشيخ عبد الله بن أحمد باوزير (العليمي) قد تُوفّيت قبل وصوله بأربعة أشهر، ومكث عامين بجوار أبيه، يدرّس القرآن ويلقي المواعظ والدروس. ونصحه والده بالسفر إلى عدن، وذلك سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، فذهب ولازم الشيخ أحمد بن محمد بن عوض العبادي في مدينة الشيخ عثمان، ثم ذهب إلى مصر للدراسة في الأزهر الشريف وأخذ الشهادة الأهلية ثم العالمية. وكان مبتعثاً لنادي الإصلاح الاجتماعي.

البيحاني في مصر: واتسعت مداركه العلمية والأدبية في مصر، فقد كانت مصر تموج بالعلماء وبالحركات الدينية والسياسية في زمنه.

يقول الأستاذ عبد الكريم قاسم[3]: «أما دراسته في الأزهر ومعايشته لعلمائه فقرّبته من أفكار مدرسة النهضة الإسلامية التي حمل رايتها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم».

---

(١) الغنّاء هو لقب تريم لما فيها من البساتين ومن العلوم.

(٢) عبد القادر المحضار: التذكير بأخبار وآثار البلاد، ص ٥٣ – ٥٩.

(٣) عبد الكريم قاسم: منهج الإصلاح عند الشيخ البيحاني «ندوة الشيخ محمد سالم البيحاني»، مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، ٢٠٠٣، ص ٣٣ – ٤٦.

دور البيحاني السياسي: وعايش المعارك الفكرية والسياسية والأدبية التي كانت تموج بها مصر. وكان متأثراً على حد كبير بمنهج الإمام حسن البنا، وإن لم يُعرف عنه انضمامه إلى حركة الإخوان المسلمين. وقد زامل في مصر الشهيد الداعية الشاعر رائد الثورة اليمنية الأستاذ محمد محمود الزبيري، والشيخ محمد الصواف (من العراق)، وأحمد نعمان (السياسي والمفكر ورائد الثورة مع الزبيري)، وهواري بومدين (من الجزائر). كما زامل السيد محمد علي الجفري الذي كان يدرس أيضاً في الأزهر، والسيد سالم بن عمر بن طه الصافي الذي كان يدرس في دار العلوم، وشريف بيحان الذي درس في الأزهر فترة. وقد قال الزبيري عن البيحاني إنه كان «متكلماً لبقاً، وخطيباً لسناً، ومحاضراً بارعاً. لا أقول إنه كان في صفّ المثقفين من شباب العرب، بل أعتقد أنه كان من أرفعهم رأساً وأبعدهم صوتاً»[1].

ومعلوم تأثر الشاعر الثائر الزبيري بالشيخ حسن البنا ومدرسته. وقد أكَّد الباحث عبد الكريم قاسم أن البيحاني، رغم تأثره بفكر الإخوان المسلمين إلا أنه لم يكن في يوم ما منضمًّا إليهم.

كتيبة الشباب اليمني: وقد كوّن بعض الطلبة اليمنيين، الدارسين في الأزهر، وغيره أول جماعة سياسيّة سرّية وذلك في ٢٨ سبتمبر ١٩٤٠م بالقاهرة عُرفت باسم «كتيبة الشباب اليمني» وأُطلق عليها «**الكتيبة اليمنيّة الأولى**» ووضعت لها برنامجاً ونظاماً تحت اسم «قانون كتيبة الشباب اليمني»[2].

---

(١) المصدر السابق، نقلاً عن مقدمة كتاب الفتوحات الربانية للبيحاني، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، نقلاً عن الموسوعة اليمنية، ص ٢٠٦. وانظر عبد الرحمن خبّارة: عدن الازدهار الصحافي والثقافي، ندوة عدن ثغر اليمن ١٩٩٩ (ج١/ ١٤٩- ١٦٠). وقد قال أحمد محمد نعمان: كانت اليمن بحدودها الطبيعية التاريخية وطننا جميعاً، ومجال تفكيرنا وميدان كفاحنا، لا يخطر على بالنا شمال ولا جنوب، ولا نفرّق بين مذهب ومذهب، ولا بين فئة وأخرى.. وقرّرنا تكوين جمعية أطلقنا عليها اسم «الكتيبة الأولى للشباب اليمني»، وكان المرحوم محمد علي الجفري هو الذي اقترح (هذا) الاسم.

وكان من مؤسسي هذه الكتيبة: الشيخ محمد بن سالم البيحاني، ومحمد محمود الزبيري، وأحمد محمد نعمان، وصالح المسمري، ومحمد علي الجفري[١]، وأحمد عبد الرحمن الجفري»[٢].

والغريب حقًّا أن الذين كوّنوا فيما بعد رابطة أبناء الجنوب – وعلى رأسهم السيد محمد علي الجفري والسيد عمر الصافي – كانوا من دعاة الوحدة اليمنية وارتبطوا بالزبيري والنعمان في حركة واحدة ذات شقّين: إحداهما تحارب النظام الاستبدادي الإمامي في شمال الوطن والثانية تحارب الاستعمار البريطاني والتجزئة.. وكلاهما في النهاية تتعاونان لإيجاد وطن واحد يسعى للّحاق بالحضارة الحديثة، يتمسّك في الوقت نفسه بالشريعة الإسلامية الغرّاء. وهو فكر إسلامي واضح عند جميع أصحاب النهضة الإسلامية وخاصة الإخوان المسلمين.

وكنت أظن أن الشيخ محمد البيحاني قد انتمى للرابطة بعد قيامها لشدة ارتباطه برجالها وخاصة السيد محمد علي الجفري والسيد سالم عمر الصافي، ولكن السلطان علي عبد الكريم – وهو أحد رجالات الرابطة المهمّين – ذكر أن الشيخ البيحاني كان متعاطفاً مع الرابطة، ولم يكن عضواً فيها. وكان يخطب في احتفالاتها العامة فتنجذب له القلوب والأسماع.

وأتّفقُ مع الباحث عبد الكريم قاسم في أن البيحاني رحمه الله لم يكن في يوم من الأيام عضواً في حركة الإخوان المسلمين، وإن كان متأثراً بفكرها وخاصة فكر الشيخ حسن البنا رحم الله الجميع، كذلك لم يكن عضواً في رابطة أبناء الجنوب أو غيرها من التنظيمات السياسية.

---

(١) كُتب علي محمد الجفري، وهو خطأ.

(٢) لم أعرف أحمد بن عبد الرحمن الجفري، ولعله ابن السيد عبد الرحمن الجفري الذي توطن مصر وأقام بها. وقد نقل الباحث عبد الكريم قاسم هذا الكلام عن حميد شحرة: مصرع الابتسامة، المركز اليمني للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٨، ص٩١.

قانون كتيبة الشباب اليمني: وقد جاء في (قانون كتيبة الشباب اليمني)[1] أن هؤلاء الشباب قد رأوا تمزق بلدهم وتأخر أحواله وتفشي الجهل والظلم فيه، ولذا قاموا بتأليف هذه الكتيبة من الشباب اليمني تحمل على عاتقها دعوة الأمة والإهابة بها إلى النهوض واليقظة حتى تكون عضواً عاملاً في الأمة الإسلامية والوحدة العربية، وتتبوأ المكانة اللائقة بها بين الأمم الراقية:

شعارها: الإسلام – العرب – الوطن.

الإسلام: بنصره والاستنصار به.

والعرب: بالعمل لصالحهم وتحقيق وحدتهم.

والوطن: برفع شأنه وإعزازه.

المادة الأولى: تألّفت هذه الكتيبة في القاهرة يوم السبت ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٩هـ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٤٠م، وسُمِّيت كتيبة الشباب اليمني، ومركزها القاهرة.

المادة الثانية: مقاصدها:

(١) بعث الأمل في نفوس الشعب ومحاربة اليأس.

(٢) بثّ روح التضحية والإخلاص والإخاء، ونشر الثقافة بين أفراد الأمة وشبابها حتى تعود بينهم الطمأنينة.

---

(١) عبد الكريم قاسم، منهج الإصلاح عند الشيخ البيحاني، ص ٣٣-٤٦ (مصدر سابق). وانظر عبد الرحمن خبّارة: ندوة ثغر عدن، ص ١٥٥ – ١٥٨.
ولاحظ أن الكتيبة تكونت في ٢٨ سبتمبر ١٩٤٠م مع بداية الحرب العالمية الثانية، وقبل تكوين الجامعة العربية لأن معظم الدول العربية لم تكن قد نالت استقلالها... وهذه الأفكار والرؤى متقدمة في زمنها ووقتها.

(٣) تصوير آلام الشعب وما يعانيه، والنظر في العلاج الناجح لإزالة تلك الآلام.

(٤) نشر الثقافة بين اليمنيين جميعاً وإيقاظ شعورهم وتذكيرهم بماضيهم المجيد، وتنبيههم على واجبهم في المستقبل، وتزويدهم بالتعاليم الصحيحة التي تعود على الأمة بالنفع العام.

(٥) الاتصال بعظماء الشعب وغيرهم من الرجال الذين تتجلّى فيهم الروح الوطنية والإخلاص، للتشاور فيما يتعلق بنهضة اليمن.

(٦) ترغيب المقتدرين وذوي اليسار في إرسال بعثات علمية لدراسة العلوم التي تعمّ معرفتها وتشتدّ حاجة البلاد إليها.

(٧) السعي لدى الحكومة اليمانية في شدّ أزر هذه البعثات.

(٨) محاربة النعرات المذهبيّة، ونبذ الخلافات والآراء التي جرّت على المسلمين النكبات في معظم دور التاريخ.

(٩) إعداد اليمن ليكون عضواً عاملاً في الجامعة العربية والإسلامية.

(١٠) الاتصال بالحكومة للاستعانة بها في تنفيذ أغراض الكتيبة.

وقامت الكتيبة بإلقاء المحاضرات ونشر أهدافها وإصدار مجلة أو دوريات ونشرات وإرسال وفود لنشر مبادئ الكتيبة وإنشاء فروع لها داخل اليمن. وقد قام الزعيم والشاعر محمد محمود الزبيري بإنشاء أول فرع لها في اليمن وذلك بعد عام من تكوينها[1].

---

(١) خالد عبد الجليل شاهر: حركة الأحرار اليمنيين، الموسوعة اليمنية، كما ينقلها الأستاذ عبدالكريم قاسم: منهج الإصلاح عند الشيخ البيحاني، مصدر سابق، ص ٣٣-٤٦.

منهج الكتيبة

وجاء في برنامج الأمر بالمعروف الذي وضعته الجمعية ما يلي[1]:

(١) إنشاء جيل جديد يبعث فيه روح الإسلام الصحيحة ويوقظه من الغفلة التي رانت على النفوس بإعراضها عن التدبر لكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الأئمة الراشدين.

(٢) إحياء الأدب العربي وممارسته.

(٣) محاربة اللغة العامية وإيثار الفصحى.

(٤) إشاعة الفضائل الخلقية في الأمة وإثارة الكرامة والعزّة الإسلامية.

(٥) بثّ الدعوة الإصلاحية لتوجيه الأمة بواسطة العلماء والمتعلمين.

(٦) تشجيع أعمال البرّ وتنظيمها.

(٧) تقوية روابط المحبّة والإخاء بين أفراد الأمة الإسلامية.

(٨) إيجاد التعاون بين التجار بواسطة إنشاء الشركات الوطنية والمشروعات الاقتصادية المختلفة.

(٩) تقوية الأجسام والمحافظة على الصحة بإنشاء شُعَب للرياضة.

(١٠) البعد عن الخوض في السياسة.

(١١) نشر خطباء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإرشاد في المساجد والمجتمعات العامة. وفي الشطر الجنوبي أضافوا محاربة التنصير الذي تقوم به الإرساليات التبشيرية في الجنوب اليمني المحتل.

الجمعية الإسلامية الكبرى

وعندما عاد الشيخ محمد بن سالم البيحاني إلى عدن قام بنشاط الدعوة والتدريس والإمامة والخطابة، وساهم **في تأسيس الجمعية الإسلامية الكبرى**

---

(١) عبد الكريم قاسم: منهج الإصلاح عند الشيخ البيحاني (ص ٣٣-٤٦).

عام ١٩٤٩م، وكان يرأس هذه الجمعية الشيخ المحامي محمد عبد الله (من أصل هندي توطّن عدن وكان من رجالاتها، وذهب إلى بريطانيا لشرح قضية عدن والجنوب في البرلمان البريطاني، وتوفي هناك. وقد اتهمت الحكومة البريطانية بسمِّه)[1].

وأما أعضاء هذه الجمعيّة فهم أصدقاء الشيخ البيحاني من مصر: السيد محمد علي الجفري والسيد سالم الصافي، وانضم معهم الشيخ علي محمد باحميش، والسيد عبد الله بن صالح المحضار، والشيخ علي بازرعة، وغيرهم[2]. وقد سعت الجمعية الإسلامية إلى نشر الثقافة الإسلامية والأخلاق الإسلامية واللغة العربية والاحتفال بالأعياد الإسلامية، وجعل اللغة العربية لغة رسمية في عدن، بينما كانت اللغة الإنجليزية فقط هي اللغة الرسمية، ودعت إلى جعل العطلة الأسبوعية يوم الجمعة بدلاً من يوم الأحد.. إلى آخر تلك المطالب. وعمّقت الروح الإسلامية في جمع أنشطتها ودعت إلى إقامة **معهد إسلامي**... وكان الشيخ محمد بن سالم البيحاني هو فارس هذه الجمعية بعد وفاة الشيخ محمد عبد الله المحامي، وسعى سعياً حثيثاً في تكوين **المعهد الإسلامي**. وقد قام الشيخ البيحاني بتكوين لجان لجمع التبرعات، ولوضع المناهج، وسافر إلى دول الخليج لجمع التبرعات عندما رأى أن المبلغ الذي جُمع في عدن لم يكن كافياً. وتمّ جمع أكثر من مليوني شلن (وهي العملة المستخدمة آنذاك وكانت تساوي

---

(١) الشيخ محمد عبد الله المحامي: أصله من الهند (قبل الاستقلال وتكوين باكستان). كان قويّ الحجة ويطالب بالحقوق المدنية والدينية لأهل عدن. وكانت الرابطة الإسلامية لديه ولدى أعضاء الجمعية الإسلامية، أهم الروابط وأعلاها، ثم تأتي رابطة الوطن والقوم واللغة.

(٢) مثل الشيخ ياسين راجمنار (هندي عدني قويّ الإيمان)، والشيخ علي التركي (من أبناء عدن)، وعلي غانم كليب (من أبناء عدن).

ريالاً سعودياً).. وقام الرجال يعملون حتى أقاموا المعهد الإسلامي المجيد الذي يسعى لتعليم أطفال المسلمين في عدن من الروضة والابتدائية وحتى نهاية المرحلة الثانوية... وكانت حكومة بريطانيا في عدن تقصر التعليم في المدارس الحكومية على أبناء عدن فقط (المولودين فيها. ثم توسع وسمحت لأبناء المحميات، وفي الفترات الأخيرة قبل الاستقلال سمحت لأبناء المناطق الشمالية بالدراسة فيها). وكان على الجماعات المختلفة (هندوس ونصارى ويهود وغيرهم) أن يقوموا بإنشاء مدارسهم الخاصة. وأما اليهود فقد بنت لهم حكومة عدن مدرستين إحداهما للبنين وأخرى للبنات، فكان لزاماً على المسلمين أن يقوموا بإنشاء مدارسهم الخاصة. ومن أهمّها وأقدمها مدرسة بازرعة الخيرية التي دَرَّس فيها نخبة من أهل العلم والفضل، وتولى إدارتها الشيخ علي محمد باحميش. ولكن حاجة المسلمين في عدن كانت لمعهد علمي إسلامي، فقام الشيخ محمد بن سالم البيحاني وصحبه ببذل جهودهم لإقامة هذا الصرح الباذخ، والذي تمَّ افتتاحه في أكتوبر عام ١٩٥٦م. وقد ظل يعمل ويخرّج المئات من الطلبة الممتازين حتى بدأ عهد الماركسيين عندما أمّمه عبد الله عبد الرزاق باذيب في ١٦/ ٥/ ١٩٧١م وتحول إلى مبنى تابع لوزارة الداخلية.

تأميم المعهد الإسلامي: ومن أعجب العجب أن عبد الله باذيب كان أحد الذين درسوا على يد الشيخ محمد بن سالم البيحاني، ثم كان عضواً فاعلاً في رابطة أبناء الجنوب. ثم تأثر بالماركسية وذهب إلى موسكو وعاد منها شيوعيًّا ماركسيًّا.. ومع ذلك، نتيجة تربيته السابقة، لم يتورط مثل زملائه في الحزب في الدماء والاغتيالات، بل كان أبعد الناس عنها. وقد كان ينتقد ما وصل إليه زملاؤه الماركسيون الذين أوصلوا البلاد إلى مستنقع آسن مليء بالدماء.. ونتيجة التناقضات التي كان يعيشها هو وأخوه علي عبد الرزاق باذيب انغمسا في شرب الخمور حتى قضت عليهما... وللحقّ فقد كان لهما دور بارز في

الصحافة العدنيّة، وفي مهاجمة الاستعمار البريطاني البغيض، وذلك قبل أن ينغمسا في الماركسية العلمية اللينينيّة.

وكان جزاء الشيخ البيحاني أن قام عبد الله باذيب بإصدار أمره بتأميم المعهد العلمي، وقد تألم البيحاني أشد الألم من ذلك، كما أن الأوضاع الشيوعية في البلاد قد أصبحت لا تطاق، فأخذت تضيّق الخناق على العلماء، وتغتال من يتجرأ على الكلام، ولو في أضيق نطاق. فغادر الشيخ إلى تعز بعد أن قام الشيخ هائل سعيد أنعم بالاتصال بالرئيس القاضي عبد الرحمن الأرياني ليتوسط لدى حكومة الجنوب الماركسية في السماح للشيخ محمد بن سالم البيحاني بمغادرة عدن، فانتقل الشيخ البيحاني بهذه الجهود والوساطة إلى تعز حيث استقبله صديقه الوفي الثري صاحب المشاريع الخيرية العديدة، وهيأ له منزلاً يليق به. ولم يطل العمر بالشيخ البيحاني، فقد كانت وفاته في ٢٤ ذي الحجة ١٣٩١هـ الموافق ١٠/ ٢/ ١٩٧٢م وأوصى بأن يدفن في المقبرة (المجنّة) تحت المسجد المظفر، ففعل صديقه الشيخ هائل سعيد ذلك. ثم أقام له مسجداً كبيراً باسمه في تعز تخليداً لذكره وتذكيراً بفضله وجهاده وعلمه.

ولا شك أن الشيخ البيحاني قد لعب دوراً سياسيًّا عندما ساهم في تكوين كتيبة الشباب اليمني في القاهرة، كما ساهم في تكوين الجمعية الإسلامية الكبرى التي كان لها دور في مقاومة الإنجليز ونشر الوعي الديني والسياسي والمطالبة بعروبة عدن ويمنيتها بعد أن حاول الإنجليز، منذ قدوم القرصان القبطان هينس واحتلاله لعدن عام ١٨٣٩م، أن يجعلوا عدن مدينة مختلطة تكاد تكون الأغلبية من سكانها من غير اليمنيين. واعتبروا الهندوس وكل من ولد في عدن عدنيًّا، بينما اعتبروا ابن لحج أو يافع أو حضرموت (وهي كلها تحت الحماية البريطانية) أجانب إذا ولدوا في مناطقهم، فضلاً عن أبناء الشمال. ووقف ضد جهود الجمعية العدنية المنادية بعدن للعدنيين (أي المولودين فيها فقط)، وعمل

على أسلمة عدن بعد أن تمَّ تغريبها، وتعريبها بعد أن تم تهنيدها، وعمل في هذا المجال مع رابطة أبناء الجنوب، وشارك في احتفالاتها الشعبيّة، وكان خطيبها المفوّه، وخاصة أنهم استغلّوا المناسبات الدينية مثل الاحتفال بالهجرة النبوية، والإسراء والمعراج، والمولد النبوي...إلخ. فكانت فرصة لتوعية الجماهير العربية اليمنية المسلمة بدينها ولغتها، وتحقَّق جزء كبير من هذه المطالب فأصبحت الإجازة الأسبوعيّة هي الجمعة بدلاً من الأحد، وتم إعطاء إجازة رسميّة في بداية العام الهجري، وفي الإسراء والمعراج والمولد النبوي. وكانت هذه الاحتفالات فرصة لتوعية الجماهير وتعليمها سيرة نبيها محمد ﷺ. ولا أزال أذكر كلام الشيخ محمد البيحاني في مسجد بانصير (القريب من منزلنا في عدن) بعد صلاة الفجر، حيث حضرت أنا وأخي أحمد (وعمري آنذاك اثني عشر عاماً) مع عمي عبد القادر بن حامد البار احتفالاً بالمولد النبوي، وتحدث فيه الشيخ البيحاني عن السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، وكيف أحبَّت رسول الله ﷺ وفدته بمالها ونفسها. وأذكر أن كل الحاضرين كانوا يبكون وهم يسمعون ما لاقته هذه السيدة النبيلة الكاملة الفاضلة من المشاقِّ والمتاعب، وهي تعاني الحصار الظالم في شِعب بني هاشم حتى ماتت هي وعمُّه وكافله والمدافع عنه أبو طالب في عام واحد، سمَّاه رسول الله ﷺ عام الحزن... وها قد مضت ستون عاماً أو أكثر على تلك الكلمة البليغة من شيخنا العظيم الشيخ محمد بن سالم البيحاني وأنا لا أزال أذكر كلامه ونبرة صوته، ولم أسمع إلى اليوم مثل حديثه عن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وأرضاها. ثم كنتُ أحضر في مسجد العسقلاني بعض خطب الجمعة التي يلقيها، والتي يتوافد أهل عدن عليها حتى لا تجد موضعاً لقدم من شدّة الزحام.

وعندما عدتُ من القاهرة بعد تخرجي من كلية الطب، كوّنت مع الإخوة الأعزاء عمر طرموم والشيخ محمد عبد الرب جابر ومحمد الصوفي والأستاذ يونس وحسين دلمار ومجموعة من الشباب، المركز الثقافي الاجتماعي الإسلامي.

وكان الشيخ محمد البيحاني يرشدنا ويساهم أحياناً في إلقاء الدروس والمواعظ وخاصة في الاحتفالات الدينية حيث يسهم كثير من علماء عدن وشعرائها في ذلك، مثل الأستاذ الدكتور الشاعر محمد عبده غانم حيث كان يتحف المحتفلين بقصائده الغراء في مناسبات المولد والإسراء والمعراج والهجرة.. إلخ[1].

وأذكر أنني كنت في زيارة خاصة للشيخ محمد البيحاني رحمه الله رحمة الأبرار، وكنتُ مغتاظاً من انصراف أكثر أهل عدن وأهل الجنوب إلى الحركات الثورية العلمانية مثل الجبهة القومية، وجبهة التحرير، فقلت للشيخ: «يا سيدي، كانت الجماهير يحرّكها الشيخ البيحاني فتركها لهؤلاء الطغام، فلعبوا بها، وأبعدوها عن الجهاد الحقّ وعن الدين الحقّ وغداً ستظهر ميولهم الماركسية». وقلت: «المطران مكاريوس في قبرص قاد حركة الاستقلال ضد بريطانيا. والشيخ البيحاني أحقُّ بذلك منه وأقدر عليه. ولو تحرك لتحركت الجماهير معه».

فردّ الشيخ بابتسامة: يا سيّد، قد قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ (الفتح: ١٧).

ولم يجد الشيخ من يقف معه، ولو وجد قوماً يعملون لذلك لما تأخر. كما أذكر أنه لما اشتدَّ القتال الأهلي وهرب الأطباء الأجانب من عدن ولم يبق إلا عدد ضئيل من أبناء الوطن، والفوضى ضاربة أطنابها، والقتال يدور في أرجاء مستشفى الملكة (الجمهورية بعد ذلك) نفسها. وقد كنتُ في تلك الفترة المسؤول في المستشفى فاجتمع الأطباء. ووافقوا على ما عرض الصليب الأحمر من دعم بالأطباء والإمكانيات بشرط أن يرفعوا علم الصليب على المستشفى. فلما بلغ الخبر الشيخ محمد بن سالم البيحاني قال: لم نسمح للإنجليز خلال أكثر من مائة

(١) كانت علاقة المركز الثقافي ممتازة بجميع علماء عدن، وكان بعضهم يتكرم بإلقاء الدروس فيه. ويساهم كثير منهم في الاحتفالات التي يقيمها. وانضم إلى المركز العديد من طلبة العلم ومنهم الشيخ ناصر الشيباني حفظه الله.

عام على رفع الصليب في دوائر الدولة، والآن وقد قرب الاستقلال نسمح لهم بذلك. لا والله لا نسمح. فاجتمعت بإخوتي الأطباء ورفضنا العرض الذي قدمته هيئة الصليب الأحمر القادمة من سويسرا (وقد ذكر قصة القبول والرفض كتاب *The Shifting Sands of Arabia*)[1].

موقف الشيخ البيحاني من الصوفية والسلفية والمذهبية

درس الشيخ محمد بن سالم البيحاني على يد الحبيب العلّامة السيد عبد الله ابن عمر الشاطري في رباط تريم، ومكث فيها أربع سنوات يتهذّب بآدابها وينهل من علومها ويزدان بزهدها وتصوّفها.

وكان الشيخ محمد بن سالم البيحاني من أوفى الناس وأكثرهم ذكراً لشيخه السيد عبد الله بن عمر الشاطري، الشافعي مذهباً، الأشعري عقيدة، الصوفي سلوكاً ومنهجاً.. وكان يسير على دربه وطريقه، وهو طريق السنّة والاعتدال والالتزام بالكتاب والسنّة.

وكان رباط تريم الذي تأسس سنة ١٣٠٤هـ بجهود مجموعة من السادة وغيرهم، تولى إدارته والتدريس فيه العلامة مفتي تريم عبد الرحمن بن محمد المشهور. ولما عاد الحبيب عبد الله بن عمر الشاطري من مكة المكرمة التي درس

---

(١) David Ledges: *Shifting Sands*, *The British in South Arabia*, Peninsular Publishing, London 1983, p. 205.
وقد ذكر الحادثة وزعم أني أبرقت مباشرة إلى اللجنة العليا للصليب الأحمر High Commision التي وافقت على ذلك. وأن المسيو روشا (رئيس الصليب الأحمر المبعوث إلى عدن) ذهب إلى زنجبار لمقابلة قحطان الشعبي الذي وافق أولاً، ثم رفض عندما عرف أن علم الصليب الأحمر سيُرفع على المستشفى. وقال المؤلف إنّ الأطباء عندما عرفوا برأي قحطان سحبوا موافقتهم، وهذا كلّه لم يحدث.

فيه على يد كبار علمائها سنة ١٣١٤هـ تولى إدارة الرباط والتدريس فيه، واستمرّ على ذلك حتى وفاته سنة ١٣٦١هـ ، وتعاون معه في التدريس نخبة من علماء تريم نذكر منهم الحبيب علوي بن عبد الله بن شهاب، والحبيب عمر بن علوي الكاف، والشيخ محفوظ سالمين عثمان، وغيرهم كثير.

وقد ازدهر الرباط في عهد الحبيب عبد الله الشاطري، كما أسلفنا، ومدحه البيحاني نثراً وشعراً. وذكر أن شيخه الشاطري علَّمه الخطابة، قال: وأول بداية تعليمي أنه كان يوقفني أمام الناس في جامع تريم، ويلقنني فروض الوضوء لأتدرب على الوقوف أمام الناس. وقال فيه:

وشيخي وأستاذي الذي في ظلاله ... نشأت وأعطاني الكثير وما مَنَّا
هو الشاطري العالم العامل الذي ... تعلّمتُ من تقريره الشرح والمتنا
إذا ما بكت عيني عليه لآلئاً ... فذلك مما كان يحشو به الأُذنا
قضى زمناً في خدمة العلم رافعاً ... بناء رباطٍ لا يشابهه مبنى
ودرسان في الأسبوع تحضر فيهما ... تريم من الأطراف والوسط الأسنى
ويجلس للتدريس سيّد قومه ... عليه سناء البدر إن لم يكن أسنى
ولستَ ترى من حوله غير أنجُمٍ ... تضيءُ على الدنيا وتملؤها حسنا

وقد رأينا فيما سبق كيف كان الشيخ محمد البيحاني يحتفل بالمولد النبوي والإسراء والمعراج والهجرة النبوية ويكون في ذلك نبراساً للجماهير ومعلماً لها سيرة حبيبها ونبيها محمد ﷺ (وهذه كلها في المدرسة السلفية بدع وضلالات).

وكان البيحاني يحفظ الكثير من الأذكار التي وضعها السادة العلويون الصوفيون كما يحفظ الكثير من أشعارهم. وقد قرَّر تلاوة قصيدة الحبيب عبدالله الحداد في السحر (آخر الليل) في مسجده وكان ينشدها بنفسه، وهي القصيدة المسماة «النفحة العنبرية في الساعة السحرية».

يــا ربِّ يــا عــالم الحــال إليــك وجهــت الآمــالْ
فــامنن علينــا بالإقبــال وكــن لنــا واصــلح البــالْ
يــا ربِّ يــا ربَّ الأربــاب عبـدك فقـيرك عـلى البـاب
وأتـى وقـد بـتَّ الأسـباب مــستدركاً بعــد مــا مــال

يـا واسـع الجـود جـودك الخــير خــيرك وعنــدك
فــوق الــذي رام عبــدك فــأدرك برحمتــك في الحــال
يــا موجــدَ الخلــق طُــرًّا وموســع الكــلِّ بــرًّا
أســألك إســبالَ ســترٍ عــلى القبــائح والأخطــالْ

يــا مــن يــرى سرَّ قلبــي حــسبي اطلاعــك حــسبي
فــامحُ بعفــوك ذنبــي واصلح قـصودي والأعـمالْ
رَبِّ عليــك اعــتمادي كــما إليــك اســتنادي
صــدقاً وأقــصى مــرادي رضــاؤك الــدائم الحــالْ

يــا ربِّ يــا ربِّ إني أســألك العفــو عنــي
ولم يخــبْ فيــك ظنِّــي يــا مالــك الملــك يــا والْ
أشــكو إليــك وأبكــي مــن شــؤم ظُلمــي وإفكــي
وســوء فعــلي وتركــي وشــهوة القِيــل والقــالْ

وحــبِّ دنيــا ذميمــة مــن كــلِّ خــير عقيمــة
فيهــا البلايــا مقيمــةْ وحــشوها آفــات وإشْــغالْ
يــا ويــح نفــسي الغويّــة عــن الــسبيل الــسويَّةْ
أضــحت تــروِّج عليّــه وقــصدها الجــاه والمــال

يــــا ربِّ قـــد غلبتنـــــي وبالأمــــــاني ســـــــبتني
وفي الحظـــــوظ كبتنـــــي وقيّـــــــدتني بالأكبـــــال
وقـــــد اســـــتعنتك ربي عـــــلى مــــداواة قلبــــي
وحـــــلِّ عُقـــــدة كـــــربي فـــانظر إلى الغــمِّ ينجـــالْ

إلى آخر تلك القصيدة المشهورة.

كما أن الشيخ محمد بن سالم البيحاني كان ينشد قصيدة (قد كفاني علم ربي) في مجالسه الخاصة والعامة، وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة المشهورة للحبيب عبد الله الحداد:

قـــد كفـــاني علـــم ربِّي مـــن ســـؤالي واختيـــاري
فـــــدعائي وابتهـــــالي شـــــاهدٌ لي بافتقـــــاري
فلهـــــذا الـــــسرّ أدعـــــو في يـــــساري وعـــــساري
أنـــا عبـــدٌ صـــار فخـــري ضـمن فقـري واضـطراري
قـــد كفـــاني علـــم ربّي مـــن ســـؤالي واختيـــاري

يــــا إلٰهـــــي ومليكــــــي أنــت تعلــمُ كيــف حــالي
وبـــــما قـــد حـــلَّ قلبـــي مــــن همــــومٍ واشـــــتغالِ

فتــــــداركني بلطـــــــفٍ منـــك يـــا مـــولى المـــوالي
يـــا كـــريم الوجـــه غثنـــي قبــل أن يفنــى اصــطباري
قـــد كفـــاني علـــمُ ربّي مـــن ســـؤالي واختيـــاري

يـــا سريـــع الغـــوث غوثـــاً منـــك يـــدركني سريعـــاً

يهـــزمُ العُـــسر ويـــأتي بالـــذي أرجـــو جميعـــا
يـــا قريبـــاً يـــا مجيبـــاً يـــا علـــيماً يـــا ســـميعا

قـــد تحقّقـــتُ بعجـــزي وخـــضوعي وانكـــساري
قـــد كفـــاني علـــم ربِّي مـــن ســـؤالي واختيـــاري

إلى آخر القصيدة المشهورة.

وكان البيحاني يرى وصول ثواب قراءة القرآن على القبر وخارجه، ويرى التلقين للميت كما ذكره في كتابه (إصلاح المجتمع) وهذا كله عند أصحاب المدرسة السلفيّة بدع وضلالات ومنكرات تجب إزالتها وإنكارها، وتسفيه أصحابها، بل واتهامهم بالشرك والكفر والخروج من الملّة. والبيحاني أبعد الناس عن الذين يكفّرون أهل القبلة، ويبيحون دماءهم، وفي بعض مراحلهم كانوا يبيحون استرقاقهم باعتبارهم كفاراً مشركين.

والبيحاني، أجزل الله مثوبته، على عكس ذلك، ولكن كان ينكر ما يفعله الجهلة الأغمار، ولا يقبل ما يضيفونه من خرافات وأباطيل وينسبونها إلى أهل التصوف الحقّ الذي مدحه الإمام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، والذي عرف البيحاني رجاله عن كثب حين عاش في تريم أربع سنوات ينهل من مشاربهم ويرتوي من مواردهم. وقد درس البيحاني، بعد عودته من تريم إلى بيحان ثم إلى عدن، على يد الشيخ محمد أحمد العبادي والذي كان يشغل منصب مدير إحدى المدارس الأهلية في الشيخ عثمان إلى جانب كونه إماماً وخطيباً لمسجد (زكو)، والذي لازمه فترة، وعملا معاً على تأسيس نادي الإصلاح العربي الإسلامي في الشيخ عثمان.. وهو الذي أثَّر في البيحاني في هذا الجانب السلفي تأثيراً كبيراً.

والشيخ محمد أحمد العبادي من مواليد مدينة (إب) حوالي سنة ١٣٠٠هـ، وتنقّل في طلب العلم حتى وصل مدينة كابل (عاصمة أفغانستان) وأخذ عن الشيخ محمد تقي الدين الأفغاني. ثم رحل إلى الهند، ثم ذهب إلى سلطنة عمان واستقرَّ بها اثنتي عشر سنة في مدينة صور، ثم انتقل إلى مسقط، وعاد بعد الحج إلى عدن حيث سمع به السلطان عبد الكريم بن فضل فطلبه معلماً وبقي فيها تسع سنوات في المدرسة المحسنية بلحج، ثم غادرها إلى الشيخ عثمان، وكان فيها إماماً وخطيباً لمسجد زكّو (زكريا) ووضع هناك كتابه «هداية المريد في عقيدة التوحيد». وعلّق عليه نثراً تلميذه الشيخ محمد بن سالم البيحاني، وقد تشتدّ عبارته في ذلك. وهذا الاتجاه السلفي لدى الشيخ أحمد بن محمد العبادي يختلف عن بعض الاتجاهات المتشدّدة. وقد ردَّ الشيخ العبادي على الإباضية عندما كان في صور في عُمان وذلك في أرجوزته «منظومة المريد إلى سبيل الحق والتوحيد»، ردّ فيها على الشيخ عبد الله بن حميد السالمي، أشهر مشايخ أهل عمان في القرن العشرين.

وتجمع لدى البيحاني اتجاه صوفي معتدل، واتجاه سلفي متزن، وفكر إسلامي حديث يتبع مدرسة محمد عبده ورشيد رضا لينفتح على العالم ويدرك ما يدور فيه، مع اتجاه تربوي إصلاحي سياسي. وكان يرى أن الإصلاح إنما يتم أولاً عن طريق التربية، ولهذا كان جهاده كله تربويًّا وتعليميًّا. وهي أيضاً مدرسة محمد عبده المخالفة لطريقة أستاذه جمال الدين الأفغاني التي كانت مشوبة بالسياسة والثورية إلى حد كبير والدخول في متاهاتها.

وقد أنكر البيحاني على هؤلاء وهؤلاء، وكره كثرة الأحزاب والتعصب لها، كما كره الاختلافات المذهبيّة والدينيّة التي مزّقت الأمة.

قال البيحاني:

أي شيء نــراه داءً عُــضالا	مثل ما في البلاد مـن أحـزابِ
نحن ما بـين شـافعيٍّ دعـيٍّ	وجهــولٍ معانـــدٍ وهَّـــابي

يـزعم الكـلُّ أنّـه في طريـقٍ سار فيها الرسولُ بالأصحابِ
فرَّقوا الدين ثم جاؤوا بشيءٍ لـيس في سُـنَّةٍ ولا بكتـابِ

ويقول في رباعية أخرى:

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي وطريقتي، قل لي لماذا تسألُ؟
أتريد منِّـي أن أكـون مقلّـداً في الاعتقاد وما أقولُ وأفعلُ
أنـا مـسلمٌ ومُـسلِّمٌ لمحمّـدٍ ولما بـه جـاء الكتـاب المُنْـزَلُ
ما لي وللقوم الـذين تفرّقـوا فمـشبّهٌ ومعطِّـلٌ ومـؤَوِّلُ

والبيحاني يكره التعصب للمذهب أو للشيخ أو لقول معيّن، ويجادل بالحسنى إلا إذا أصرَّ الخصم، فحينئذ يشتدُّ في إنكاره على ما يراه واضح البطلان.. وقد يشتدُّ في محاربة البدع وتقديس القبور نتيجة محاربتهم له في اتجاهه الإصلاحي.

لهذا اختلف الناس في تقييم الشيخ البيحاني رحمه الله ووسَّعَ مدخله، فمنهم من ظنَّه سلفيًّا وهابيًّا (لأنه ينكر كثيراً من البدع التي أضافها الجهلة إلى مشايخ الصوفية الحقّة). وآخرون يرونه صوفيًّا معتدلاً لإشادته بمدرسة تريم الصوفية وبشيخه السيد عبد الله بن عمر الشاطري إشادة تامة متكرّرة شعراً ونثراً (وهو كذلك إذ إن بعض السلفيين المعاصرين لا يقبلون من أحدٍ اتُّهِمَ بالتصوّف قولاً ولو أتاهم بكلام الله وكلام رسوله ﷺ)، وهو يرى إقامة الاحتفال بالمولد النبوي والإسراء والمعراج ورأس السنة الهجرية ويجعلها فرصة لتعليم الجماهير دروساً من السيرة النبوية العطرة. وأصحاب المذهب السلفي يرون ذلك كله بدعة ومروقاً من الدين، لا يقبلون في ذلك صرفاً ولا عدلاً.

وينظر بعضهم إلى الشيخ البيحاني وكأنه من أعضاء حركة الإخوان المسلمين، وهو لم ينضمّ قط إلى حركة الإخوان، وإن كان معجباً بكثير من كلام

الشيخ حسن البنا رحمه الله، وظنَّ بعضهم أنه قد صار من أعضاء رابطة أبناء الجنوب، نتيجة الصلة الحميمة بينه وبين كثير من رجالاتها واشتراكه الفعلي في حفلاتها العامة وإلقائه الخطب فيها، وهو، كما تبيّن، لم يشترك في تنظيمها، ولم يكن من أعضائها، رغم صلته الودّية والوثيقة برجالاتها.

ولكنه، كما أسلفنا، اشترك في تكوين كتيبة الشباب اليمني، وعمل على وضع قانونها ودستورها وأهدافها ومنهجها عندما كان يدرس في القاهرة مع الزبيري والنعمان والجفري والصافي وغيرهم.

ولكن جهوده انصبّت على نشر العلم والتربية وبذل حياته وجهده وكلّ ما وهبه الله لهذا الهدف، لأنه كان مقتنعاً أن التغيير إنما يأتي عن طريق التربية أولاً وأخيراً وهذا كان رأي الشيخ محمد عبده ورشيد رضا في مصر، وهو ما اتّجه إليه البيحاني وإن كان أقلّ جرأة من الشيخ محمد عبده في تفسيره وفي رؤيته للمرأة المسلمة، إذ كان البيحاني، كما يتضح ذلك من كتبه وشعره ونظمه، تحفّظه الشديد إزاء خروج المرأة والتوسع في تعليمها، وتنديده الشديد بالاختلاط وما يؤدي إليه من مفاسد للأمة. ولم يكن محمد عبده بهذا التحفظ، بل كان متساهلاً في كثير من الأمور.

والخلاصة أن البيحاني لم يتلزم بمذهب بعينه سواء أكان قديماً أم حديثاً، ولم تعرف طبيعته الهادئة التعصب المقيت لرأي أو قول أو مذهب، بل كان يدعو دائماً إلى التسامح بين المسلمين وتقبّل الآراء بكل انفتاح طالما كانت مدعومة بالدليل من الكتاب والسنة.

وقد ندَّدَ البيحاني، رحمه الله، في كتبه وشعره بالتفرّق والتمزّق واعتبره داء الأمة الذي حطّمها. وكان يقول: «ويؤسفنا، والله، ما نراه من أزمة بعيدة بين علماء الدين وحملة الشريعة من الهجر والنُفرة، وهم يعلمون أثر ذلك، وما يجرّه، على الأتباع من الويل والشرور، فقد جعلوا تلاميذهم فرقاً وأحزاباً وصيّروهم

أعداءً يلعن بعضهم بعضاً، ويحكم هذا بكفر هذا، ويضلّل الجاهل منهم العالم وهم يعرفون النتيجة الحتمية لاختلاف الخاصة وتعصُّبُ العامّة»(١).

وقال: «لقد أفرط المسلمون في تكفير بعضهم بعضاً، وسفك دمائهم واستباحة أعراضهم، حتى لا ترى جماعة في مجلس واحد إلا وفيهم الرافضي والناصبي، والأشعري والمعتزلي، والسنّي والدّعيّ، وكلهم يتباغضون ويتنازعون بصورة موغورة، وأنفسٍ مغرورة، وألسنةٍ ألفت السبَّ والشتائم»(٢).

ويرى البيحاني أن أئمة هذه المذاهب مجتهدون يصيبون ويخطئون، وآراءهم ليست ملزمةً لأحدٍ ممن أتى بعدهم «والحال أن أكثر أصول مذاهبهم وأمهات كتبهم، لا تكفّر أحداً من أهل القبلة. فمتى يعودون إلى كتابهم العزيز وسنّة نبيّهم ﷺ؟»(٣).

ولذا يرى البيحاني أن المخرج من تلك الانقسامات بالعودة إلى الكتاب والسنة والتمسك بهما. ويدعو العلماء إلى الألفة وتوحيد الكلمة، وتقبّل الاختلافات في فهم نصوص الكتاب والسنّة متى كان لها مستند واضح(٤).

ويطالب بالعودة إلى الإسلام الشمولي، فليس الدين الإسلامي عبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج فقط، ولكنه أيضاً معاملات، ونظم مالية، واقتصادية، وتربوية، وسياسية، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر(٥).

---

(١) إصلاح المجتمع، ص ٣١.
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق، ص ٨٤ وص ٩٩.
(٥) المصدر السابق.

ويستغرب الشيخ البيحاني من فرقة المسلمين ودينهم التوحيد، والله قد نهى عن التفرّق والتنازع، فذلك يؤدي إلى ذهاب ريحكم واستيلاء الأعداء عليكم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦).

ورابطة الدين والإسلام أقوى من رابطة النسب والقومية والوطنية عند الشيخ البيحاني وخاصة إذا تحولت إلى دعوات جاهلية. وهو يدعو إلى الوحدة العربية والإسلامية التي لا تتحقّق إلا إذا صدقت الأخوّة الدينية.. ولن يكون لأمة الإسلام وجود ما لم يتوفر شرطان هما: وحدة الكلمة وزوال الظلم السياسي والاجتماعي[(١)].

ويرى أن الإصلاح يبدأ بإصلاح الفرد ثم الأسرة ثم المجتمع وهو أمر مترابط تمام الترابط، وذلك كله لا يتمُّ إلا بالتربية الدينية الحقيقية منذ الصغر. ويقول الأستاذ عبدالكريم قاسم في بحث «منهج الإصلاح عند الشيخ البيحاني»[(٢)]: وهذه الرؤية الفردية للإصلاح نابعة من تشبّعه بالمنهج الصوفي الذي يهتم بمعالجة النفس البشرية وإصلاحها. وهو كثير الإشارة للصوفية، ومنهجهم في الورع والزهد والتواضع، وترك الدنيا بمفاسدها، والاهتمام بالآخرة. ومن هذه المفردات ينطلق في إصلاح الفرد والمجموع بالتوجه إلى الجانب الأخلاقي إدراكاً منه لأهمية الالتزام بالقيم الأخلاقية. وكتاب «إصلاح المجتمع» هو عبارة عن حثّ على الالتزام بمكارم الأخلاق في كل فصوله بمنزع صوفي يبدأ بالدعوة إلى إصلاح النفس وتطهيرها كما يدعو الصوفية. وأسباب الفساد عند الشيخ هي: (١) الابتعاد عن تعاليم الدين. (٢) عدم الالتزام بالتقاليد الإسلامية والقومية والتأسي بالسلف الصالح. (٣) التشبه بالكفار».

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٣ – ٨٤، والفتوحات الربانية، ص ٩٣.

(٢) عبد الكريم قاسم: منهج الإصلاح عند الشيخ البيحاني، مصدر سابق، ص ٤٥ – ٤٦.

قلت: وكتاب إصلاح المجتمع عبارة عن مائة حديث اختارها الشيخ البيحاني لإصلاح المجتمع.. وكل حديث منها يشرحه الشيخ بالآيات القرآنية والأحاديث الأخرى وكلام العلماء.

ويتحدث عن فساد المجتمع ومظاهره المنتشرة فيقول: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وانتهك الناس حرمات الدين، وتعدّوا حدود الله وهزأوا بالقوانين، فالأخلاق يفسدونها، والفضيلة يقتلونها، والفواحش يرتكبونها.. كلما زاد المصلحون إصلاح جانب من هذا المجتمع الفاسد تصدّعت فيه جوانب أخرى، فكيف يصنع الواعظ والمصلح، والمصيبة الكبرى كثرة المفسدين وقلّة المصلحين»(١).

وقد استخدم البيحاني رحمه الله في سبيل دعوته إلى إصلاح المجتمع الشعر والنثر والدرس والحلقة في المسجد، والخطبة في الجامع، والخطابات العامة الجماهيرية والكتابة في الصحافة والمحاضرة والحديث في الإذاعة. ولم يترك وسيلة من وسائل الاتصال إلا وقام بها، وكان جُلَّ دعوته وجهاده في المسجد لأنه من المؤمنين برسالة المسجد في الحياة الدينية والاجتماعية وأنّ لا سبيل لنهوض المسلمين إلا بالنهوض برسالة المسجد العلمية والدعوية والاجتماعية والسياسية، وكان دائماً يقول لطلبته حديث رسول الله ﷺ:

«ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله، يتعلّمون القرآن ويتدارسونه فيهم، إلّا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وتنزّلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده، وما من رجل سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنّة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢).

---

(١) الفتوحات الربانية، ص ٩٠.

(٢) د. علوي عبد الله طاهر: البيحاني في مواجهة خصومه، ندوة الشيخ محمد سالم البيحاني، ص٥٦.

موقف البيحاني من الحضارة الغربية وقضية المرأة

كان محمد عبده من المعجبين بالحضارة الغربية، وبأوربا وبأخلاقها. والغريب حقًّا أنهم يسمونه رائد الدعوة السلفية. وهو فيما أرى أبعد الناس عن الدعوة السلفية التي جاء بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وموقفه من المرأة يناقض مواقفهم، وقاسم أمين صاحب دعوة تحرير المرأة وخروجها من بيتها وتركها حجابها، هو أحد تلاميذ محمد عبده، ولم يكن محمد عبده منكراً له. وكان محمد عبده يرى أن الثورة ضد الإنجليز عبث ولا داعي لها، وعلى مصر أولاً أن تتقن التعليم، وتبذل جهودها فيه، وأن تستفيد من أوربا في ذلك تمام الاستفادة، ثم بعد ذلك تسعى إلى الاستقلال. وكانت علاقته بالإنجليز واللورد كيتشنر حاكم مصر الحقيقي (المندوب السامي في مصر)، والأميرة نازلي، وطيدة.. وكان تفسيره للقرآن يتّسم بالجرأة الشديدة ومحاولة عقلنة المعجزات، وأنكر قصة الطير الأبابيل واعتبر ما أصاب أبرهة وجيشه ليس إلا وباء من الأوبئة.. إلخ. وأنكر معجزات النبي ﷺ الكثيرة، ما عدا القرآن الكريم الذي تحدى الإنس والجنّ به.

والنقطة الوحيدة التي يتّفق فيها محمد عبده مع الدعوة السلفية، إنكاره للبدع وتقديس القبور والأولياء، وإن كان لم يصل إلى وصمهم بالكفر والشرك والخروج من الملة، كما يفعل بعض أتباع السلفية.

والشيخ البيحاني رحمه الله يختلف عن محمد عبده في منهجه في النظر إلى أوربا، فهو يراها - رغم حضارتها المادية - منبع الشرور، وأن على الأمة أن لا تقلّد الغرب في اتجاهاته وأخلاقه لأن ذلك كله مصدر الوباء والوبال. وموقفه من المرأة يختلف تماماً عن موقف محمد عبده، فهو يرى أن تعليم المرأة يجب أن يكون بعيداً عن الاختلاط الذي هو مصدر الرذائل في رأيه. كما يرى أن سفور المرأة ليس إلا خروجاً عن تعاليم الدين. وتعليم المرأة عنده ينبغي أن يكون مقصوراً

على ما ينفعها كزوجة وأم وربة بيت ومربّية الأطفال وموجِّهتهم نحو الخير، فهي المحضن الأول، فإذا فسدت فسدت الأمة، وإذا صلحت صلحت الأمة. وكان يدعو الأمهات إلى أن يرضعن أولادهن، وقد بدأت الرضاعة تنحسر منذ زمنه، وهي اليوم أشدُّ انحساراً في بلاد المسلمين بعد أن عاد الغرب إليها قدر ما يستطيع، بعد أن تركها، ودعا العالم إلى تركها. ويرى أن المرأة ينبغي أن تتعلم شؤون دينها، وشؤون بيتها، وكيفية الحفاظ على صحة أفراد أسرتها، وكيفية إعداد الطعام المفيد والذي لا يؤدي إلى الأمراض بسبب التلوث أو الدهون الزائدة أو طريقة الطبخ أو طريقة حفظ الطعام.

وأما العمل بالنسبة للمرأة خارج المنزل فلا يؤيده، بل يعارضه ويسخر من المرأة التي تترك بيتها وأولادها، وهي تقرأ الجرائد والصحف، وتذهب إلى البرلمان!! وتنافس الرجال بالمناكب والأقدام، وتختلط بهم، فينتشر الفساد أيما انتشار. بل كان البيحاني يرى عدم إرسال البعثات حتى للبنين إلى بلاد الغرب أو غيرها ما لم يتمكنوا أولاً من معرفة دينهم والتمسك بآدابه وأخلاقه.

قال في كتابه «تربية البنين» (٩٠/ ٩١) نظماً:

واحذر من التعليم إن أضرَّا ... فرُبَّ علمٍ قد يكون شرّا
وبعثهم إلى البلاد النائية ... سيان في أوربا أو في آسيه
يعود ملحداً بغير دينِ ... وربما يعود بين البينِ
وحيث قلَّ العلماء العُمدُ ... فإنَّ علم الدين كاد يفقدُ

ويقول البيحاني رحمه الله في كتابه «أستاذ المرأة»: «لكن إذا تعلمت المرأة فاللائق بها والأصلح لها تعلم الدين وأحكامه، وتدبير المنازل، وأصول التربية، وما لا بُدّ منه لصحة الأبدان والعبادة والمعاش... ولا تزيدي من تعليمك إلا أن تكوني عضواً عاملاً فيما تقدرين عليه مُتقنة لما تباشرينه، صالحة للزواج

والأمومة، عارفة لما يتطلّب الحمل والولادة والرضاعة، والتربية، والطب، والتدبير الصالح في حُسن زيّ، وسلامة ذوق، وطهر نفس، لا عفيفة ساذجة ولا متعلّمة متهمة»[١].

«إن مهمة المرأة الأساسية تكمن في القدرة على تربية النشء – كما يرى الشيخ البيحاني – فالتربية لها شأن كبير في تفكيره، فهي السبيل إلى بلوغ الهدف المنشود، وأضمن طريق لإصلاح المجتمع»[٢].

ويقول البيحاني: «فالتي تساعد زوجها... (أي في عمل البيت وتربية الأولاد)... خير من التي تقرأ الجرائد والكتب والمقالات، وتطالب بحقّها في الانتخابات ومشاركة الرجال في مجلس الشيوخ والنواب، وهي لعمر الله لا تصلح لشيء من ذلك»[٣].

وهو يهاجم الذين يدعون إلى خروج المرأة واختلاطها بالرجال قائلاً: «.. كذبٌ وزورٌ ما يدّعيه محرّرو المرأة وأنصار السفور، وفتن ما يسوقونها إليه من مشاركة الرجال مهمات الأمور، فما لهن وللمحاماة والقضاء وميادين الرياضة ومستحمات أهل الفجور (نوادي السباحة)، وماذا يصنع الرجل بالمرأة إذا لم يكن له بالمعروف عليها نفوذ ولو كانت من أهل الحور»[٤].

وللبيحاني آراء تختلف عما سبق، فقد ذكر دور أمهات المؤمنين في العلم وتعليم الناس، وخاصة عائشة رضي الله عنها، وذكر أمثلة من نساء اليمن اللائي

---

(١) أستاذ المرأة، ص ٥٦ – ٦٠.
(٢) د. جميل المذحجي: الاتجاه السلفي عند الشيخ محمد بن سالم البيحاني، ندوة الشيخ محمد بن سالم البيحاني.. مفكراً وداعية ص ١٢٥ – ١٤٩.
(٣) أستاذ المرأة، ص ٦٠ – ٦٢.
(٤) الفتوح الربانية، ص ١٤.

اشتهرن بالعلم مثل الشريفة دهماء بنت يحيى بن المرتضى التي شرحت كتاب الأزهار (وهو من أمهات كتب الزيدية) في أربعة مجلدات، والشريفة زينب بنت الإمام المتوكل القاسم بن الحسين، وزينب الشهارية وغيرهن، ليدلّل على أهمية تعليم المرأة.

ويقول البيحاني في موضع آخر من كتابه أستاذ المرأة: «ليس في الدين ما يمنع من الاشتغال بالسياسة والمشاركة في الأمور الهامة... ما دام ذلك في حدود الشريعة، ومع العصمة والاحتفاظ بأنوثتها الطاهرة». وذكر موقف عدد من النساء المسلمات اللائي اشتغلن بالسياسة وأولهن وأعلاهن ذكراً السيدة عائشة، الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، ثم ذكر السيدة زبيدة بنت جعفر المنصور وزوج هارون الرشيد، ثم السيدة أروى بنت أحمد الصليحية (التي حكمت اليمن باسم زوجها ثم باسمها لمدة خمسين عاماً). بل يرى أن المرأة بإمكانها النزول إلى ميادين الحرب إذا دعت الحاجة لذلك»[1].

وظاهر كلامه هذا التناقض مع ما سبق، ولكن إذا دقّقنا النظر وجدنا أن لا تناقض حقيقيًّا، فوجود عالمات فاضلات في التاريخ الإسلامي أمر مشهود، وهو لا يمنع ذلك بل يدعو إليه. وما يرفضه هو الاختلاط والتبرج، وما يؤدي إليه ذلك من الفسق والفجور... والدعوة إلى خروج المرأة عارية أو شبه عارية إلى الشواطئ والبلاجات كما حدث في مصر وغيرها من بلاد المسلمين... وما قامت به المرأة هناك من تبرّج فاضح، وعملهن في الكباريهات والسينما والمسارح، وظهورهن على الملأ عاريات أو شبه عاريات في بدلات الرقص... إلخ.

(١) أستاذ المرأة، ص ٦٥.

ورفضه للدور السياسي للمرأة مبني على الأحاديث الكثيرة وشواهد التاريخ. وما ذكره عن السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها في الخروج على الإمام عليّ أمر قد ندمت عليه أشدّ الندم، ومع ذلك كانت في قمة عفافها وحجابها. ومشاركة زبيدة كانت في أعمال البرّ والخير، وأنفقت الأموال الجسام في تأمين طريق الحجّ من العراق إلى مكة المكرمة، وما قدمته من مشاريع مثل عين زبيدة، وتدخلها في شؤون الحكم مع زوجها كان أمراً نادراً. وأما الملكة أروى الصليحية، فقد كانت إحدى نوادر النساء ومع هذا فقد عُرفت بعفتها وطهارتها وهي على مذهب الإسماعيلية الفاطمية، وكانت من الدعاة إليه. وذكرها البيحاني ضمن من ذكر من نوادر النساء في التاريخ الإسلامي اللائي كانت لهن صولة وحكم.

وكان يرى – عكس محمد عبده – أن للزوج أن يجمع أربع زوجات إذا قام بالشروط المطلوبة من العدل والنفقة والقدرة البدنية. وكاد محمد عبده يمنع الزواج بأكثر من واحدة تقليداً للغرب!!

وأسباب الفساد في المجتمعات الإسلامية عند الشيخ البيحاني رحمه الله هي:

١ – الابتعاد عن تعاليم الدين الحنيف.

٢– عدم الالتزام بالتقاليد الإسلامية والعربية، والتأسي بالسلف الصالح.

٣– التشبّه بالكفار.

وكان يرى أن الحضارة الغربية جوفاء رغم ما فيها من تقدّم مادي، ولكنها حطّمت الإنسان وقيمه وأخلاقه، وكان يردّد قول الشاعر:

مدنيّـــة لكنهـــا جوفـــاء	وحـــضارة لكنهـــا أفيـــاءُ
تدعو التهتك والسفور فضيلة	ونتـاج ذاك الـشرّ والفحـشاءُ
أوحت إلى الجنس اللطيف بأنـه	هو والرجال لدى الحقوق سواءُ

ويقول في رباعياته:

سمّوك يا عصر الظلام سفاهةً عصر الضياء وأنت شرُّ الأعصرِ
وتقدَّمت فيك الحضارة، حسبما قالوا، فيا وحشيّة المتحضّرِ
وتنوّرت فيك العقول وإنّما يأتي الشقاء بزلّةِ المتنوّرِ
والعلم قد يأتي بكل بليّةٍ ويسير نحو الموت بالمستبصرِ

والمقصود بالعلم هنا العلم المادي الدنيوي ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الروم: ٧) لا العلم الحقيقي الموصّل لله والمؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

ويسخر من مقلّدي الغرب فيقول:

يدور مع الزجاجة حيث دارت ويلبس للسياسة ألف لُبْسِ
وعند المسلمين يُعدُّ منهم ويطلب سهمه من كل خُمسِ
وعند الملحدين يُعدُّ منهم وعن ماركسٍ يحفظُ كل درسِ
ومثلُ الإنجليز إذا رآهم وفي باريس محسوب فرنسي

وفي رباعية أخرى يسخر من هذا التقدم المزعوم:

تمدّنُ اليوم في حلقِ اللحى وفي حلق القفا وفي رفع السراويل(١)
وفي العناية بالشيء الجديد وفي مسح الوجوه بأطراف المناديلِ
وفي السفور وفي شرب الخمور وفي ما فوق ذلك من فعل الأباطيلِ

(١) كانوا يلبسون السراويل القصيرة فوق الركبة تقليداً للإنجليز في عدن (بسبب الحر). وعورة الرجل ما بين السرّة والركبة فلا بد من تغطيتها، ولا تجوز الصلاة للرجل إلا بذلك، وأما المرأة فبدنها كله عورة عند الأجانب.

ويقول في كتابه الفتوحات الربانية[١]: «إن المدنيّة الغربية تصرف الناس عن أمور الدين فنرفضها؟! ولا تصرفنّكم هذه المدنيّة الغربية عن تعاليمه (أي الدين) والامتثال لما فيه من قوانين».

ولكن هذا لا يمنعه من الإشادة بالمدنية الغربية في المجالات التكنولوجية والاختراعات، بل وما يوجد عند بعضهم من مكارم الأخلاق. لذا نراه يقول كلاماً مناقضاً في ظاهره لما سبق: «نحن والله معجبون بما وصل إليه غيرنا من المدنية والحضارة، معترفون بها للشعوب والأمم المتحضّرة من سيادة في الأرض وإمارة، فلو اقتدينا بهم في مكارم الأخلاق ومعالي الأمور لتقدّمنا في الزراعة والصناعة والتجارة والطب والهندسة والعمارة»[٢].

وقد حاور عبد الله باذيب قبل أن يتّجه إلى الماركسية، في مقال نشره في جريدة المستقبل التي كان يتولى تحريرها[٣]، وفي المقال ثلاث نقاط أشار البيحاني إلى أنه لم يفهم قصد الكاتب منها وهي: الأولى قوله: «ما يريد الشباب أن يحوله شيئاً خالداً تجري فيه دماء الآلهة، وسحر السماء وسرّ الأرض». فتساءل البيحاني عن هذه الآلهة التي يقصدها باذيب وعن سحر السماء وسر الأرض. وهو أسلوب يقلّد فيه الكاتب الأوربيين في كتاباتهم الأدبية، دون أن يدرك خطر ذلك على عقيدته التي انسلخ منها فيما بعد.

(١) الفتوحات الربانية، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٤-٧٥.

(٣) مجلة المستقبل: مجلة أدبية صاحبها ورئيس تحريرها عائض باسنيد، ومدير التحرير الأستاذ عبد الله باذيب، وكان اتجاه باذيب أول الأمر أدبيًّا، فانتقد أشعار الأستاذ علي لقمان والأستاذ محمد عبده غانم، وأشاد بشعر الأستاذ لطفي جعفر أمان.. ثم ما لبث أن هاجمه.

والثانية قوله: «وما زلنا نحن عبيداً لسادتنا الأولياء والتهوّس الديني والشعوذة الملتحية المعممة».

فردّ عليه البيحاني بأن العلماء بعيدون عن كل شعوذة وهم يدعون الناس إلى الرجوع إلى الدين الحق الذي جاءت به الأنبياء.. وأن هذه الدعوات في تحطيم صورة العلماء إنما تهدف لإبعاد الناس عن الدين جملة وتفصيلا.

والثالثة قوله: «فالرؤساء المهيمنون في البلاد ليسو منّا، أو أنهم لا يحملون روحنا، وهي الروح التي انحدرت معنا من صلب العدني القديم».

يردّ البيحاني على هذه الدعوة المتعصّبة لعدن وأبناء عدن التي كانت الجمعية العدنية تدعو إليها. ويسأل عبد الله باذيب: ألم يأتِ أبوك من حضرموت، وهو بهذا التعريف بعيد عن صلب العدني القديم؟ ويسخر شيخنا البيحاني من هذا التعصب المقيت.

وقد هاجم البيحاني الغرب الذي يدّعي أن أحكام الشريعة الإسلامية مجافية للإنسانية، ففيها القتل، والقطع لأيدي السُرَّاق، وجلد الزاني (غير المحصّن) ورجم المحصن، وكلها - في نظرهم - أعمال وحشية.

قال البيحاني رحمه الله للذين يقولون بأن في إقامة الحدود بالقتل والقطع والجلد غلظة وقسوة ووحشية لا تليق بحضارة اليوم، ولا تقرّها مدنية القرن العشرين، وهم الذين يقتلون الأبرياء، ويستعبدون الضعفاء، وينسفون بمخترعاتهم الجهنمية المدن العظيمة (حضر البيحاني الحربين العالميتين وعرف ما فيهما من فظائع وجرائم مهولة) والعواصم الكبيرة، وما فيها من البشر مئات الألوف، بل الملايين، لا ذنب لهم ولا مبرّر لصنيع الظلمة بهم غير الهمجيّة التي يسمونها مدنيّة، والوحشية التي قتلت في أصحابها الفضيلة:

سـموك يـا عـصر الظـلام سـفاهة عـصر الـضياء وأنـت شرُّ الأعـصرِ
وتقـدّمت فيـك الحـضارة، حـسبما قـالوا، فيـا وحـشيّة المتحـضّرِ
وتنـوّرت فيـك العقـول وإنـما يقـعُ الخـرابُ بذلّـة المتنـوّرِ
والعلـم قـد يـأتي بكـل بليّـة ويـسير نحـو المـوت بالمُستبـصرِ

«والواقع الصحيح أنها لا تُحفظ الدماء والأموال والأعراض، وتصلح البلاد ويسود فيها الأمن والاطمئنان إلا بإقامة الحدود، وقطع الأكفِّ الأثيمة، وسدّ أفواه الذين لا يعرفون ما يدخلون فيها ولا يخرجون منها. وأيّ ذنبٍ هو أعظم عند الله، بعد الشرك به تعالى، من قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ، لما فيه من إيلام المقتول، وإثكال أهله، وترميل نسائه، وإيتام أطفاله، وإضاعة حقوقه، وقطع أعماله.. ولذلك شرع الله القصاص... إلخ»(١).

وهكذا نرى البيحاني رحمه الله يدافع بقوة عن تطبيق الشريعة الإسلامية كاملة بما فيها الحدود، ولا يحاول أن يبتر كما يفعل البعض، بل يرى وجوب إتباع الشريعة في كل الأمور وخاصة في الدساتير والقوانين.

(١) إصلاح المجتمع، ص ٣٣ – ٣٥.

ندوة الشيخ محمد بن سالم البيحاني مفكراً وداعية

الرسائل العلمية التي كتبت عن الإمام البيحاني

١- كتب د. حيدر الصافح أطروحته للماجستير بعنوان: مكتب التوجيه والإرشاد اليمني وأثره في نشر الدعوة إلى الله.

وضمّن رسالته فصلاً عن حياة الإمام البيحاني اشتمل على خمس صفحات – تقدم بها إلى جامعة الإمام محمد بن سعود.

٢- كتب الدكتور أحمد هجوان رسالة الدكتوراه بعنوان الإمام محمد بن سالم الكدادي البيحاني اليماني حياته وعصره – شعره ونثره – دعوته وآثاره.

قدمها إلى الكلية الشرفية بجامعة البنجاب/ لاهور – باكستان، وأشرف عليها الدكتور ذو الفقار علي ملك رئيس جامعة البنجاب (سابقاً)، ورئيس جامعة بهاول بور (سابقاً). وناقشها د. علي عشري زايد عميد كلية العلوم بجامعة القاهرة، ود. عدنان عبد الرحمن الدوري عميد كلية اللغة العربية – جامعة بغداد.

وقد قسمت هذه الرسالة إلى قسمين الأول: حياته وعصره – شعره ونثره ودعوته... والقسم الثاني: آثار البيحاني.

٣- قدم محمد هجوان رسالة دكتوراه بعنوان: تحقيق تذكرة المعتبر في رحلة موسى والخضر تأليف الشيخ محمد بن سالم البيحاني.

٤- رسالة ماجستير للأستاذ شرف الشهاري بعنوان: البيحاني وأفكاره التربوية.

٥- رسالة ماجستير للأستاذ حسن الهاتف إلى جامعة أم درمان بالسودان بعنوان: اختيارات الإمام البيحاني (والمقصود الاختيارات الفقهية).

بعض مشايخ البيحاني[1]

م	الاسم	م	الاسم
١	أحمد بن عمر الشاطري	١٥	عبد الله علي اليماني اليدومي
٢	أحمد بن محمد العبادي	١٦	عبد الله بن عيدروس العيدروس
٣	حسن بن محمد بلفقيه	١٧	عبد الله المروعي
٤	زين العابدين بن جنيد	١٨	السيد علوي بن طاهر الحداد
٥	سالم أحمد حشوان	١٩	علوي بن عبد الله بن شهاب
٦	سالم بن حسين البيحاني «والد المترجم له»	٢٠	عمر بن علوي الكاف
٧	سعيد عمر باغريب	٢١	علي بن عبد الرحمن مشهور
٨	سلمان بلغيث	٢٢	عوض عبد الله الحداد
٩	السيد سليمان بن إدريس الأهدل	٢٣	كامل عبد الله صلاح
١٠	الشيخ صالح بن عوض حداد	٢٤	الشيخ محمد حامد الفقي
١١	عبد الباري بن شيخ العيدروس	٢٥	محمد بن سالم السري
١٢	السيد عبد الرحمن بن عبيد الله	٢٦	محمد علي باوزير
١٣	عبد الله علي العبادي	٢٧	محمد علي الجفري[2]
١٤	عبد الله عمر بن أحمد بن عمر الساطري باعلوي	٢٨	محمد بن محمد زبارة

***

(١) يلاحظ أن هذه القائمة لم تذكر أحداً من شيوخه المصريين، رغم أنه درس في الأزهر بضع سنوات، وهي مرتبة بالحروف الأبجدية. وأعظمهم أثراً فيه السيد عبد الله بن عمر الشاطري.

(٢) زميل البيحاني في الأزهر في مصر.

مؤلفات البيحاني

١- أستاذ المرأة.
٢- أشعة الأنوار على مرويات الأخبار «في مجلدين كبيرين – نظم».
٣- إصلاح المجتمع.
٤- أطيب الكلام من سيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام.
٥- إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت – مخطوط.
٦- بلدة طيبة ورب غفور.
٧- أشرطة مسجلة في مسائل متفرقة.
٨- تحفة رمضان.
٩- تربية البنين «منظومة شعرية».
١٠- تصحيح ما كتبه الغرباني في الفرائض والمناسخات – مخطوط.
١١- التعليق على منظومة بلوغ المرام لابن الأمير الصنعاني.
١٢- التعليق على منظومة هداية المريد إلى سبيل الحق والتوحيد «للعبادي».
١٣- التعليق على نصيحة المسلمين «لابن حميد».
١٤- توحيد الأهلة.
١٥- دعاء البيحاني – مخطوط.
١٦- رسالة نحو المسجد.
١٧- رباعيات البيحاني «مقتطفات في العبر والمعاني».
١٨- زوبعة في قارورة.
١٩- زيادات البيحاني على سفينة النجاة للشيخ سالم بن سمير الحضرمي.
٢٠- شفاء المصاب من لسعات العود والرباب.
٢١- الطلاق وتعدد الزوجات في الإسلام – مخطوط.

٢٢- عبادة ودين.
٢٣- العطر اليماني من أشعار البيحاني.
٢٤- الفتوحات الربانية بالمواعظ والخطب القرآنية.
٢٥- الفقه البسيط.
٢٦- كيف تعبد الله؟
٢٧- معاملة ودين.
٢٨- نصيحة إلى جميع أهالي يافع.
٢٩- الأديب الضائع – مخطوط.
٣٠- أسئلة وأجوبة مبينة.
٣١- إن الدين عند الله الإسلام.
٣٢- تاريخ المعهد العلمي بعدن.
٣٣- تتمة الزبد لابن رسلان.
٣٤- تحليل حديث فضل صلاة الجماعة.
٣٥- التخفيف على الناس والرفق بهم.
٣٦- تذكرة المعتبر في رحلة موسى والخضر.
٣٧- دروس في الفقه.
٣٨- دروس في النحو.
٣٩- دين يحل المشكلات.
٤٠- رباعيات منثورة.
٤١- ردود على مقالات.
٤٢- شوارد وأوابد من دروس البيحاني والفوائد.
٤٣- الصارم القرآني في الرد على درر المعاني.
٤٤- صفية المظلومة «قصة».
٤٥- عشر كلمات في الإسلام مطلوبة من المسلم.

٤٦- على شاطئ القرآن الكريم.

٤٧- على شاطئ الكتاب الهادي إلى السداد والفلاح والرشاد.

٤٨- الفتاوى المدونة لدى الحكمي.

٤٩- في ذمة الله يا رمضان.

٥٠- في ظلال فتح مكة وغزوة حنين.

٥١- قصة البقرة.

٥٢- كفاية العجلان في زيد بن رسلان.

٥٣- كيف أكتب عنك يا رسول الله؟

٥٤- مؤتمر العميان.

٥٥- مجموعة مقالات.

٥٦- مجمع الفوائد.

٥٧- محمد رسول الله ﷺ.

٥٨- مذكرات البيحاني.

٥٩- المرافعات.

٦٠- منظومة في النحو.

٦١- نصرة المظلوم.

٦٢- هل قابلت الملك.

٦٣- البرامج والفتاوى الدينية من إذاعات صنعاء وعدن وصوت الإسلام بمكة.

مساجد للشيعة في عدن

لقد حكم الصليحيون والزريعيون عدن (القرن الخامس إلى السابع الهجري) واليمن، وهم شيعة إسماعيلية. ومن أشهر حكامهم الملكة أروى (السيدة بنت أحمد). ومن أهم مناطقهم حراز ونجران. وأغلبهم من قبائل يام، وهي من فروع حاشد. وحاشد وبكيل هما من همدان. ولذا نجد كثيراً من أدباء وعلماء الإسماعيلية يرجعون إلى هَمْدان، والنسبة إليها هَمْداني. بينما هناك مدينة في إيران تُدعى هَمَذَان (بالذال) والنسبة إليها هَمَذَاني، فلزم التنبيه للتفريق بينهما.

ومن الإسماعيلية فرقة البهرة، وهم من الهند. وقد كانت الملكة أروى (السيدة بنت أحمد) أوصت بكثير من مجوهراتها وذهبها للدعوة في الهند. ولذا يأتي عدد منهم كل سنة إلى جبلة (مقر الملكة أروى وقبرها ومسجدها) ويزورونها، إذ إنها هي التي أمدّت الدعاة إلى هذا المذهب من مالها. وقد اعترف بها الخليفة الفاطمي كملكة على اليمن وداعية إلى هذا المذهب. وقد وضعت في الجزء الثاني فصلاً مطوّلاً عن الدولة الصليحية وعن الملكة أروى (السيدة بنت أحمد) التي كان مهرها دخل عدن، وهو مائة ألف دينار، سنويًّا طوال حياتها.

وللبهرة في عدن (كريتر) سوق كامل يُعرف بسوق البهرة. ولهم مسجد في شارع الشيخ عبد الله (خلف شارع الزعفران). ولست أدري إن كان لهم مسجد آخر في سوقهم المشهور باسمهم إلى اليوم، رغم أنه لم يعد هناك أحد من البهرة

في عدن، إذ إنهم هاجروا قبيل الاستقلال، إلا ما كان من أسرة أو أسرتين اندمجوا مع أهل عدن وأصبحوا منهم. وتُعرف بأسرة البهري.

أما الشيعة الجعفرية الإمامية، فمنهم عائلة مشهورة في عدن، هي عائلة حسن علي، ومنهم وديع حسن علي وخلف حسن علي، وقد اندمجوا تماماً في حياة عدن وصاروا من الأسر العدنية المعروفة. بينما كانت أسرة فكري، وهي إيرانية، ولم تندمج في حياة عدن رغم أن أحد أبنائها كان زميلي في المدرسة الابتدائية والمتوسطة.. ولهذا هاجروا قبل الاستقلال ولم يُعرف لهم أي أثر.

ويوجد مسجد كبير للشيعة الإمامية الجعفرية الإثني عشرية، وهو في طريق العيدروس إلى ميدان الحبيشي (ميدان كرة القدم) وقبل مستشفى الولادة (الكينين) وقبل البنك المركزي في عدن. (كان بنكاً هندوكيًّا خاصًّا) (انظر الصورة).



مسجد الإثني عشرية في كريتر، ويقع في طريق العيدروس

ولا يزال المسجد قائماً مما يدلّ على وجود بعض أفراد هذه الطائفة التي لا تزال تقوم بشأنه. ويبدو أنهم مجموعات قادمة من الهند وباكستان. أما عائلة حسن علي فقد اختفت من عدن، كما اختفت عائلات عدنية عريقة.

وهناك مسجد لمجموعة تدعى (الخوجة) وهم إحدى فرق الإسماعيلية. وقد اختفى أفراد هذه الفرقة مع حرب الاستقلال والحروب المدمرة التي تلتها. ويبدو أنهم قد غادروا البلاد مثل كثير غيرهم.

المعابد غير الإسلامية

- المعابد اليهودية ويهود اليمن
- والنصرانية
- والزرادشتية (المجوسية)
- والهندوسية في عدن

الأديان في اليمن (قبل الإسلام وبعده)

لقد شهدت عدن في عهودها الطويلة العديد من الأديان، مثلما كان في بقية أرجاء اليمن.

وقد عبد اليمنيون، ومنهم أهل عدن، الآلهة المتعددة وخاصة إله القمر والشمس والزهرة. وهو أمر كان منتشراً بصورة خاصة في العراق، وفي جميع العالم القديم.. وكانت للشمس أسماء متعددة، مثل: ذات حميم، وذات بعدن ونكرح.. إلخ.

كما كان للقمر أسماء كثيرة، منها: «ود» وهو المستعمل لدى المعينيين والأوسانيين، وعند القتبانيين «عم»، وعند الحضارم «سين»، وعند السبئيين «المقّة».

وكذلك كان للزهرة أسماء عدة، منها: عثتر وعشتروت وفينوس عند اليونان والرومان. وكانت ديانة التثليث منتشرة: الشمس والقمر والزهرة.

اليهود

وقد قصّ القرآن الكريم في صورة النمل قصة ملكة سبأ العاقلة الرشيدة، والتي اكتشف أرضها وعرشها الهدهد، فأخبر سليمان عليه السلام بذلك، ثم انتهت القصة بإسلام ملكة سبأ (بلقيس؟) مع سليمان لله رب العالمين. ودخل معها في الدين الجديد كثير من عليّة القوم ومن الشعب. وكان حكم سليمان عليه السلام في النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد.

ثم اختفت اليهودية في اليمن حتى ظهر تبّع الأقرن (الأكبر)، وهو أب كرب تبّان أسعد، في القرن الرابع والخامس بعد الميلاد، وغزا مكة والمدينة، فأخبره حبران يهوديان بأنها أرض نبيّ سيبعث من أرض العرب. فكسا الكعبة ونذر الجزور وأكرم أهلها، ثم أكرم أهل المدينة أيضاً. وانطلق إلى اليمن ومعه الحبران اليهوديان ليعلّما الناس الدين اليهودي.

ودخل عدد كبير من أهل اليمن مع دخول تبع في اليهودية، بينما بقي آخرون على دينهم الوثني وعبادة الشمس والقمر والزهرة. وفي القرن الرابع بعد الميلاد دخل قسطنطين الأول (الأكبر) في النصرانية قبيل وفاته. ثم تبعه قسطنطين الثاني (وكان أقرب إلى عقيدة التوحيد والبعد عن التثليث وعدم تأليه يسوع مع جعله المنقذ والمخلص(٣٥٠- ٣٦١) وبعث البعوث لنشر ما يعتقد أنه دين الله الحق. وممن بعثهم القسيس ثيوفيلس Theophilos (أي محبّ الإلٰه) الذي وصل إلى الحبشة التي كان ملكها قد تنصّر. ثم ذهب إلى عدن فبنى فيها كنيسة، وأخرى في عاصمة الدولة الحِمْيَرية (ظفار بالقرب من صنعاء)، ولم يمانع الملك في ذلك. ثم اتجه ثيوفيلس إلى الهند لإقامة كنيسة فيها.

وهناك إثباتات كثيرة تؤكد وجود اليهود في عدن منذ القرن الميلادي الثاني (كما تذكره الوكيبيديا).

وكان ملوك اليمن منذ القرن الرابع الميلادي يهوداً في غالبهم، ثم ظهرت النصرانية وخاصة في نجران، وتنصّر بعض ملوك اليمن، ولكن يوسف أسار (زرعة ذو نواس) كان يهوديًّا، وحاول أن يعيد اليمن كلها إلى اليهودية، وحارب النصرانية بشدّة، وذلك بسبب تدخّل الأحباش النصارى في بلاده، واستخدامهم العلاقات الدينية لمدّ نفوذهم والاستيلاء على اليمن. ولهذا فقد كان قاسياً وشديداً في محاربة نصارى نجران وهو موقف يدلّ على التعصب الشديد لليهودية، مما أدى إلى غزو الحبشة لليمن بتأييد كامل من أمبراطور

بيزنطة، وتمّ قتل يوسف أسار (زرعة ذو نواس) في إحدى الروايات، بينما تقول الرواية الأخرى إنه عندما تيقّن الهزيمة دخل بفرسه البحر ومات فيه غرقاً (حكم يوسف أسار من سنة ٥١٠- ٥٢٥ بعد الميلاد). ثم انتهى حكم الأحباش على يد سيف بن ذي يزن والفرس، وعادت لليمن أديانها السابقة (عبادة الشمس والقمر وعثتر أي الزهرة) وعبادة الأوثان، واليهودية والنصرانية.

ويقول الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب»: إن سكان عدن خليط من جنسيات وأديان متعددة وفيهم مرابون. والمرابون يقولون إنهم من نسل هارون ﵇. والواقع أن الغالبية الساحقة من يهود اليمن هم يمنيون ولا علاقة لهم نسباً ببني إسرائيل ولا هارون﵇، وإنما هم يمنيون تهوّدوا، وأخذوا طباع اليهود واشتغلوا بالربا - كما يفعل اليهود في كل زمان ومكان - (وهو ما لاحظه بعض الرحالة الفرنسيين الذين اعتبروا يهود اليمن عرباً يمنيين).

وكان يهود عدن يعملون بالربا والتجارة، ولهم تجارة مع يهود الهند ويهود مصر... وفي الجنيزة، في القاهرة (وهي مكان جمعت فيه رسائل اليهود) عدة رسائل من يهود عدن إلى يهود مصر في معاملات مالية وتجارية، وذلك منذ عهد الزريعيين، ولكن أكثر ما وجد كان منذ عهد الأيوبيين الذين حكموا اليمن والحجاز ومصر والشام، كما أن هناك رسائل من الحاخامات في عدن إلى حاخامات مصر.

وعندما احتل الإنجليز عدن سنة ١٨٣٩ استخدم القبطان هينس اليهود في التجسس وجمع المعلومات، و ذلك منذ زيارته الأولى لعدن عام ١٨٣٥ وقد أشاد في مذكراته بتعاون اليهود معه.

وازداد عدد يهود عدن من ٢٥٠ يهوديًّا عام ١٨٣٩، إلى أكثر من ألفين في فترة وجيزة، حيث جاؤوا من مناطق اليمن الأخرى بأعداد كبيرة، ثم وصل عددهم في الأربعينات من القرن العشرين إلى ثمانية آلاف يهودي، بينما عدد يهود اليمن كان قد وصل إلى أكثر من خمسين ألف، وقد تمّ تهجيرهم إلى إسرائيل،

وقليل منهم إلى بريطانيا.

ودخلت اليمن مرحلة تنافس بين الأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية والوثنية. واشتدت المعارك بين اليهود والنصارى عندما دخل بعض حكام اليمن في الدين الجديد (النصراني). وهناك العديد من النقوش التي تتحدث عن «رحمن وبنهو كرشتسن غلبن» أي الرحمٰن وابنه الغالب المسيح. وقد ذكرت بعض الأدلة في كتابي «إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن».

واشتدّ الصراع بين الملك اليهودي يوسف أسار (ذو نواس) وبين نصارى نجران الذين طلبوا مساعدة من الحبشة النصرانية، فاحتلّت أجزاء من اليمن. وهنا اشتطّ غضب يوسف أسار فأمر بإقامة المذابح المشهورة في نجران للنصارى.وانتصر عليه الأحباش وحكمها أبرهة الحبشي الذي اشتطّ هو وولده من بعده في الاستبداد بأهل اليمن، فقام سيف بن ذي يزن (معدي كرب بن أبي مُرّة) بثورته، وبمساعدة الفرس المجوس احتلّ عدن ثم احتل المناطق الأخرى من اليمن وقضى على حكم أبرهة الحبشي الذي لم تقم له قائمة بعد ذلك (انظر تفاصيل ذلك في كتابي: «إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن»).

وكان سكان عدن – كما يقول الهمداني وابن المجاور والمقدسي والطيب بامخرمة – خليط من الأجناس والمشارب والأهواء والأديان، ولكن الغالبية هي لليمنيين المسلمين السنّة.

وكان هناك تسامح ديني كبير، فاليهود يعملون بالتجارة وبالربا وبالمشغولات الذهبية، وعلاقاتهم وطيدة مع يهود مصر والعراق وفلسطين. بينما النصارى تجار من اليونان والرومان، وأهل الإسكندرية، وغالبيتهم في العصور قبل الإسلامية كانوا نصارى، ثم صار فيهم مسلمون، وغيرهم.

وكذلك كان في عدن فرس مجوس زرادشتيون من الذين هربوا إلى الهند، وأقاموا فيها جالية كبيرة هناك، وتحسّنت علاقاتهم مع بريطانيا التي احتلّت

الهند فجاؤوا إلى عدن زرافات ووحداناً واشتغلوا بالتجارة وبيع الخمر والربا ولكنهم لم يستطيعوا أن يزيحوا اليهود عن مكانتهم.

وكذلك فعل الهندوس الذين اشتغلوا بالتجارة وبوظائف الدولة. وكانت لهم مدارس ومعابد متعددة في العهد البريطاني مما سيأتي ذكره.

اليهود في اليمن (ومنها عدن)

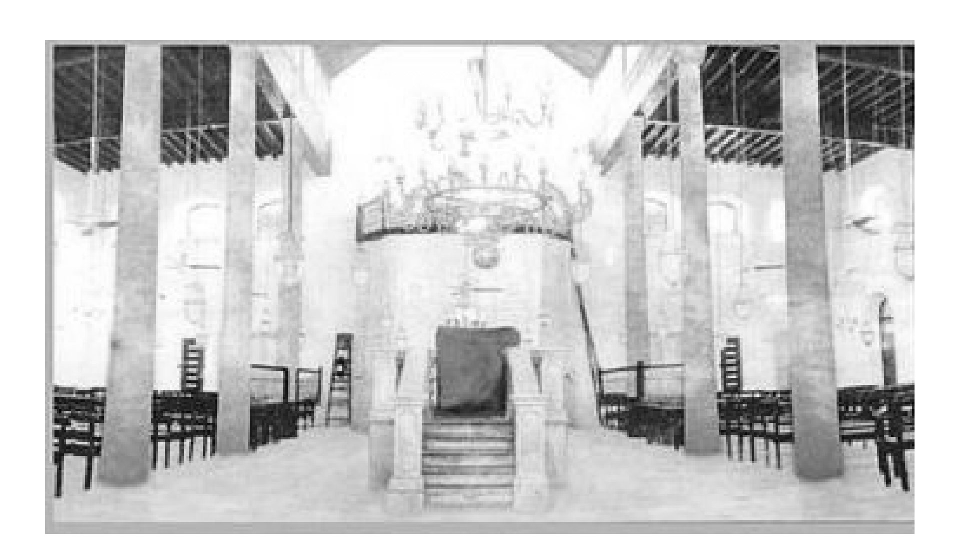


أحد معابد اليهود الصغيرة في عدن في الحي اليهودي الذي يضمّ أربعة شوارع

كان لليهود في عدن عشرة معابد منها معبد يعرف بالمعبد الكبير Great Synagogue، وكانت المعابد الأخرى صغيرة في حواري اليهود وهي (مدراش)، أي مكان لتعليم الطلبة الصغار التوراة وبعض تعاليم التلمود. وكانت لليهود أربعة شوارع رئيسة، أهمها ما عُرف باسم شارع الملك سليمان (لا يزال هذا الاسم موجوداً إلى اليوم) وهو يؤدي إلى منطقة البنوك ومدارس اليهود (مدرسة للبنين وأخرى للبنات).

واليهود موجودون في اليمن، ومنها عدن، منذ أن أسلمت ملكة سبأ مع سليمان لله رب العالمين (مما قصّه الله علينا في سورة النمل). وذلك في القرن العاشر قبل الميلاد، أي قبل ثلاثة آلاف سنة. ثم اختفت اليهودية من اليمن. ثم دخل تُبَّع الأكبر (أب كرب تبان أسعد) في اليهودية.

المعابد اليهودية في عدن



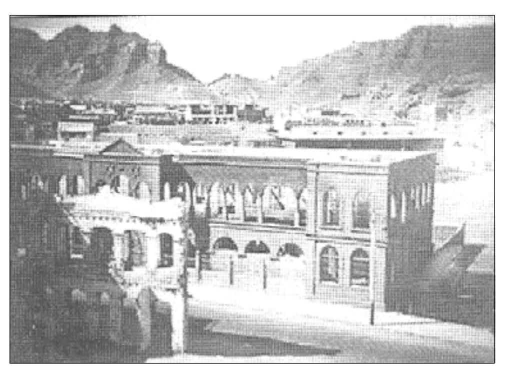
هذه صورة للمعبد الكبير The Great Synagogue في عدن المعلامة الكبيرة al – Mi'lama'l Kabira

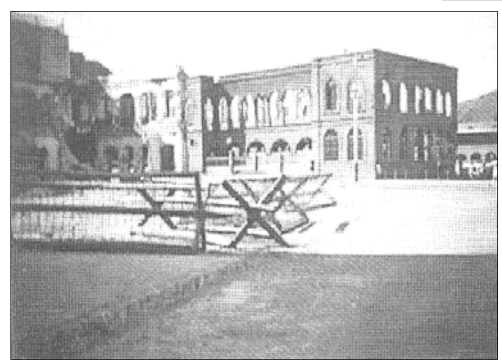
تمّ بناء هذا المعبد عام ١٨٥٦م، وكان يتسع لأكثر من ألف شخص ويقال ألفي شخص، وموقعه شارع الملك سليمان حالياً. وكان الإنجليز لا يعطون للشوارع أسماء، بل هي مناطق ثم أرقام وهو الشارع رقم ٢، المواجه لمدرسة اليهود التي أقامها الإنجليز (وهما اثنتان واحدة للبنين والأخرى للبنات). وقد تحولت بعد الاستقلال إلى المكتبة الوطنية (مكتبة عبد الله باذيب). وفي هذا المعبد الكبير كانت تقام الصلوات والاحتفالات الدينية والأعياد. وهو مركز للدراسات الدينية التلمودية وبالذات كتب موسى بن ميمون وشروحه للتوراة والتلمود والزوهار ولها مباني خاصة ملحقة بالمعبد. والصورتان أدناه أخذتا من الداخل للمعبد الكبير في عام ١٩٤٨م بعد الأحداث الخطيرة عام ١٩٤٧م

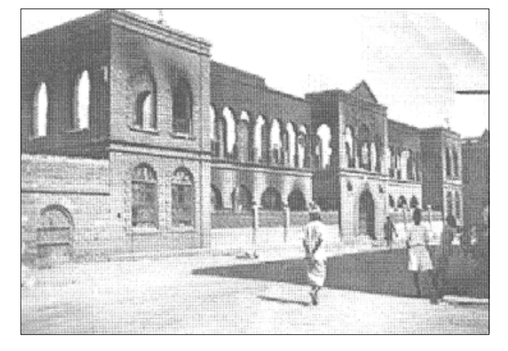


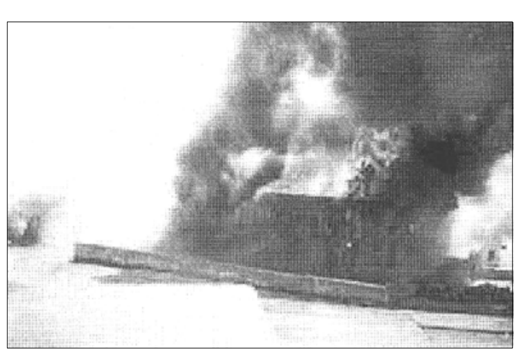

والتي أدّت إلى حرائق متعددة لأماكن اليهود. والغريب حقًّا أن الذي بدأ بإطلاق النار على منازل اليهود هم الجنود الإنجليز - كما قال بعض الذين ذهبوا إلى لندن من عدن - نشر ذلك كتاب يهود عدن The Jews of Aden الذي أصدره مجموعة من يهود عدن في لندن بقلم الكاتبة شونا بلاس ومراجعة ريكي بورمان وإصدار متحف لندن لحياة اليهود The London Museum of Jewish Life، وقالوا إن هناك خطة قسرية لإخراجهم من اليمن، ومن عدن بالذات، حيث استغلّ رؤساء الصهيونية حالة الاهتياج بعد انتشار أخبار مذابح دير ياسين وقبيه، وغيرها في فلسطين، التي قام بها اليهود ضد عرب فلسطين العزّل، فقاموا بتهييج الشارع العدني- اليمني، وانتشرت قصة قتل اليهود لفتاتين مسلمتين من سكان عدن، وبدأت القوات البريطانية نفسها بإطلاق النار في الهواء باتجاه منازل اليهود لإرعابهم، وتمّ في اليوم التالي مظاهرات صاخبة وإحراق لأماكن اليهود. وردّت عليهم القوات البريطانية بإطلاق النار الحي، وقتل مجموعة من المتظاهرين. ثم أعلنت حالة الطوارئ، وكان عدد الضحايا من اليهود ٨٢ شخصاً (ولم أجد أرقاماً عن ضحايا أهل عدن من العرب المسلمين، وقد قتل عدد منهم برصاص الإنجليز).

وقد قامت أول مذبحة لليهود في عدن عام ١٩٣٢م، ولكنها كانت محدودة بالمقارنة مع ما حدث عام ١٩٤٧م.









مجموعة من الصور توضح حرق مدرستي اليهود للبنين وللبنات في ٣ ديسمبر ١٩٤٧م، وأدّت هذه الحوادث إلى نقل آلاف اليهود من عدن بواسطة ما يسمى البساط السحري، حيث نقلتهم الطائرات البريطانية، وحيث تم نقل ما يقرب من خمسين ألف يهودي من اليمن إلى إسرائيل على مراحل متعددة.



التاجر اليهودي ورئيس الطائفة اليهودية في عدن يستقبل أمير ويلز سنة ١٩٢١

عندما قام أمير ويلز (وهو لقب لوليّ العهد في بريطانيا، والذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد الثامن) بزيارة عدن عام ١٩٢١م، أراد أن يقابل رئيس طائفة اليهود بنين مناحيم موشيه، فرفض هذا الأخير أن يذهب إلى التواهي، حيث كان الأمير، بحجة أن ذلك يوم سبت، ولا يجوز له السفر إلى التواهي (تبعد خمسة أميال عن كريتر)، وبالتالي جاء أمير ويلز بنفسه، فقابله بنين أمام مدرسة اليهود.

وقد عُرفت أسرة بنين بالثراء في عدن، وكان لهم دور كبير في ترحيل اليهود عام ١٩٤٨م. وهم من الحركة الصهيونية التي أمدّت إسرائيل بخمسين ألف يهودي كانوا في اليمن. وكان اليهود موجودين في كل مناطق اليمن تقريباً، وكان لهم نفوذ كبير في بيحان، وحاولوا إقامة دولة فيها، فقضي عليها. كما أن منهم أعداداً متفرقة في يافع، ولحج والعوالق وحضرموت، ولكن أعدادهم الكبيرة كانت في صعدة ثم في صنعاء. وبعد التهجير الذي قامت به المنظمات الصهيونية بالتعاون مع بريطانيا، ثم لاحقاً بالتعاون مع الولايات المتحدة، تم تهجير يهود اليمن إلى إسرائيل في غالبيتهم الساحقة، واختار بعض تجار اليهود من عدن بريطانيا، ولا تزال ذراريهم فيها، ومنها عائلة بنين مناحيم موشيه.

ويدّعي يهود حبّان أنهم من نسل يهوذا بن يعقوب، وأنهم وصلوا إلى عدن وما حولها ضمن فرقة من الجيش الروماني التي احتلت عدن بعد تهديم الهيكل الثاني (القرن الأول بعد الميلاد). ويقول يهود اليمن إن عزرا الكاتب والذي دعا إلى العودة إلى فلسطين في القرن السادس قبل الميلاد، لعن يهود اليمن ودعا عليهم بالفقر لأنهم لم يجيبوا دعوته.

لقد تم تهجير خمسين ألف يهودي ما بين عامي ١٩٤٩- ١٩٥٠م. فيما يسمى البساط السحري (Magic Carpet). كما تقول المكتبة اليهودية الافتراضية Jewish Virtual Library، ثم قامت الحركة الصهيونية العالمية بترحيل أعداد أخرى إلى عام ١٩٦٢م عندما قامت ثورة أكتوبر ١٩٦٢م، وبدأت الحرب الأهلية بين الجمهوريين والملكيين، فتوقفت حركة النزوح. وبقيت أعداد من اليهود وخاصة في منطقة قبائل حاشد، وفي صعدة، ومجموعة قليلة في صنعاء ذاتها.

وأدى عدم الاتصال بهؤلاء اليهود إلى دخول عدد منهم في الإسلام، كما تقول المكتبة اليهودية على الشبكة العنكبوتية (بواسطة بحث جوجل). ولكن الولايات المتحدة وبريطانيا والمنظمات الصهيونية سرعان ما تداركوا الخطر (أي خطر تحول اليهود إلى الإسلام) فأرسلوا لهم أحباراً مع نشرات وكتب دينية وأموالاً، ولم تمانع حكومة الثورة في ذلك، كما تقول المكتبة اليهودية، وبقي معبدان يهوديان (Synagogues) في (Saigaya) و(Amlah). ولا يسمح الدين اليهودي لأي من أفراده أن يأكل من ذبائح المسلمين أو أي من طعامهم، بينما الإسلام يسمح للمسلمين بذلك. كما أن الدين اليهودي يحرّم تحريماً تامًّا الزواج ما بين اليهودي أو اليهودية وأي مسلم ومسلمة، وبالتالي فإذا أحبّت يهودية مسلماً فإنها تهرب من أهلها وتعلن إسلامها وتتزوج المسلم (وقد حدث هذا كثيراً في عدن، ونعرف عائلات تكونت من هذه الزيجات كما حدث في صعدة وريدة وغيرها).

وتقول المكتبة اليهودية (على النّتّ) أنه تمّ تهجير أربعمائة يهودي إلى إسرائيل في الآونة الأخيرة (كان آخر تحديث لها في ٢٠١٠م).

وفي عام ٢٠٠١م رشح حزب المؤتمر اليهودي إبراهيم عازر Ibrahim Ezer لعضوية البرلمان بموافقة الرئيس علي عبد الله صالح، ولكن الانتخاب لم يتم.

وفي عام ٢٠٠٨م قتل الرابي (الحاخام) موشيه ياش نهاريا Moshe Yaish Naharia من قبل متطرف إسلامي. وتم القبض على الجاني ومحاكمته. وقد قام الرئيس علي عبد الله صالح بتجميع اليهود المتبقين، في ريده وغيرها، في صنعاء بعد أن أعطاهم مساكن وأراضي في إحدى ضواحي صنعاء.

وفي عام ٢٠٠٩م تم إجلاء ١١٠ من أفراد اليهود وإعادة إسكانهم وتجميعهم، وقد كلف ذلك قرابة مليون دولار.

وسمحت الحكومة اليمنية لليهود اليمنيين الذين هاجروا إلى إسرائيل بزيارة اليمن، ورتبت لهم تلك الزيارات، واستقبلت الحكومة الفنانين منهم، وخاصة المغنية الإسرائيلية اليمنية الأصل (عفراء حسن يحيى هزاع). واشتهر من يهود اليمن المغنيات دانا العالمية وساندي بار.

ولم تبدأ الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام ١٩٤٨م، وإنما بدأت – كما تقول سارة سيزمكويز (Sarah Syzmkoweiz) في مقالها رحلة في تاريخ اليهود في اليمن المنشور في المكتبة اليهودية (Jewish Virtual Library) – في عام ١٨٨٢م، ولكن الحكومة الإمامية اليمنية الزيدية تنبّهت لذلك، ومنعت الذهاب لفلسطين عام ١٨٨٣م، فتحايل اليهود على ذلك بالرحلة إلى عدن ومنها إلى فلسطين (كانت عدن تحت الاحتلال البريطاني الذي سهّل الهجرة اليهودية في جميع الأوقات).

وقد زادت هذه الهجرة في الأعوام ١٩٠٨و١٩١١و١٩٢٩و١٩٤٣م، ولكنها وصلت قمّتها ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٠م حيث تمّ تهجير الغالبية الساحقة من يهود اليمن إلى إسرائيل.

وقد بلغ عدد اليهود اليمنيين في إسرائيل عام ٢٠٠٩م أكثر من ثلاثمائة ألف وذلك بسبب التكاثر والتزاوج، إذ إن يهود اليمن من أكثر اليهود تزاوجاً وتوالداً في إسرائيل، حيث تضاعف عددهم من خمسين ألف سنة ١٩٥٠م إلى أكثر من ثلاثمائة ألف في بداية القرن الواحد والعشرين... ويشتكي يهود اليمن في إسرائيل من سوء المعاملة ومن سرقة عدد من مواليدهم لإعطائهم للعائلات الإشكنازية القادمة من الغرب والذين يعانون من قلة الأطفال.

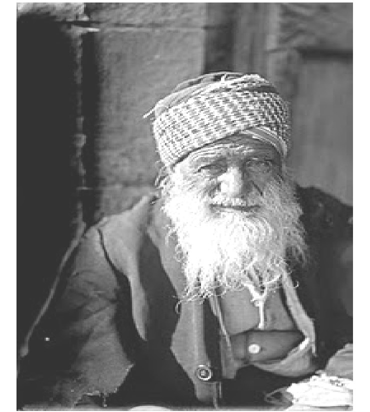
ورغم ادعاءات اليهود بأن الأئمة في اليمن كانوا يضطهدون اليهود، ولا يسمحون لهم بأن يبنوا بيوتاً أعلى من بيوت جيرانهم المسلمين، كما لا يسمحون لهم بتولي مناصب الدولة، ولا بأن يبنوا معابد جديدة، إلا أن سارة سيزمكويز الإسرائيلية تعترف بأن اليهود اليمنيين عاشوا مثل بقية اليمنيين في عهد الإمامة معزولين عن العالم. ولهذا كانت ثقافتهم وطريقة معيشتهم ولباسهم وعاداتهم مثل بقية السكان من أهل اليمن. كما تقول إن الحاخام (الربي) شالوم بن أهارون Rabbi Shalom ben Aharon تولى دار سك العملة (الريالات) وتولى الإشراف على ميزانية الدولة وذلك في القرن الثامن عشر الميلادي، كما سمح الأئمة ببناء معابد جديدة أو تجديد معابد قديمة لليهود.

وعمل اليهود في اليمن (بما فيها عدن) في صياغة الذهب. وكانت معظم أماكن الصياغة يهودية، ثم قام الهندوس باحتلال أماكنهم في عدن بعد عام ١٩٤٨. كما عملوا في المناطق الزراعية (صعدة وعمران) بالزراعة، وعملوا أساساً في التجارة والمعاملات الربوية، كما هو شأن اليهود في كل زمان ومكان.. وعملوا في صناعة الخمور وترويجها وبيعها في عدن.



صورة نشرتها الوكيبيديا في بحثها عن «يهود اليمن» لعروس يهودية إسرائيلية من أصل يمني أصرّت على لباس العروس اليمنية اليهودية بكامل زينتها ومجوهراتها في إسرائيل عام ١٩٥٨م. وهي مشغولات ذهبية وثياب مزركشة ومجوهرات أتوا بها من اليمن وصنعها صاغة يهود يمنيون

كما اشتغلت بعض اليهوديات الجميلات في عدن في مراقص الإنجليز واشتهرت إحداهن بالرقص الشرقي وذلك في بداية القرن العشرين. وكان لها نفوذ على كبار الضباط والمسؤولين الإنجليز.



صورة شيخ يمني يهودي في بداية القرن العشرين. ومن الصعب جداً أن تفرّق بينه وبين أي شيخ يمني مسلم في تلك الفترة، حيث أن اللباس واحد والعمامة واحدة، بل والأكل والشرب متشابه، بل واللهجة واحدة

الكتب الدينية

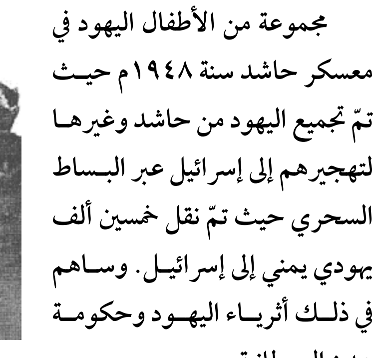
أهم كتبهم الدينية هي التوراة وبالذات ترجمة سعديا جاون للتوراة إلى اللغة العربية (المقصود الأسفار الخمسة) وخمس مجلات (من أسفار العهد القديم). وكتاب سعديا جاون للصلوات. واعتمدوا كتب موسى بن ميمون وشرحه للتوراة وشرحه للتلمود. ويوجد كتاب يسمى التاج بالعبرية وهو نسخة مسورية من التوراة التي نسخت في القرن العاشر الميلادي، وعلى هذه النسخة الفريدة تعليقات وهوامش باللغة العربية. كما يوجد في عدن صلوات وطقوس من علماء بابل اليهود، وخاصة احتفالات عيد سكوث التي كتبها سعديا جاون.



يهـودي يمنـي يـنفخ بـالبوق (الشوفار) وهو الذي يستخدم لـديهم للنداء للـصلاة. والـصورة أخـذت في عدن في ثلاثينيات القرن العشرين

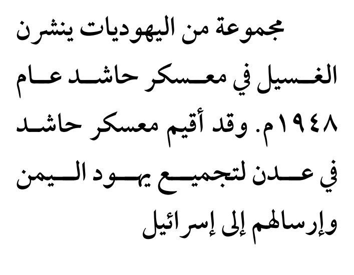


يهـودي يمنـي مـن أواخـر القـرن التاسع عشر الميلادي بعد دخوله عدن.



مجموعة من الأطفال اليهود في معسكر حاشد سنة ١٩٤٨م حيـث تمّ تجميع اليهود من حاشد وغيرهـا لتهجيرهم إلى إسرائيل عبر البـساط السحري حيث تمّ نقل خمسين ألف يهودي يمني إلى إسرائيـل. وسـاهم في ذلـك أثريـاء اليهـود وحكومـة عدن البريطانية





مجموعة من اليهوديات ينشرن الغـسيل في معـسكر حاشـد عـام ١٩٤٨م. وقد أقيم معسكر حاشـد في عـدن لتجميـع يهـود الـيمن وإرسالهم إلى إسرائيل





صورة لمجموعة من يهود عدن بما فيهم ممرضة وطلبة. وقد قاموا بمساعدة يهود اليمن (حاشد) في عمل تطوعي في معسكر حاشد عام ١٩٤٨م

ممرضة يهودية متطوعة في معسكر حاشد عام ١٩٤٨م





حفلة وداع للممرضة سلونيم التي غادرت مع مجموعة حاشد إلى إسرائيل عام ١٩٤٨م

وقد اشتهر يهود اليمن وبالذات يهود عدن باتصالاتهم الواسعة باليهود في مصر والعراق والشام وفلسطين وفارس. ولهم مدارس وكتب خاصة بهم، وعُرف منها مدراش ها جادول المنسوب إلى داود عمران العدني (القرن الثالث عشر الميلادي) وهو دراسة للأسفار الخمسة (التوراة) من تعاليم التلمود، وينقل عن الترحوم والكبالا Midrash ha-Gadol of David Amran Al-Adani. كما اشتهر منهم الطبيب يحيى زكريا بن سلومون الذي صنّف كتاباً دينيًّا سنة ١٤١٣- ١٤٣٠م احتوى على الأسفار الخمسة (التوراة Pentateuch) وسفر المراثي مع شرحها. وفي عام ١٤٨٤- ١٤٩٣م قام داود العلواني David al-Lawani بإصدار «المدراش الوجيز المغني» Midrash al-Wajiz al-Mughni وكلاهما من عدن. وكثرت الكتب اليهودية الصادرة في عدن في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. وهناك رسالة من رئيس اليهود في عدن واليمن «قدمون بن يفتر بن بندر» إلى الحاخام «هلغون بن نثانيل هلفي» في الفسطاط في مصر (موجودة في الجنيزة في القاهرة) وتوضح العلاقات الدينية بين الطائفتين اليهوديتين في اليمن ومصر.

وكانت عدن هي المركز الأول والمسيطر على اليهود الموجودين في الهند وسيلان وغيرها، بل كانت القضايا تعود إلى المجلس القضائي اليهودي في عدن من أكثر من عشرين ميناء منتشرة في الهند وسيلان وشرق آسيا. ويحكم فيها السنهدرين اليهودي في عدن[١]. كما كان تجار عدن اليهود يرسلون الأموال إلى مصر وفلسطين وبابل لدعم المعابد اليهودية وذلك من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

---

(١) *The Jews of Aden*, The London Museum of Jewish Life and kadimah Youth Movement, London .

وقد عرف يهود عدن بأنهم مولعون بالكتب العبرية وأسهموا بشكل واضح بالعناية بالأكاديميات الدينية في العراق وفلسطين، مزوّدين إياها بتلك الكتب، بما في ذلك أعمال موسى بن ميمون (ميمونيدز)[١].

واشتهر من عدن، في القرن الحادي عشر الميلادي، التاجر الكبير أبو علي حسن بن بندر[٢] (اسمه اليهودي سارها كهيلوت) وكان رئيس الجماعات الدينية في عدن واليمن، وتولى ابنه منصب ناجيد (أي رئيس) يهود اليمن. وكاد هذا المنصب أن يكون حكراً ليهود عدن في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وقد وجد أن ١٥٠ مخطوطاً من مخطوطات الجنيزة بالقاهرة هي رسائل من يهود عدن إلى نظرائهم يهود القاهرة، وأغلبها يتعلق بمعاملات تجارية، ولكن بينها رسائل دينية بين الحاخامات.

وكانت الدراسات الدينية اليهودية في عدن متقدمة، فبالإضافة إلى المعبد الكبير أو المعلامة الكبيرة كانت هناك العديد من المعابد التي يدرس فيها كتب التوراة والمجلات والزوهار والتلمود وشروح ابن ميمون عليها، وتعليقات سعديا جاون وغيره.

وهناك مبنى (ياشيفا Yeshiva) يدعى «توراة هاميتزفا » (Torah ve Hamitzvah) ملحق بالمعبد الكبير. وفيه تتم دراسة الزوهار وشولشان عروش (Sulchan Aruch) وتيكون هاتزوت (Tikon Hatzot) و«قانون إسرائيل» (The Law of Israel) (وهو كتاب ديني ولا علاقة له بقانون دولة إسرائيل) وكتاب «عين يعقوب» (Ein Ya'akov) الذي صنّفه يعقوب حبيب.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نجد أن اليهود في العالم الإسلامي كانوا يتسمّون بأسماء عربية إسلامية ما عدا اسم محمد وأحمد. وكان ذلك كثير الظهور في الأندلس والعراق ومصر والشام، إلخ. كما كان مقابل كل اسم عربي إسلامي اسم خاص يُعرف به بين اليهود.

ويوجد في معبد الفارحي في عدن (Al Farhi Synagogue) نسخة قديمة من مخطوط التوراة المعروفة توراة الفارحي Al-Farhi Torah، وفي معبد شمويل نسيم في عدن كانت تُدرّس كتب التلمود والتوراة حتى الأربعينات من القرن العشرين.

وهناك «معلامة هانوكه» التي أسسها موشيه هانوكه هالفي الذي توطّن عدن بعد أن هاجر إليها من أوربا، وكان يستورد الكتب اليهودية المقدسة الجديدة من أوربا. وفي احتفالات رأس السنة (روش ها السنة) لعام ١٩٢٤م أقيم معبد جديد في عدن يدعى سكات شالوم Sukkat Shalom والذي اشتهر محليًّا باسم معلامة سليم (كلمة المعلامة مشهورة في اليمن وتعني المكان الذي يتعلم فيه الطلبة، وخاصة (الصغار) منهم.

وكل الكتب الدينية في اليمن كانت مخطوطة تكتب باليد، ولكن المطبعة أدخلت إلى عدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وكانت تطبع الكتب الدينية اليهودية بالعبرية وبالحرف العربي أيضاً.

وقد ظهر في عدن كتاب (نهلة (نحلة) يوسف) (Nahalat Yosef) عام ١٩٠٦م وقد صنّفه الرابي شمويل بن يوسف (حفيد الموري جوشوا الديّان الثالث في عدن). ويحتوي هذا الكتاب على جميع الطقوس الدينية اليهودية والتي كانت تمارس في عدن منذ الانتهاء من تلمود أورشليم في القرن الخامس الميلادي إلى العصور الحديثة.

وكان في عدن «بيت الدين» وهو المرجعية الدينية لليهود. ولا يزال يوجد في بريطانيا وغيرها ما يسمّى «بيت الدين» الذي يعتبر المرجعية الدينية، وخاصة لليهود الأرثوذكس.

ويشرف على بيت الدين رئيس أحبار اليهود الذي يشرف أيضاً على المعابد اليهودية، وكان في عدن ما بين ستة إلى عشرة معابد وأكبرها هو «ماجن إبراهام»

وهو المعبد الرئيس (سبق أن عرضنا صوراً له) ويستوعب أكثر من ألف مصلي. وفيه مكتبة تسمى عادة تابوت العهد (وهو أمر يرجع إلى عهود قديمة حيث كانوا يحتفظون بالتوراة في تابوت العهد). وكان تابوت العهد في عدن يحتوي على ٢٧٠ من أسفار التوراة (كثير منها مكرر). وتكتب عادة بالعبرية أو بالحروف العربية. وعليها شروح أيضاً باللغة العبرية أو العربية.

وهناك اهتمام خاص لدى يهود اليمن بشخصية دينية اشتهرت بالأشعار الدينية التي كان يكتبها بالعربية والعبرية وهو شالوم الشبزي المولود في شبز باليمن في القرن السابع عشر الميلادي. وكانوا يعتبرونه صدّيقاً (Tzaddick) ويسافر يهود اليمن لزيارة قبره من أماكن مختلفة. وأما أشعاره فكانت تنشد في المحافل الدينية وفي البيوت. وفي بداية القرن العشرين إلى نكبة ١٩٤٧م كان يهود عدن يحجّون إلى ضريحه. وقد قام يهود عدن بتلحين قصائده وإنشادها في المحافل، وفي الزواجات، وفي جميع الاحتفالات. ولا يزالون يفعلون ذلك في تجمّعهم في لندن. ويعتبرون ذلك من تراثهم الديني الأصيل[١].

ويقول كتاب يهود عدن[٢]: أن الموسيقى والغناء كانت جزءاً مهمًّا من حياة اليهود في عدن. ولهم أغاني مختلفة دينية واجتماعية، وأغاني الحب والعواطف.. ولكن أشهر القصائد التي تم تلحينها هي قصائد شالوم الشبزي.

وكانت عائلة بنين موسى الثرية مسؤولة عن المعابد والمدارس اليهودية ويسمى رئيس اليهود (ناسي)، وهو من هذه العائلة. ومن واجباته أن يمثل الطائفة اليهودية لدى حكومة عدن البريطانية، وأن يساهم في الإنفاق المالي للعناية بالجماعة وأن يوفر التعليم والسكن لليهود الفقراء، وأن يشرف على الجمعيات الخيرية وبيت الدين، وبالتالي كان هو المسؤول الأول في حياة يهود

---

(١) *The Jews of Aden*, The London Museum of Jewish Life.

(٢) المصدر السابق.

عدن (لم يكن منتخباً بل كانت ثروة الأسرة واهتمامها الديني مصدر سلطتها). كما يقول كتاب يهود عدن. وكانت هذه العائلة تملك نصف بيوت عدن وتؤجرها، كما تشتغل بالربا وبيع الخمور... إلخ.

ويذكر يهود عدن الذين يعيشون في لندن أن حياتهم في عدن كانت أفضل من حياتهم في لندن أو في إسرائيل التي هاجر إليها بعضهم وغادروها إلى لندن، رغم أن عدن لا تقارن بلندن في إمكانياتها، إلا أن الحياة كانت سهلة ورغيدة، وكل شيء رخيص في عدن. يقول أحدهم: «لقد كانت عدن عالماً مختلفاً، عالماً خاصًّا بهذا القرن الأخير (العشرين)، ولكن في الجانب الآخر عاش الناس في عدن حياة رغدة طيبة، بالرغم من أن بعض الناس (من اليهود) كانوا فقراء جدًّا، إلا أنهم عاشوا في راحة.. الطعام كان دائماً متوافراً ورخيصاً.. لم يكن شيئاً غالياً في عدن بما في ذلك السيارات. لقد كانت حياة ميسّرة سهلة، لأنها كانت منطقة حرّة خالية من الضرائب. لقد كانت حياتنا في عدن رائعة ممتعة ومدهشة.. وكان مجتمعنا أكثر تقارباً وموّدة.. كان مجتمعاً دينيًّا حقيقيًّا وكنا مترابطين فيما بيننا. إذا مات أحدٌ منا اهتزّ لأجله الجميع.. كان الدين هو المبدأ الرئيسي لوجود الجماعة اليهودية في عدن. وقد شكّل هذا الرابط دورة الحياة في عدن. وكان المعبد هو نقطة الارتكاز في مجتمع الجالية اليهودية في عدن. وكان كثير من الرجال يذهبون للصلاة في المعبد يوميًّا. وأما يوم السبت فيذهب الجميع إلى المعبد.. ولم يكن هناك أي محلّ يفتح أو سيارة تتحرك في الحيّ اليهودي في عدن. وكان يوم السبت يُراعى بصرامة، حتى إنه عندما زار عدن أمير ويلز عام ١٩٢١م وطلب أن يجتمع برئيس اليهود في التواهي (تبعد عن عدن كريتر خمسة أميال فقط) اعتذر رئيس اليهود بسبب يوم السبت، فما كان من أمير ويلز إلا أن أتى بنفسه إليه (ذكرنا قبل ذلك هذا الموضوع مع صورة له).

وكان العرب المسلمون يهدون الهدايا لليهود في أعيادهم والعلاقات ودية

جدًّا حتى عام ١٩٤٧م عندما حصلت المذبحة لليهود. وكان وراءها للأسف جنود بريطانيا الذين كان من المفروض أنهم أتوا للحفاظ علينا!!

ويقول كثير من يهود عدن أنهم يتمنون العودة إلى عدن ويحنّون إليها.



بنجلة الشيطان (مركز الماسونية القديم في عدن- المعلا) وقد أُعيد بناؤه، ثم صار مقر الحزب الاشتراكي (الشيوعي) في عدن ومقر اللجنة المركزية للحزب الحاكم.

النصارى في عدن

لقد كان في عدن نصارى منذ أن قام ثيوفيلس Theophilis ببناء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار اليمنية بإذن من الملك الحِمْيَري وذلك سنة ٣٤٥م. وكان التجار من اليونان والرومان الذين تنصّروا يزورون عدن للتجارة، وكانت لهم كنيسة خاصة بهم دون أي ضغط من أي جهة.

واختفت المسيحية من اليمن بظهور الإسلام، مع بقاء أفراد قلائل من نصارى نجران، وكان تحوّلهم إلى الإسلام طوعيًّا. بينما استمر كثير من اليهود في اليمن في الاستمساك بدينهم وتطبيق شعائرهم.

وكان في جبال سقطرى مجموعة من النصارى الأريوسيين الذين هربوا من اضطهاد القسطنطينية وروما. وبقوا فيها إلى العهد البرتغالي في بداية القرن السادس عشر الميلادي. ثم لمّا أصرّ البرتغال على تحويلهم إلى الكاثوليكية انضموا إلى المسلمين في مقاومة الاحتلال البرتغالي، وتحوّلوا جميعاً إلى الإسلام. وهو من عجائب الزمن، حيث إن الضغط الكاثوليكي هو الذي حوّلهم إلى الإسلام لسماحته.

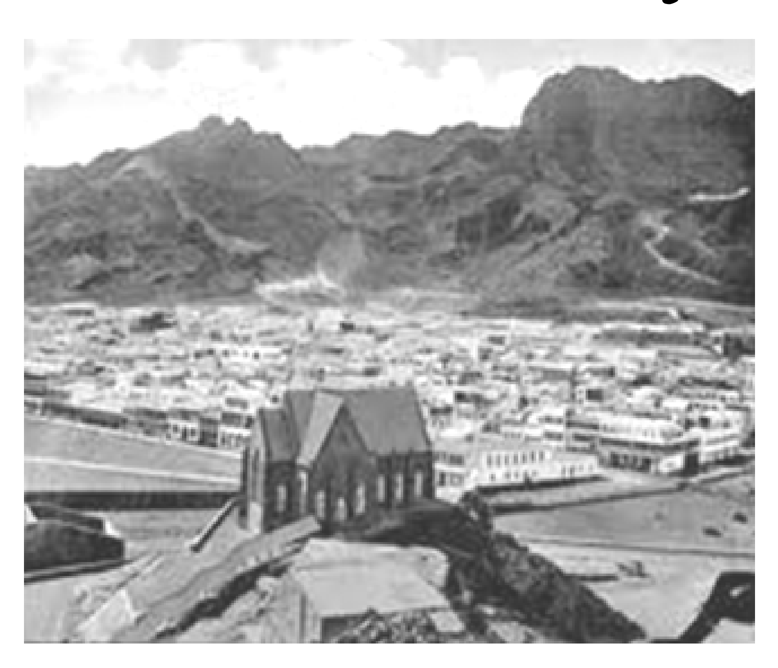
وقد سجل المستشرق والرحالة نيبور في رحلته إلى اليمن انطباعه عن تسامح اليمنيين الديني مع اليهود والنصارى والهندوس، ولكن لم يكونوا يسمحون للهندوس بحرق جثث موتاهم.

وفي البريقة كنيسة قديمة في منطقة صلاح الدين تم تشييدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بالقرب من معسكرات الإنجليز، وبرجها

مطلي بالنحاس ويوجد بها جرس كبير.

وأُعيد تأهيل كنيسة رأس مربط في التواهي عام ١٩٩٥م وبها ملحق عيادات للنساء والأطفال لمحاولة غوايتهم وتنصيرهم، كما أن بها مستشفى صغير لأمراض العيون. وهي خدمات طبية تقدم مع الإنجيل لمحاولة التنصير.

الكنائس



كنيسة سانت ماري

لقد بُنيت هذه الكنيسة عام ١٨٧١م على نهاية جبل المنصوري المطل على كريتر - كما يبدو في الصورة - وكانت تدعى كنيسة القديسة ماري ثم تحولت إلى كنيسة إنجليكانيكية، ثم قام الإنجليز بجعلها مقرًّا للمجلس التشريعي في عدن بعد أن فقدت وظيفتها الدينية، ولم يعد يرتادها أحد.

وأول من قدم إلى عدن من النصارى القسّ الهندي الأصل من مدينة ديو، الآريوسي المذهب والذي يُدعى ثيوفيليس «Theophilis»، أي محبّ الإلٰه

وذلك سنة ٣٤٥م، وقيل بل سنة ٣٥٦م. وقد قام هذا القس ببناء كنيسة في عدن وكنيسة في ظفار الحِمْيَرية (القريبة من صنعاء). وكان انتشار النصرانية محدوداً رغم أن مملكة أكسوم (الحبشة) حاولت احتلال اليمن في عهد الملكة بلقيس بنت الهدهاد (وهي غير الملكة بلقيس الأولى في عهد سليمان والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم كملكة سبأ دون ذكر اسمها).. وقد سمح الملك الحِمْيَري لثيوفيليس ببناء الكنيستين إحداهما في عدن لوجود تجار من اليونان نصارى، وفي ظفار لوجود وفود رسمية من نصارى الحبشة وغيرها.. ونصارى اليمن من المذهب الموحد الأريوسي.



صورة أخرى لكنيسة سانت ماري المطلة من فوق التل على عدن، وتحتها ميدان البنوك وشارع الملكة أروى، وموقعها استراتيجي. وعلى يمينها أقامت الإرسالية الكاثوليكية كنيسة البادري ومدرسته التي تدعى مدرسة كنيسة سانت جوزيف

وقد دخلت المسيحية في اليمن قديماً منذ عهد التبابعة. وذكر جواد علي في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ج٢/ ٥٦٨ وحسن صالح شهاب «عدن فرضة اليمن» كتابه بالمسند بتاريخ ٤٦٠ ميلادية جاء فيها اسم شرحبيل يكف ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم (طودم) أي الجبال وتهتم (أي التهائم) وفيه عبارة «رحمنن وبنهو كرشتسن غلبن» (أي الرحمٰن وابنه المسيح الغالب). وكذلك كان الملك حسّان بن أبكرب أسعد الكامل وشرحبيل يعفر أبكرب والملك ذي أرا أمر أيمن، وكلهم كانوا نصارى، واستمرت النصرانية مع اليهودية طوال القرن الخامس الميلادي، ونصارى نجران قصتهم مشهورة خلّدها القرآن الكريم في سورة البروج. ولهذا كانت في اليمن: اليهودية والوثنية والنصرانية، ثم لما جاء الإسلام دخل أهل اليمن أجمعين في الإسلام إلا بقايا نصارى نجران الذين بقوا لفترة ثم تحوّلوا إلى الإسلام. ويهود اليمن الذين بقوا على دينهم ما عدا أفراد يسلمون من حين لآخر.

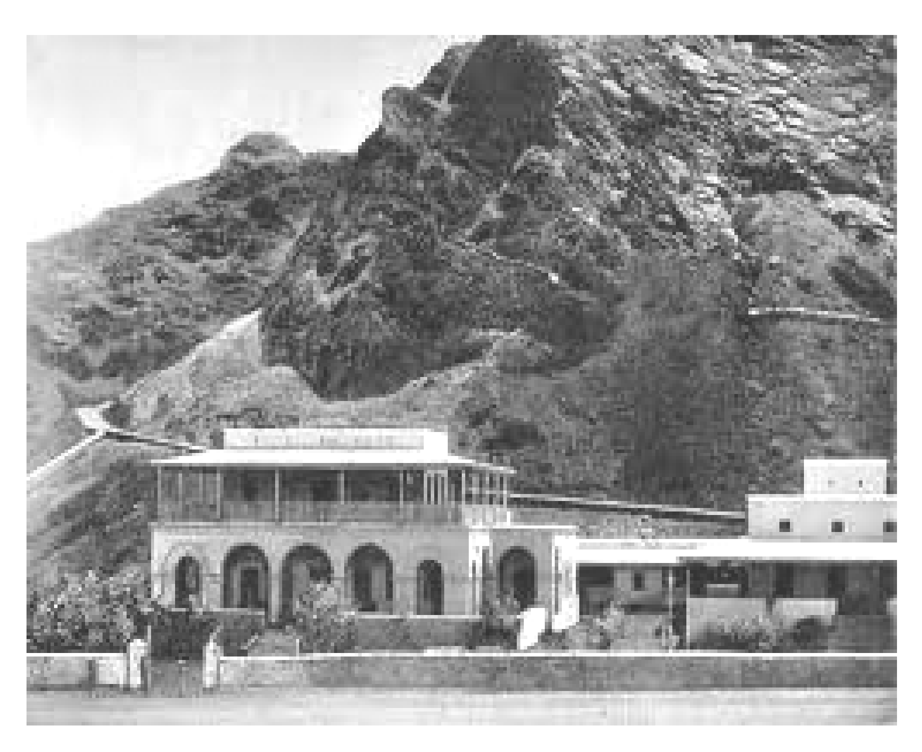
كنيسة سانت جوزيف

وهي كنيسة كاثوليكية تم بناؤها عام ١٨٥٠م في كريتر، على طريق الملكة أروى، وهي تقع تحت على يمين كنيسة سانت ماري وأسفل منها بالنسبة للخارج من كريتر في طريقه إلى باب عدن (العقبة). وفيها مدرسة خاصة للبنات ومدرسة للبنين وتدرّس باللغة الإنجليزية. ويشرف عليها الرهبان (بالنسبة للبنين) والراهبات (بالنسبة للبنات). وتقوم هذه الكنيسة بأخذ اللقطاء، ومن لا عائل لهم من الأطفال وتنصرهم وتعمّدهم، وفي هذا الصدد نجحت في مهمتها. أما تنصير الطلبة فحسب علمي لم ينجح قط، بل وعلمت أن الكنيسة لم تكن تحاول ذلك خشية غضب الأهالي وثورتهم.

وهناك العديد من الكنائس في التواهي حيث يعيش أغلب الموظفين الإنجليز والأجانب وشركات البواخر. ومنها كنيسة سانت أنتوني في رأس مرباط في التواهي. وهي موجودة إلى اليوم. وقد قامت بافتتاح عيادات للنساء والأطفال. وهذا أمر منتشر في الكنائس حيث التركيز على هذه الشريحة من السكان في محاولة التنصير.



كنيسة سانت أنتوني الإنجليكانية في رأس مرباط في التواهي



المعبد الفارسي المجوسي الزرادشتي في كريتر في لحف جبل شمسان بالطويلة

الزرادشتية (المجوس)

كان الفرس (المجوس) قد دخلوا اليمن منذ عهد سيف بن ذي يزن الحِمْيَري الذي ثار على حكم الحبشة واستبدادهم وحكم أبرهة وابنه أكسوم من بعده، ثم مسروق الابن الثاني لأبرهة. وقد اختار الثوار سيف بن ذي يزن، فذهب أولاً إلى القسطنطينية فرفض القيصر أن يمدّه بالرجال أو السلاح للتحالف بين بيزنطة والحبشة، فذهب إلى ملك فارس كسرى أنو شروان سنة ٥٧٤م فأمدّه بالجنود وبعض المساجين. فذهب سيف بن ذي يزن إلى عدن مع القوات الفارسية، وقامت معركة حامية قتل فيها ملك الحبشة مسروق.. ودخل وهراز قائد الفرس وسيف بن ذي يزن عدن ثم سقطت صنعاء بعد ذلك.. وكان من الطبيعي أن يبقى الفرس في اليمن. وتزوجوا من اليمنيّات فأنجبوا

منهنّ «الأبناء» وكان منهم الحكام وأسلم باذان كبيرهم فأقرّه الرسول محمد ﷺ على حكم صنعاء.. ثم اختفت المجوسية الزرادشتية من اليمن بإسلام من فيها.

ولكن مع تجارة عدن كان يأتيها من الهند هندوس ومسلمون وفرس ومجوس (زرادشتيون) وكثروا بعد احتلال بريطانيا لعدن. وكان منهم تجار مثل كاوجي (وهم يبيعون الخمور أيضاً) وهوديوالا (طبيب تولى الطب الوقائي في عدن)، فكان لا بد أن توجد لهم معابد ومنها هذا المعبد.

وقد اشتهر الفرس المجوس الزرادشتيون المثنويون في عدن بانضباطهم وعلاقتهم الوطيدة مع بريطانيا. وهم تجار بطبيعتهم. وقد أعطوا ولاءهم في الهند لبريطانيا منذ أن دخلها الإنجليز وتعاونوا معهم. ولكنهم احتفظوا لأنفسهم بالتجارة ولم تستطع حتى الشركات الإنجليزية أن تنافسهم. وكان لهم دور في تجارة الأفيون التي قامت بها بريطانيا وكانت تصدرها للصين. وكسبت منها بريطانيا مئات الملايين من الجنيهات بعد أن سممت الشعب الصيني بالأفيون ثم بعده المورفين والهروين. وخاضت بريطانيا ثلاثة حروب ضد ملك الصين الذي حاول أن يمنع هذه التجارة القذرة، ولكن بريطانيا تحالفت مع فرنسا التي كانت تحتل ما يسمى الهند الصينية (لاوس وكمبوديا وفيتنام وفيها زراعات واسعة للخشخاش الذي يستخرج منه الأفيون) لفرض تجارة الأفيون وتسميم الشعب الصيني بالقوة.

وفي الحرب الثالثة اشتركت معهما الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الدول الغربية الحقيرة لا يهمها الشعوب، وكانت أكبر مروِّج لتجارة المخدرات في العالم وتخوض الحروب من أجل نشرها باسم حرية التجارة. فلما تشبّعت السوق الصينية انتقلت تجارة المخدرات إلى أوربا وأمريكا ذاتها.. وهاهنا قامت الدنيا ولم تقعد وبدأ تجريم تعاطي المخدرات وتجريم الاتجار بها.

وكان الفرس (البارسي) تجاراً ماهرين.. واستعانت بهم بريطانيا في عدن.

واشتغلوا بالتجارة وبالربا وبتجارة الخمور كما اشتغلوا بتجارة الملح الذي كان يُصدّر من عدن. ودخلوا شركاء في المملاح في عدن (خورمكسر) مع شركة إيطالية.

وكانوا مشهورين بلباقتهم ونظافتهم ويتعاملون بدقة ومهنية عالية مع كافة الفئات. ولكن أكثر تعاملهم كان مع الإنجليز والأوربيين الموجودين في عدن، ويوفرون لهم ما يريدونه من أنواع الخمور والثياب والساعات، بل والسيارات.

وكان ركاب البواخر كثيراً ما يرتادون حوانيت التواهي وكان أكبرها وأجملها حوانيت كواجي دينشو البارسي. كما كانت لهم مساهمة في الفنادق والعمارات وبذلك كانوا أخطر المنافسين لليهود، بل قد تفوقوا على يهود عدن في تجارتهم ومعاملاتهم.

والفرس يمجّدون النار والشمس ويعبدونها، وقد رأيتهم (وكان معي الأخ الشيخ عبد المجيد الزنداني وكنا في جبل حقات) وهم يسجدون للشمس عند بزوغها وطلوعها. ويسمون المثنوية لأنهم يعتقدون بإلٰهين: إلٰه الخير وإلٰه الشر، والمعركة بينهما سجال حتى قرب نهاية العالم عندما ينتصر إلٰه الخير ويقتل إلٰه الشر.

ولم يعد في عدن بعد الاستقلال أي زرادشتي مجوسي. وبالتالي تحوّل معبدهم إلى مسجد سلمان الفارسي بعد تحقيق الوحدة.

مدفن المجوس



المكان الذي يوضع فيه موتى الفرس، بُني في العام ١٩٣٥م.

لا يدفن الفرس المجوس (الزرادشتيون) موتاهم بل يتركون الجثث في مكانٍ عالٍ مفتوح، حتى تأتي العقبان والنسور فتنهشها وتأكلها. وهذا أحد المواضع الموجودة في عدن في الطويلة في لحف جبل شمسان لموتى الفرس هؤلاء.

معبد الهندوس في كريتر

أكثرها شهرة معبد هتنجراج ماناجي، ومعبد هانومان في طريق غاندي، ومعبد جيان سويتجر في سوق البز، ومعبد فايشناف سريناجي في شارع بنين.



هذا واحد من معابد الهندوس في عدن.
ويقع في شارع حسن علي في كريتر.

من المعلوم أن الهندوس كانوا يأتون إلى عدن للتجارة منذ أقدم الأزمنة وكانوا موجودين في العصور الإسلامية، ولست أدري إن كانت لهم معابد آنذاك ، ولكن مع دخول الإنجليز إلى عدن واحتلالهم لها عام ١٨٣٩م، اعتمد القبطان هينس ومن أتى بعده من حكام عدن على الهنود كموظفين وتجار.. وظهرت لهم في عدن عدة معابد ومدارس وأحياء. ولكنهم هربوا جميعاً أثناء معارك الاستقلال في الستينات من القرن العشرين. ولم يبق إلا المسلمين الهنود الذي كانوا منذ زمن طويل ينسجمون مع أبناء عدن ويصيرون من أهلها. وقد دخل بعض هؤلاء الهندوس الإسلام. وكانت علاقاتهم مع أبناء عدن وديّة، رغم إحساس أبناء عدن بأن الإنجليز يفضّلونهم عليهم. وللهندوس في عدن عدة معابد وعدة مدارس، ولكنها كلها انتهت بعد الاستقلال بسبب مغادرة الهندوس الجماعية لعدن.

فهرس المحتويات